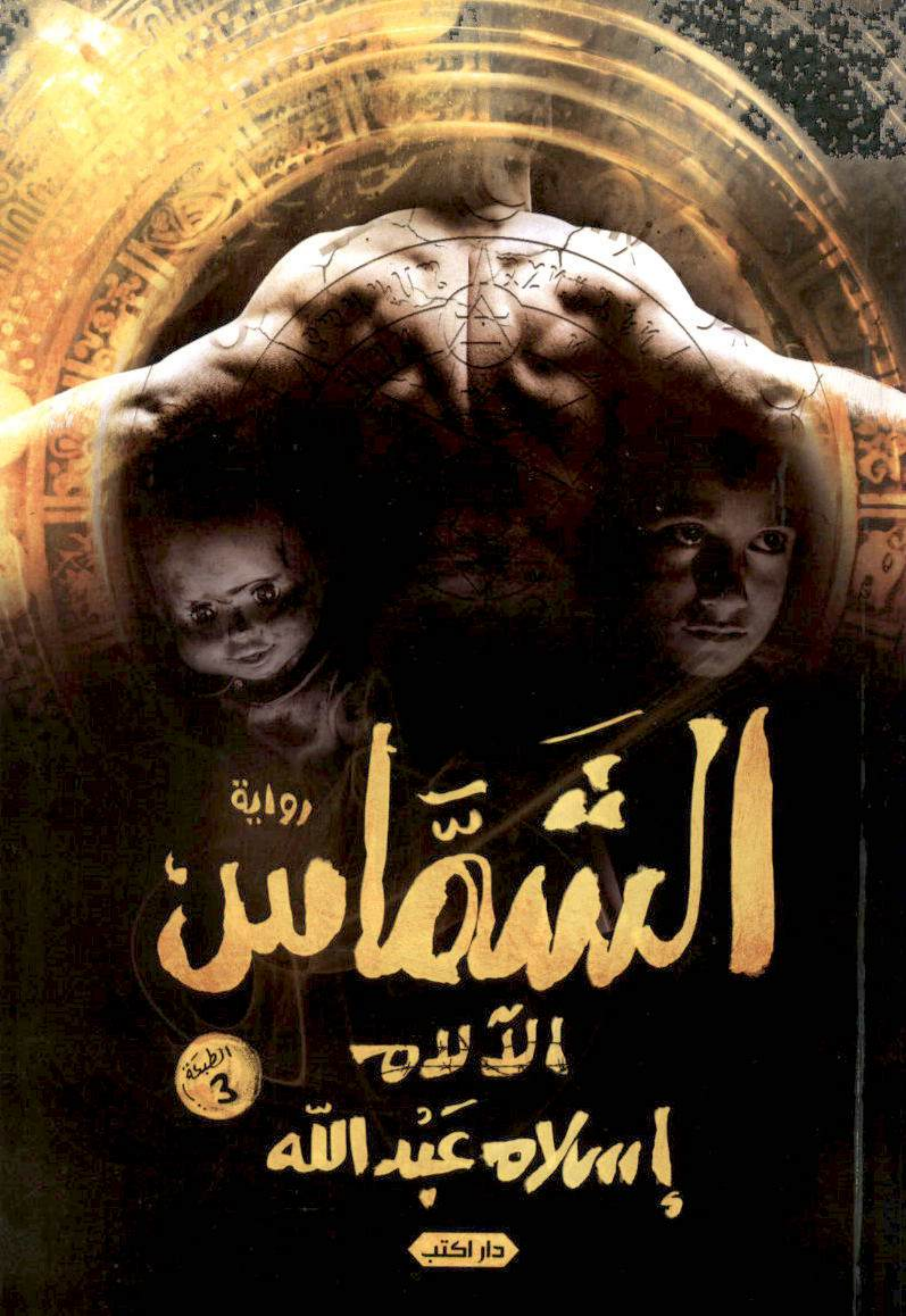

رواية
الشماس
الآلام
الطبعة 3
إسلام عبد الله
دار اكتب

الشمّاس

الآلام

الشمّاس

ج2

الآلام

إسلام عبد الله

الطبعة الثالثة ، القاهرة 2017م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 2874/ 2015

I.S.B.N: 978-977-488-355-2



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان ، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة ، مصر

هاتف : 01144552557 – 01147633268

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

الشمّاس

الآلام

رواية

إسلام عبد الله



دار اكتب للنشر والتوزيع



في أحد الأماكن الحدودية بمحافظة مرسى مطروح تتوسط الشمس كبد السماء لتنشر أشعتها في كل مكان بتحدٍّ سافرٍ للسُّحب والغُيوم التي خشت مواجهتها، وانسحبت في هدوء لتخلي لها الطريق لصبٍّ جامٍّ غضبها على جنديين يجلسان فوق أحد أبراج المراقبة في معسكر حدودي للجيش الثالث الميداني.. لكن أشعة الشمس لم تجد الترحيب المناسب من الجنديين تقديرًا لقوتها وحرارتها.. بل وجدت منهما الإهمال واللامبالاة نظرًا لتعودهما الدائم على هذه الأشعة وما يصاحبها من حرارةٍ وقيظ شديد.. ونجحت وسائلهم الدفاعية البدائية في التصدي لهذه الأشعة وجنودها الملونة البنفسجية وتحت الحمراء وغيرها.. عن طريق الحديث الرتيب والممل الدائم بينهم، وهم يراقبون حواشي الصحراء وعقاربها وهي تتلوى بسرعة وتختبئ من حرارة القيظ الشديد..

كان أحد الجنديين يتحدى قوانين الفيزياء والطبيعة بحمله كوبًا ساخنًا من الشاي الأسود العتيق ليشربه على فمٍ واحد في ظِلِّ هذا الحر الخانق، والآخر ينظر له مبتسمًا وهو ينفُثُ دخان سيجارته الرخيصة وهو يتابع حديث زميله باهتمامٍ شديد، ويتحسَّس سلاحه الروسي بيده كل بضع ثوانٍ ..

يقطع جلستهم الودية الرتيبة تلك.. صوتٌ ضخمٌ وقويٌّ أشبهُ بصوت المدافع الثقيلة.. فيهبُّ الجنديان من مكانهما وهم يمسكان أسلحتهما بقُوةٍ وعُنفٍ وفي تحفُّزٍ شديد.. يبحثان بسرعة بجوارهما عن مصدر هذا الصوت، وما سبَّبه حتى يعلما ما حَدَثَ حولهما وهما في غفلة عنه.. لحظات وصدر صوتٌ آخر أقوى من الصوت السابق وأصخب منه.. فجفلا منه لحظاتٍ، ثم بدءا البحث باهتمام حولهما فوق الأرض وبين السماء بحثًا عن مصدر هذا الصوت، ولكن لم يَعثُرا على أيِّ شيءٍ غريبٍ في هذه السماء الصافية ولا فوق أرض المعسكر وما حوله..

فجأة سمعا صوت شيءٍ يخترق الهواء بسرعة شديدة.. ومصدره يأتي من خلفهما فلتفتا تجاهه سريعًا.. فوجدا شيئًا يمرُّ بسرعة البرق بينهما وينغرز بأرض المعسكر.. جالا بأنظارهما تجاهه في فضول شديد، فوجداه شيئًا معدنيًّا وطويلًا ومُعلقًا به مِصباح.. مسحا أعينهما بقوةٍ ونظرا إليه ثانيةً.كان ظاهراً بكل وضوح.. إنه عمود إنارة.. نعم

عمود إنارة كامل قد سَقَطَ من السماء إلى داخل أرض المعسكر لديهم.. أخذت بعض الجنود القليلة تنسلُّ من أماكنها بالمعسكر وتلتف حول عمود الإنارة المغروز بالأرض الذي قد انحنى وهشَّم مصباحه بالكامل ..

فجأةً سمعو صوت زئير غريب يقترب منهم من الأعلى.. فنظروا خلفهم فوجدوا شيئًا بُنيَّ اللَّون يسقط من السماء بسرعة جهتهم .. فابتعدوا عن طريقه مُسرعين، سقط هذا الشيءُ خلف إحدى السيارات الهامفي الخاصة بنقل الجنود.. نظر بعضُ الجنود إلى بعضٍ مندهشين، ثم تخلَّل الفضول أحد الجنود فذهب جهة السيارة لينظر إلى ماهية هذا الشيء الهابط من السماء.. فتقدم جهة السيارة ووقف بجوارها ينظر إلى ما خلفها، ولكن فجأةً شُطِرَ الجندي إلى نصفين، وتحطَّمت السيارة الهامفي في لحظاتٍ، وصدر صوتُ زمجرة كبيرة.. صرخ سريعًا جندي من الجنود الواقفين فوق برج المراقبة بصوتٍ قويٍّ وجهوريٍّ:

– حرس سلاااااح:

وقام بإطلاق النيران فورًا على مصدر صوت هذه الزمجرة.. بعد عدة لحظات ضَجَّ المُعسكر بسرينة قويةٍ وخرج جميع الجنود في عُجالةٍ.. بعضهم يرتدي ملابسه العسكرية كاملة وبعضهم لا يرتدي غير ملابسه الداخلية.. يحملون أسلحتهم النارية وأطلقوا جميعًا نيراهم

على هذا الشيء الغامض القابِع بجوار السيارة الهامفي المحطمة.. الذي أخَذَ يُطيحُ بقوةٍ ببعض الجنود.. ثم سرعان ما هربَ بعيدًا عنهم وعن نيَراهم، ولكنه سقط جثة هامدة على الأرض نظرًا لكثافة إطلاق النيران عليه، ولكن ذلك لم يمنع الجنود من أن يُفرغِوا ما تبقّى من خزائن أسلحتهم عليه وهو جثةٌ هامدةٌ أمامهم.. لحظات وتوقفَ الجنود عن إطلاق النيران وساد الصمت المكان كان جميع الجنود لا يتحدثون.. فقط ينظرون إلى المشهد الذي أمامهم في صمتٍ مهيبٍ..

***

ثلاثون دقيقه فقط هي الفترة التي استغرقها وصول قائد الجيش من مقرِّ إقامته إلى المعسكر الحدودي.. هبطت طائرته وترجَّل منها القائدُ مُسرعًا وهو في تشكُّكٍ من صِحَّة ما قد سمعه من كبار الضباط بالمعسكر، وقرَّرَ أن يشهد ذلك الشيء بنفسِه.. لحظات وأصبح أمام عمود الإضاءة المُحطَّم داخل المعسكر ثم رأي شيئًا أمامه ضخمًا مُغطًّى بغطاءٍ مُموَّه كبير..فأمر أحدَ الجنود بالكشف عن هذا الغطِاء.. فامتثل الجنديُّ وهو مُتردِّدٌ وتقدَّم ورفع الغطاء ليظهر ما يُخفيه، وتراجَعَ الجنديُّ سريعًا وهو فَزِعٌ.. نظر قائد الجيش إلى ما أمامه فعقدت الدهشة والصدمة لسانَه، فنظر للجنود وكِبار الضباط حوله فوجدهم ينظرون إليه بلهفةٍ منتظرين رأيه وأوامره.. فجأةً صرخُ أحدُ الجنود وهو يؤدِّي التحية العسكرية للقائد:

– تمام يا فندم لقد وصلت لنا إخبارية من المخابرات الحربية.

ووضع رسالة مكتوبة في يد قائد الجيش فقرأها بسرعة ولهفةٍ.. ثم نظر مصدومًا إلى الضابط الذي يقف بجواره وقد تغيرت ملامحُه..

وقبل أن يتحدث سمعوا صوتًا قويًا جدًّا كاد أن يصيبهم جميعًا بالصَّممِ.. واهتزت الأرض بشدة أسفلهم فسقط الكثير من الجنود أرضًا، والباقي حاول أن يحافظ على توازنه.. فجأةً أشارَ أحدُ الجنود إلى السماء وهو يصرخُ إلى القائد :

– انظر يا فندم .. إنها السماء .. السماء ..

نظر القائد إلى السماء وهو يسقط على الأرض وهي ما زالت تهتزُّ أسفله.. فرأى مشهدًا عجيبًا غريبًا لا يستطيع أحدٌ أن يصفَه.. حاوَل أن يعبر عن دهشته فلم يستطع، فقد عقدت الصدمة لسانه، ولكنه نظر سريعًا إلى الرسالة التي بيده، ثم نظر إلى السماء مرةً أخرى، وهو يتمتم :

– إنه هو.. إنها لعنته..

فسأله أحد الضباط بفضولٍ شديدٍ:

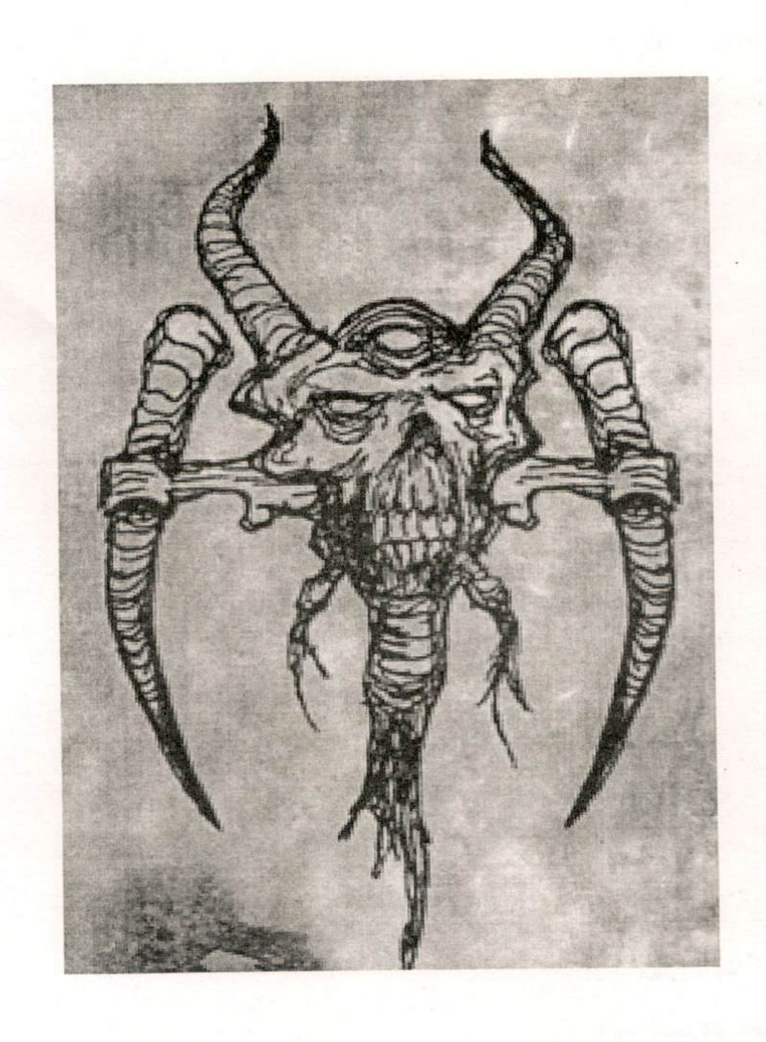
– مَنْ تقصد بكلامك يا سيدي.. عَمَّن تتحدث؟

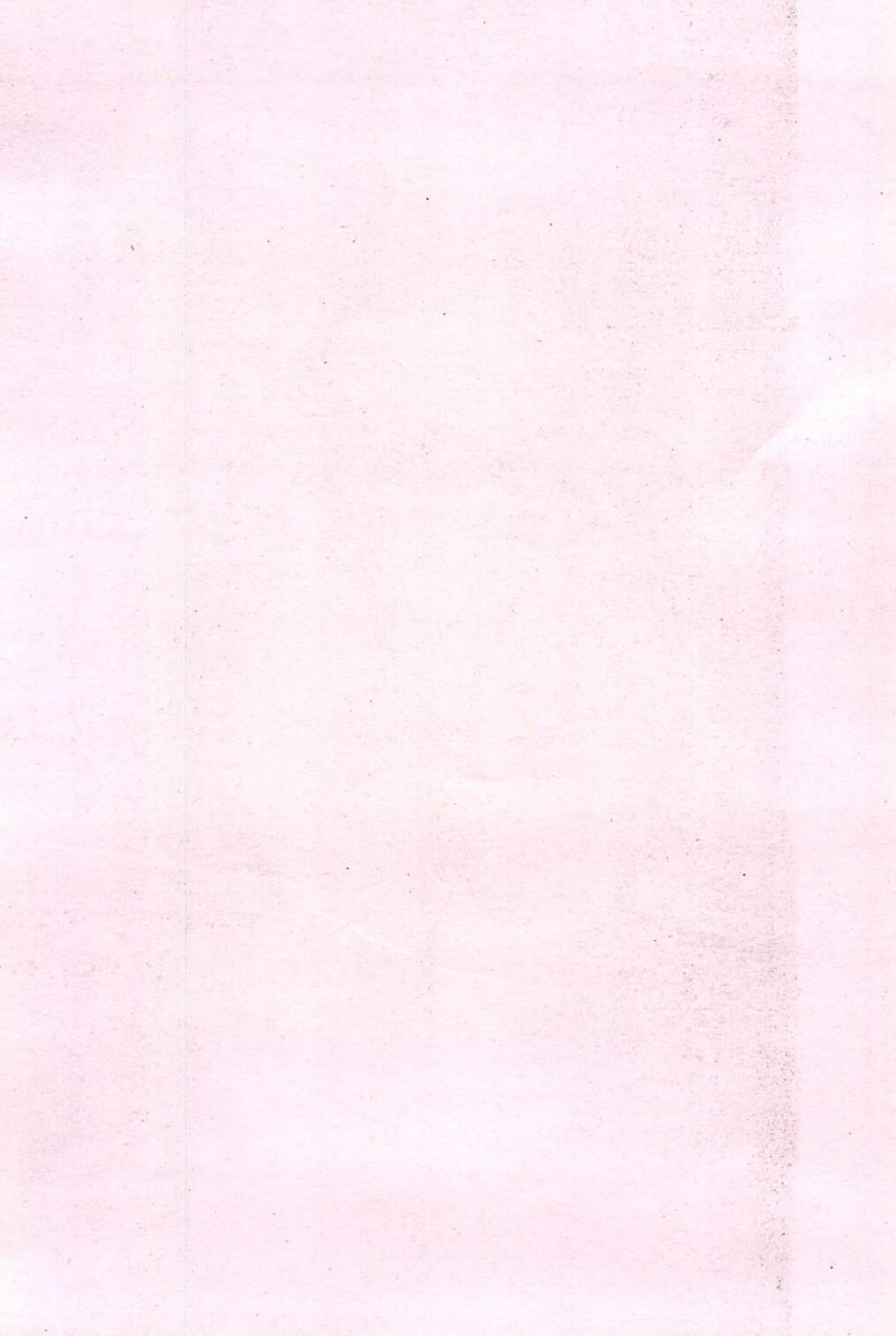
فصرخ القائد بقوةٍ :

– إنه هو.. إنه ..

الشمّاس







ذكريات

وقف حاتم فوزي بداخل الغرفة أمام جثمان أحد الفتيات المُسجَّى أمامه على الأرض، وهي غارقة في دمائها، وهو ينظر إليها بلا مبالاة..

فُتح باب الغرفة بقوة، ودلُفُ منه رجلٌ بدين في منتصف الخمسينيات.. لاحظ أن حاتم واقفًا أمام جثمان الفتاة، وهي غارقة في بحر دمائها، غلبته الصدمة، وشعر بالذُّعر.. فهمٌّ بسحب مسدسه من جيبه وصرخ في حاتم :

- كنت متأكد.. إنت اللي بتقتلهم.. إنت اللي بتقتلهم.. أنا هاموّتك زي ماموتهم .. أنا هخلّص الناس منك ومن شرك.

صرخ به حاتم مُترجيًا إياه :

- إستنى يا مجنون.. أنا هافهّمك.

صرخ به الرجل بجنون:

– أنا هموّتك.. أنا هموّتك.

وضغط على زناد المسدس.. لكنه لم يطلق شيئًا..

ابتسم حاتم بشدة.. فارتبك الرجل، وحاوَلَ أن يضغط عليه مرةً أخرى، ولكن مسدسه لم يطلق الرصاص مرةً أخرى..

ضحك حاتم بصوت عالٍ.. فشعر الرجل بالارتباك.. وحاول مرةً ثانيةً، وثالثة، ورابعة دون جدوى..

اقترب منه حاتم، وعلى وجهه ابتسامةٌ كبيرة :

– نسيت تحط دول.

وألقى طلقات الرصاص ببطء من كف يده واحدة تلو الأخرى.. فشعر الرجل بالذُّعر، وألقى بسلاحه جهة حاتم الذي تفاداها برشاقة، وهو يضحك من مشهد الرجل، وبدأ يقترب منه بسرعة وأمسكه من ملابسه :

– دلوقتي بعد ما عرفت سري.. مش ممكن أسيبك تعيش.

محاطًا بالخوف الشديد، وبأنفاس يملؤها اليأس بدأ الرجل يستجدي حاتم على حياته..

– أرجوك .. سبني.. أنا مش هقول لحد أرجوك.. متموتنيش .

فابتسم له حاتم، وهو يترك ملابسه..

بدت علامات الفرح، والارتياح على وجه الرجل وهو يبتسم فرحًا بخلاصه ونجاته، ولكنه شعر فجأة بشعور غريب يصدر من معدته فتحسَّسها بيده ليجد دماء على يده.

نظر إلى حاتم الذي نظر له شذرًا من عينيه المخيفتين، وهو يحمل سكينًا بيده اليمنى ملطخة بدماءه.. شعر الرجل بالذُّعر الشديد ينتاب قلبه، ويهزُّ جوارحه، وبدأ يهرب من أمام حاتم، وهو مصاب فتعثّرت قدمه، وسقط على الأرض بقوة شديدة.. فاقترب منه حاتم بسرعة، وهو قلق مادًا له يده محاولًا مساعدته أن يقف مرة أخرى..

- في إيه يا أستاذ مالك..؟

صرخ شخص من خلفهم وهو يشاهدهم بصوت عالٍ وحادٍّ :

- كات .. هايل يا جماعة .. مشهد ممتاز.

فجأة انتشر عدة أشخاص داخل الغرفة، وهم يحملون الملابس، والإضاءات، والمكياج مقتربون من حاتم والرجل الخمسيني والفتاة التي كانت جثة هامدة.. التي هبت واقفة وهي تشعر بالنعاس..

اقترب المخرج من حاتم، وهو يحاول أن يساعد الرجل الخمسيني على الوقوف..

- هات إيدك يا فنان.

هنأهم المخرج :

– الله ينور يا حاتم.. إنت، والأستاذ لطفي عملتم مشهد ولا أروع.

أمسك لطفي بيد حاتم، وهو يهنئه بشدة :

– إيه الأداء ده يا حاتم ؟.. اندماجك في المشهد، ونظرة عينيك حسّسوني إنك قاتل فعلًا لدرجة إني حسّيت إنك موّتني بجد، ومشهد هروبي منك كان واقعي مش تمثيل.. أنا بقالي **35** سنة بمثل مشفتش أداء واقعي للدرجة دي.. برافو يا حاتم .. برافو..

ابتسم حاتم ابتسامة باهته:

– العفو يا أستاذ.. إحنا كلنا هنا تلاميذك..

شدَّ لطفي على يده:

– حبيبي يا حاتم.

ثم تركه مع المخرج، وانصرف.

خرج حاتم، والمخرج خارج استوديو التصوير متجهين إلى أحد الحدائق أمام الاستوديو، وهم يتحاوران..

وضع المخرج يده على كتف حاتم الذي يفوقه طولًا بكثير، وهو يهمس له:

– بالراحة على الراجل يا عم حاتم.. الراجل خلاص عجّز.. مش لازم يعني تتمنظر قدامه بقدراتك التمثيلية يا عم "ال باتشينو".

– شوفت يا رامي.. دلوقتي بيقول إني ممثل هايل مع إنه من 7 سنين مثّلت قدامه برضه، وكان عايز يخلّي المخرج يشيل أدواري من الفيلم.. علشان إيه.. مابعرفش أمثّل!.

– يا عم أديك ردّتله الموقف بتاعه أهه، وخليته يجي في فيلم بطولتك، ويقوم بدور كومبارس.

أزاح حاتم يدَ المخرج من على كتفه وهو يبتسم :

– يا عم لوحتلي رقبتي.. مش لازم تتشعلق فيّت يعني.. راعي طولك يا أخي.

قام المخرج بضرب حاتم بقبضة يده، وهو يمازحه :

– مش عاجبك شكلي ولاّ إيه؟ دي المزز بتتحدّف عليَّ من شكلي، وجسمي المتناسق.

– بيتحدّفو عليك برضه علشان كده؟.. مش علشان بتكتشفهم يعني؟.. المهم الفيلم فاضله كام مشهد؟.

– 3 مشاهد، وإنت مش فيهم.. يعني كده يعتبر الفيلم خلص.. هصوّر 3 مشاهد بكره، وأدخله يتمنتج على طول.. متصدقش أنا زعلان قد إيه إن الفيلم خلص، ومش هشوفك كل يوم.. أنا بتقطّع من جوايا ونسيت طعم الفرح.

- خلاص يا عم إنت هتغنيلي.. إخلص، آخر التثبيت ده إيه؟ أنا عارفك .: مابتعملش كده إلا لما تكون عايز حاجه.

- حبيبي ياللي فاهمني على طول.. بقولك في بنت صحفية ممتازة عايزها تعمل معاك لقاء صحفي كده **exclusive** علشان إنت نجم مشهور وهتسمّع معاها.

حاتم بضيق:

- إمم، ودي برضو هاتكتشفها هي كمان؟!

ابتسم المخرج :

- لا يا عم ديماينفعش أكتشفها خالص أصلها بنت أختي.

- خلاص إديلها نمرة إبراهيم، وتبقى تحدّد معاه ميعاد نتقابل فيه.

شدّه المخرج من يده، ودخل به إلى غرفة باستديو آخر:

- إبراهيم مين يا عم؟.. هو خد هيشوفك تاني.. تعالى معايا.. أنا جبتها جوّه أهه.. تخطف منك الحديث على السريع في الإنجاز.

حاول حاتم أن يوقفه مُتردِّدًا :

- استنى بس يا رامي أنا مش مجهّز حاجة هجاوبها إزّاي..؟

– يا عم حاتم هي كيميا؟.. بتحب تاكل إيه؟ بتحب تشرب إيه؟.. بتستحمى فين؟.. إنتَ عارف الأسئلة العبيطة دي.. يلاّ بقى متصغّرنيش مع البنت.

جذب حاتم من يده، ودخل الغرفة فاستسلم له حاتم بضيق..

ليجد أمامه فتاة جميلة تجلس على أحد المقاعد، وأمامها مقعد فارغ، وبيدها مُسجّل.. هبّت واقفةً عندما رأهما، وبدا عليها الإرتباك..

لحظاتٍ حاولت معالجته بابتسامة مضطربة.

تحدّث رامي، وهو يحتضن يد حاتم:

– أي خدمة يا ست سميرة.. جبتلك سي حاتم أهه اللي صدّعتيني بيه عايزه تقابليه.. عايزه تقابليه.

شعرت سميرة بالخجل :

– خالو.. إنت بتقول إيه؟.. فرصة سعيدة يا أستاذ حاتم.. أنا سعيدة جدًّا إني حضرتك هتدّيني شرف إني أعمل مقابلة النهاردة.

ابتسم حاتم لها بودٍّ:

– أنا اللي سعيد إني شفتك النهاردة يا سميرة.

قال رامي بسرعة :

- هاروح أنا علشان أظبط اللوكيشنات بتاعت المشاهد الجايه.. أهو حاتم معاكي يا سميرة.. إسأليه براحتك بقى.

ابتسمت سميرة بفرحةٍ شديدة :

- حاضر يا خالو.

جذب رامي حاتم من رقبته، وهمس في أذنه:

- بقولك إيه.. سميرة دي بنت أختي.. تعرف لو فكرت تكتشفها أقطع رقبتك.. ماشي؟.

ابتسم حاتم له بسخرية :

- حاضر.

- خلاص.. أنا في اللوكيشن بعد ما تخلّصي يا سميرة تعاليلي على هناك.. سلام.

تركهم رامي،وانصرف مبتعدًا.. فيجلس حاتم على المقعد الفارغ، وجلست سميرة بسرعة أمامه، وبدا عليها الارتباك:

- إمم.. أنا مش عارفه أبتدي منين؟

إبتسم حاتم:

- هي أول مرة تعملي حديث مع حد؟

ابتسمت بخجل:

- بصراحه.. آه.

- متقلقيش.. إسالي عن أي حاجه، وأنا هجاوبك عليها؟.

ابتسمت وهي تفتح مُسجّلها:

- أنا مش عارفة.. إمم.. طيب نبتدي باسمك الأول.

وضع حاتم يده على ذقنه، وهو ينظر للأسفل، وبدت عليه الحيرة:

- إمم سؤال صعب.. استني كده.. افتكرت.. حاتم فوزي.

ضحكت بشدة:

- أنا آسفة.. معلش.. حضرتك عندك كام سنة؟

نظر حاتم إليها، وهو يبتسم:

- تدّيني كام ؟

- 25.. بالكثير 28.

- هههههه.. لا مش للدرجة دي يعني.. أنا يا ستّي في أوائل الأربعين.

- مع إنه مش باين على حضرتك خالص إنك في الثلاثينات أصلًا.

قام حاتم بالتخميس بيده بوجهها، وهو يبتسم.. ضحكت بشدة:

– لا والله أنا مش قصدي أحسد حضرتك خالص.. يا خبر.. شكلك فهمتني غلط.. طيب نخش للسؤال التاني حضرتك مثّلت في كام عمل؟

نظر حاتم بطرف عينه جهة اليسار، وهو يحاول أن يتذكر:

– حوالي تقريبًا 6 مسلسلات، و12 فيلم.. لأ..15 فيلم.. في تلات أفلام كنت طالع بأدوار صغيرة فيها.

– دخلت إزاي طريق الفن ؟

حضر إلى مُخيلة عادل سريعًا صورة لرجِل مربوطة يداه، وقدماه، وقطعة قماش تسدُّ فمه.

فأجابها بحزنٍ:

– عن طريق المخرج محمود وهبة هو اللي اكتشفني، ودخلني مجال الفن.

– الله يرحمه.. اتقتل بطريقة بشعة جدًّا، ووفاته ما زالت لغز لغاية دلوقتي.. حضرتك معندكش أي فكرة عن مين اللي قتله؟.

استرجع حاتم سريعًا مشهدًا لمحمود وهبة، وهو مشدود وثاقه، وفمه به قطعة قماش والدموع بين عينيه، وهو غارِق في دمائه، وهو ينظر إلى حاتم ..

رد عليها باقتضاب:

– معنديش أي خلفية عن الموضوع ده، ويا ريت حضرتك متكلّمنيش فيه.

شعرت بالخجل:

– أنا آسفة.. معلش مقدّرة شعور حضرتك، وإنك كنت قريّب منه قوي.

– أنا اللي بتأسّفلك.. إنتِ مقولتيش حاجه غلط.. بس الموضوع ده بيثيرني نفسيًّا مابحبش أتكلم فيه.

– خلاص ننتقل لسؤال تاني.. حضرتك متجوّز ؟

– لأ.. لسه مفيش نصيب.

– ولا أُعجبت بحد من الفنانات اللي مثّلت معاهم؟

باقتضاب:

– لأ.

– ولا حبّيت قبل كده حتى من خارج الوسط؟

– لأ.

– ولا حتى بنت الجيران؟

ابتسم حاتم لها، وتجاهل سؤالها، وهو يشير إليها بيده أن تُكمل أسئلتها.

– بتحب ألوان معينة؟

– بحب كل الألوان الفسفورية.

– بتكره لون إيه؟

تذكّر حاتم الدماء، وهي تتساقط على الأرض:

– الأحمر.

– بتشجّع مين في أوروبا؟

– برشلونة.

– وفي مصر؟

– اللعبة الحلوة.

ابتسمت :

– رد دبلوماسي طيب أنا عندي أسئلة كتير قوي ليك.. بس أنا عايزه أكتب عن حاجة جديدة محدّش كتب عنك فيها قبل كده.. أنا لاحظت إن مفيش أي معلومات عن فترة طفولتك نهائي.. يا ريت بقى تحكيلي شويه عن طفولتك.

– عادي.. طفوله عادية خالص.

اعتدلت في جلستها:

– لأ مش معقول.. أنا عايزه تركّز شويه، وتفتكرلي أحداث طفولتك كده وإنت صغير.. مثلًا علاقة أهلك بيك إيه؟.. إخواتك، أصحابك، مدرسينك.. ركّز كده، وقولّي؟

إتّكأ حاتم على مقعده، وذهب بذاكرته بعيدًا.. إلى الماضي منذ طفولته.. مُسترجعًا ما حدث له في خلال حياته الماضية..

***

توت.. توت

أول ذِكرى كانت في مخيّلته، ووعيه عندما كان في عمر أربع سنوات عندما عادت أمه من الخارج، وهي تحمل بعض الحقائب البلاستيكية ومعها أخته الكبيرة ذات التسع سنوات، وقامت بالنداء عليه بفرح، وأعطته بعض الحقائب ليفتحها.. فوجد سيارة صغيرة ومسدسًا بلاستيكيًّا كبيرًا وكرة قدم بيضاء، ففرح بها أشد فَرَحٍ، ووجد أخته الكبيرة تُقبِّلُه ووالدته تحضنه في حنانٍ كبيرٍ، كم شعر بالسعادة تغمر قلبه الصغير وهو يتحسس هذه الهدايا! حملته أمُّه برفقٍ وأخذت من يديه هداياه الجديدة فشعر بالخوف.. فطمأنته والدته، وأبلغته بأنه سوف يلعب بها مرةً أخرى، ولكن بعد أن تقوم باستحمامه.. فاطمأنَّ ورضخ لها بخضوعٍ وذهب معها إلى الحمام، وبدأ يلعب في المياه الدافئة، ويقوم بسكبها على والدته وهي تحمِّمُه وهو يضحك وهي تضحك من أفعاله وتلعب معه أثناء الاستحمام..

خرج هو ووالدته من الحمَّام ليجد والده في صالة المنزل يتحدث مع أخته.. وعندما رآه ذهب إليه مُسرعًا واحتضنه بشدة وهو يقبله ويقول له :

– كل سنة وانت طيب يا حاتم يا حبيبي.

وأعطاه هديته،كانت علبة ألوان خشبية كبيرة.. فرح بها حاتم بشدة وقبَّل والده، وحضَّرت والدته مأدبة ضخمة من الطعام المحبب إلى قلبه من جميع الأصناف التي يعشقها، أخذ يتخطَّف لقمة من هنا ولُقمة من هناك، وسرعان ما أحسَّ بالشبع.

تركهم وذهبَ مُسرعًا ليلعب بكرته البيضاء، يجري وراءها هنا قليلًا، وفي غرفة المعيشة قليلًا، وفي غرفة نوم أبويه قليلًا، وهو يحمل مسدسه بيده اليمنى والسيارة بيده اليسرى.. يرسم آلاف المَشاهد في مُخيِّلته التي يكون بها البطل يجوبُ بسيارته أنحاء العالم، ويُطلق بمسدسه على آلاف الأشرار، ويحرز أهدافًا تملأ شباك العالَم.. فعقل الأطفال بعكس البالغين ليس له حدود أو موانع وخيالهم خصب يصنع أي شيءٍ ومن كل شيءٍ، وما زلنا نجهل لماذا ذلك.. هل للأطفال القُدرة على رؤية أبعادٍ أخرى وعوالم غير عوالمنا لا نراها.. لا يوجد تفسير منطقي آخر غير ذلك.. أم نحن بالفعل نراها ولكننا لا نعبأ بها مثلهم..فواقعنا يشغلنا بمشكلاته ولسنا بباحثين عن متاعب أخرى في عوالم وأبعاد ثانية.. بدأ يشعر بالنعاس يتغلل في جسده فرضخ لسلطان النوم وذهب في سبات عميق ..

استيقظ بعد عدة ساعات ليجد نفسه على سريره، أخذ ينظر حوله مندهشًا كيف أتيتُ إلى هنا.. فقد كنتُ نائمًا في مكان آخر.. فكيف انتقلت إلى سريري.. لم يعبأ كثيرًا وأخذ يبحثُ عن ألعابه الجديدة.. فوجدهم موضوعين بغرفته وبالقرب منهم علبة ألوانه الجديدة.. فتفحصها سريعًا وترك باقي الألعاب فأخذها بيده، وانطلق يبحث عن شيءٍ يرسم عليه فلم يجد شيئًا ملائم مطلقًا غير حائط غرفة المعيشة ناصع البياض هو ما لفت انتباهه، وبدأ بتجربة علبة الألوان الجديدة عليه.. مرّت نصف ساعه تقريبًا ثم وجد أخته واقفة وراءه وتصرخ به:

– حاتم .. إنت عملت إيه؟

ثم ذهبت مُسرعةً إلى الداخل، وهي تصرخ:

– ماما .

هنا شعر حاتم بالخوف، فعلى الرغم من صِغر سنِّه لكنه بالفطرة علم أن صُراخ أخته بكلمة ماما لا يُبشِّرُ بخيرٍ.. لحظات ووجد حاتم والدته وأخته وأباه أمامه، وبدأ بالارتعاش والخوف من المصير المجهول الذي سوف يلمُّ به.. ولكنه وجد شيئًا آخر مختلفًا.. لقد وجد والده يبتسم وهو يقول لأمِّه :

– استني يا هناء هروح أجيب الكاميرا، واجي.. محدّش يمسح حاجة.

واختفى والده سريعًا عن عينه.. نظر حاتم إلى والدته بخوفٍ.. فوجدها تنظر إليه، وهي تبتسم نصف ابتسامة وعلى وجهها نظرةُ عتابٍ له .. ثم توجَّهت إليه واحتضنته:

- كده يا حاتم .. حد يرسم على الحيطة برضو يا حبيبي؟

عاد والده سريعًا ومعه شيءٌ غريبٌ، كان نادرًا ما يراه بيد والده أو والدتِه، ودُهِشَ أكثر عندما تركته أمُّه يقف بجوار رَسْمِه علي الحائط، وطلب إليه ألَّا يتحرك، ثم فجأةً ضوَّى ضوء أبيض شديد لامع آذى عينيه فشعر حاتم بالضيق لهذا الموقف، وشعر بالضيق أكثر عندما طلب والده أن يكرر هذه العملية أكثر من مرة.. ثم أخذ والدُه يحتضنُه وهو يُقبِّله ويخبره بأنه فنان مثل أبيه، وأشياء أخرى لم يفهمها، ولم يستطع نسيان نظرة أخته الكبرى أميرة وهي تنظر إليه بضيقٍ لنجاته من جريمته تلك التي أبلغت عنه بها، ومرت دون عقابٍ.

في نهاية ذلك اليوم تناولوا العشاء ما تبقى من الوليمة السابقة، وبعد ذلك وجد شيئًا أبيض، وبه عدة نيران أمامه ووالدته ووالده وأخته يلتفون حولها بعد أن أغلقوا الأنوار وبدءوا يغنون ويصفقون بيدهم، وبدأ حاتم يفعل مثلهم.. ثم طلبوا منه أن ينفخ في تلك النيران ليُطفئها.. ففعل مثلما طُلبَ إليه، ثم وَضَعت والدته قطعةً من تلك المادة البيضاء أمامه، وبدأ يتناولها، ولقد أعجبته للغاية، وطلب منها المزيد وتناولها بنهمٍ، بعد أن انتهوا من الطعام وقفَ والدهما وهو يبتسم لأميرة:

– يالاّ .. مين اللي عايز يلعب توت.. توت؟

فقفزت أميرة من مكانها، وهي تصرخ:

– أنا.. أنا.

ووقفت خلف والده، وهي تُمسكه من ملابسه بالخلف.. شاور والده إلى زوجته هناء بيده أن تقف خلفه:

– يالاّ يا هناء.. القطر هيمشي من المحطة بسرعة.

ابتسمت هناء، وهي تنظر له بتردُّدٍ قليلًا ثم سرعان ما وقفت خلفه وهي تمسكه من ملابسه من الخلف وهو يصرخ:

– توت .. توت.

ووقفت أميرة خلف هناء.. ثم نظروا جميعًا جهة حاتم وناداه والده:

– يالاّ يا حاتم إمسك أميرة علشان هنلعب توت توت.

قفز حاتم سريعًا من مكانه، ووقف خلفهم، وبدأ يقلدهم وهم يلفون غرف المنزل، وهم يغنون بصوت واحد:

– توت .. توت .. توت ..توت.. توتوتوتوت.

كم كان حاتم سعيدًا بهذا الموقف وهذه الأحداث!.. أخذ يلعب ويلهو ويركض هنا وهناك مع والديه وأخته الكبيرة.. وانتهى هذا

اليوم الرائع بذكرياته الخلابة، وتناساه حاتم في وسط الأيام.. إلى أن أتى والده من عمله في أحد الأيام، وهو ينادي على حاتم:

– تعالى يا حاتم .. بص صورك أهه جبتها من الاستوديو .

ذهب حاتم مسرعًا، وتفاجأ كثيرًا عندما رأى صورته وهو واقف وبجواره الرسمُ الذي رسمه من قبل، ومسحته والدته بعد ذلك.. إذًا تلك وظيفة هذه الآلة الغريبة التي كان يحملها أبي في ذلك اليوم.. نظر حاتم إلى الصورة فوجد نفسه يقف ويده وملابسه ملطخة بالألوان وخلفه الصورة التي رسمها وهي رسمةٌ لقوس قُزح وشمس على يسار قوس قزح، وبعض الأشعة الخارجة منها، وجميعها مُلوَّنة باللون الأحمر، وشخبطة كثيرة على يمين الصورة بألوان كثيرة أخرى، كمن كان يحاول الكتابة وبهذا قد عايش حاتم الصغير.. أول شعور نوستالجيا، وحنين إلى الماضي لأول مره في حياتة.. هذه الصورة ذكّرته بأسعد لحظات عاشها خلال الفترة السابقة.. فقرّر أن يأخذها، ويضعها معه فوق سريره وهو نائم، ولكن اقتراحه ذلك قُوبِلَ بالرفض الشديد من والدته التي أخذت منه تلك الصورة ولم تعبأ ببكائه.

***

مرّت الأعوام، وأصبح عمر حاتم 8 سنوات، وأصبح الآن الطفل الثاني بالعائلة.. فقد وُلد بعده بأربعة أعوام حنان، وبعد عامين أخرين وصل الأخ الأصغر حسام.. كبر الآن حاتم وبدأ يعي ما حوله ويفهمه

جيدًا ووعى لماذا كان والداه يصرخ أحدهما بالآخر دائمًا.. فتارة يصرخ والده بها بأنها مهملة، وهي تصرخ به بأنها هي من صنعته من أموال والدها، ولسبب ما دائمًا ما كان ينتهي هذا الصراخ بأن يقوم والده بضرب والدته وتركه للمنزل.

لا شعوريًّا بدأ يتخذُ صفَّ الأم فهي دائمًا التي تهتم به وترعاه، ولكنه أيضًا يحبُ والدَه، فهو دائمًا ما يُدافِعُ عنه وعن أفعاله أمام أمه.. بدأ حاتم يعتاد الشِّجارَ الدائم بينه وبين والدته، ولكنه لم يعتد ضربَ المدرسين الدائم له بالمدرسة، ولماذا يطالبون دائما باستدعاء والده إليهم.. الذي بدأ هو أيضًا يضربه، ويصرخُ فيه، ويعاتبه لماذا لا تكون مثل أصدقائك بالمدرسة؟

لماذا درجاتك منخفضة دائمًا؟.. لماذا لا تكون مثل أولاد عمك المتفوقين؟ الكثير من الكلام المعتاد الذي ينتهي دائمًا بالضرب فأصبح يكره المدرسة؛ لأنه سوف يُضرب من مدرسيها ويكره البيت؛ لأنه والده سوف يتشاجر مع والدته كالمعتاد، ولكن بعد أن يضعه في المعادلة هذه المرة فينال نصيبه من الضرب المبرح..

مرّت ثلاثة أعوام كاملة حتى انتهى شجار والديه بالطلاق، فأخيرًا خلى المنزل من والده.. الذي أصبح يكرهه من كل قلبه، ويبغضه أشدَّ البُغض، وفرح لأمه بأنها قد انتهت من تلك الزيجة التعيسة، ومن ذلك الزوج البغيض، ولكنه تفاجأ ببكاء والدته الدائم وحزنها الشديد.

شعر بشعورٍ غريب وعجيبٍ، كيف لها أن تبكي على هذا الشخص؟.. لماذا لا تفرح برحيله؟، ولكن لم يجد إجابةً، ولكنه كان يرى أمه من حين إلى آخر، وهي تخرج ألبوم صور قديمة، وتنظر إلى صورِها مع أبيه وتبتسم.. ثم بعد ذلك تبكي.. فشعر بالفضول في أحد الأيام، وأخذ ألبوم الصور، ونظر إليه،فوجد نفسه تلقائيًّا يبتسم، وهو يسترجع هذه الذكريات المسروقة من ذاك الزمن الطويل.. فظل يُقلِّبُ بسرورٍ في هذه الصور، وهو يشعر بالسعادة وهو يسبح في ذكريات الماضي، ولكنه تذكَّرَ حاضره والوضع بين أبويه الآن فشعر بالحُزن، وأدرك الآن ما كانت والدته تشعر وتمرُّ به.. وقعت عيناه فجأة على صورته القديمة وهو بعمر 4 سنوات، وتذكَّر أول رسمٍ بحياته، وتذكَّر هذا اليوم بتفاصيله كاملة فشعر بالسعادة الشديدة من رؤية هذه الصورة، فسحبها من الألبوم واحتفظ بها، وظل كلما يحدث له شيء يخرجَ هذه الصورة وينظر بها ويهرب بذكرياته السعيدة من مشكلاته وواقعه الأليم..

مَرَّ عام كامل ولم يسمعوا خلاله أيَّ شيءٍ عن والدهم، وقد أصبحت حالتهم المادية سيئة للغاية، وعلم من أمه أن هناك قطعة أرض في مسقط رأسها ورثتها عن والدها، سوف تذهب هنالك لتبيعها ليتعايشوا من ثمنها، وبذلك ذهب حاتم ووالدته وأخته للريف ليبيعوا أرضهم .

البداية

في إحدى ليالي الصيف الحارة أخذت هناء أولادها الأربع لتستقلّ القطار لتذهب إلى قرية الأقواز بمدينة الصف مسقط رأسها.. مرّت ساعات حتى وصلت إلى المدينة، واستقلت سيارة من هناك إلى القرية وجلست بصحبة أختها الوحيدة التي تزوجت واستقرت في فيها.. أخذ حاتم وإخوته يجولون ويركضون بسعادة مع أولاد خالتهم في وسط الحقول والخضرة والمياه وأجواء الطبيعة غير الملوثة، والسعادة تغمر حاتم وهو ينطلق بلا قيد أو خوف من السيارات أو أي من المعوقات التي كان يقابلها في المدينة، ولكم كان يشعر بالإثارة وهو يسرق التوت من الأشجار هو وأقرانه، ثم عندما يطاردهم صاحب هذه الأشجار ويكيل لهم السباب واللعنات وهم يركضون أمامه تعلوهم الضحكات والابتسامات البريئة، وفي الليل يجتمع الجميع أمام المنزل يشوون أعواد الذرة الصفراء ويلتهمونها بنهمٍ..

وفي إحدى تلك الليالي الصيفية جلس حاتم وإخوته كالمعتاد مع أمهم وخالتهم وأولادها وزوجها حول حلقة النيران يشربون الشاي ويلتهمون حبات الذرة الصفراء.. سمع لأول مرة قصة صابر.. هذه القصة الغريبة التي سمعها عندما سألت والدته هناء عن ابن عمها صابر، وكيف أنه هو الوحيد الذي لم يَزُرْها أو يَرَاها..

فأخذت خالته تشرح لها بأن صابر كان في ريعان شبابه ويهتم بالأرض جيدًا، وكان مُقبلًا على الزواج بابنة عمهم خديجة، ولكنه بدأ يشعر فجأةً بالتعب، وبدأ يمرض يومًا بعد يوم.. فأخذه عمي - رحمه الله - وذهب به إلى الأطباء، واكتشف أن صابر - أعاذنا الله - قد أُصيب بالمرض الخبيث، وأخذ عمُّنا يتردَّدُ على الأطباء في مصر، ولكن بلا فائدة، وباع أرضه كلها، وأخذ يطوف بصابر على أولياء الله الصالحين حتى يَمُنَّ عليه الله بالشفاء، ولكن صابر لم يتعافَ، ومات عمي - رحمه الله - بسبب مرض صابر وحزن عليه صابر للغاية واشتد مرضه..

ولكن حدث شيءٌ غريب، فوالدته ذهبت به ذات ليلة خارج القرية مدة أسبوعين أو أكثر وعادا بعد ذلك، وأصبح صابر سليمًا مُعافًى فجأةً، ولكن والدته هي التي مرضت، لا نعلمُ ماذا حَدَثَ، فصابر أصبح مُنعزلًا، وغريبًا عنّا لا يتحدث إلى أي شخصٍ غريبٍ أو قريبٍ خلاف أمِّه التي سرعان ما ماتت ولم يحرك صابر ساكنًا، فإنه لم يشهدْ جنازتها، ولم يحضر عزاءها، وعندما وجَّه أقاربه اللَّوم إليه اكتفى

بالنَّظر إليهم فقط، ومنذ ذلك الوقت وهو منعزل عنا في بيته، لا أحد يزوره ولا يزور أحدًا..

تعجّبت هناء من تلك القصة، ولامت نفسها لأنها كانت منعزلة في مصر عن البلد وأهلها، وطالبت أختها أن تزور صابر للاطمئنان عليه.. فنهرتها أختها، وطالبتها بالعدول عن تلك الفكرة، ولكن تدخَّلَ حاتمٌ فجأة في الحوار وهو يشجع والدته ويحدث خالته :

– متخافيش يا خالتو.. أنا هاروح مع ماما علشان تطمّني.

نظرت هناء إلى حاتم ثم ابتسمت، وهي تحثُّ أختها:

– آه.. يا أسماء معايا حاتم راجل قدّ الدنيا أهه، ولاّ حاتم مش عجبك، ولّا إيه ؟

نظرت أسماء إلى حاتم، وابتسمت:

– يا سلام .. ده راجل، وسيد الرجالة كمان.. ده عريس بنتي بطة.. أنا حاجزاه من دلوقتي.

ابتسم حاتم من كلام خالته، ونظر إلى فاطمة الطفلة الصغيرة التي بجواره، ويدعونها بطة، فشعر بالفخر، والقوة، وأنه وصل إلى مبلغ الرجال..

اتفقت هناء، وأسماء علي زيارة صابر في الغد، وأن يذهب معهم حامد زوج أختها، وحاتم ابنها في زيارة سريعة لصابر، وبالفعل في عصر اليوم التالي ذهب حامد زوج أسماء وهناء وحاتم إلى منزل صابر

الريفي المكون من الطوب اللِّبن، وسقفه المُغطّى بقش القصب، وأعواد الخوص مثله كمثل باقي منازل القرية التي قلّما كان يوجد بها منزل أو اثنان مبنيان بالطوب الأحمر في ذلك الوَقت.. يُغلق منزل صابر بباب خشبيٍّ قديمٍ مُتهالِك لا يصلُح ليسدَّ نور الشمس فما بالك للحماية.. قام حامد بطَرقِ الباب بيده ففُتِحَ الباب بسرعة فدخل ببطء وهو ينادي:

– يا رب يا ساتر.

فتبعه حاتم وهناء.. إلى الداخل.. نظر حاتم إلى الداخل، فوجد المنزل له رائحة غريبة ليست كريهة، ولكن ليست محببة أيضًا، والمنزل يكاد يكون مظلمًا من الداخل على الرغم من وجود الشمس بالخارج.. شعر حاتم بالخوف من المنزل فنظر خلفه إلى أمه فوجدها تشعر بالاضطراب، فنفخ صدره وتقدَّم أمام أمه،وهو يتصنَّع الشجاعة حتى لا تشعر بالخوف.. فنظرت أمه إليه، وابتسمت.. ظل حامد ينادي على صابر بقوة، وهو في وسط المنزل :

– يا صابر.. يا صابر.. الست أم حاتم بنت عمك جمال جات من مصر، وعايزه تشوفك.. يا صابر.. نظر حامد إليهم مُتعجبًا :

– راح فين يا خويا ده ؟

صفّق بيده، وهو يدخل غرفة من الغرف الثلاث التي بالمنزل، وينادي على صابر :

– يا صابر.. إنت فين؟.. الجماعة عايزين يسلّمو عليك.

بحث سريعًا في الغرف الثلاث عن صابر فلم يجده، فرجع إلى هناء وحاتم وهو يحدثهما مُندهِشًا ..

– شكله مش موجود هنا يا أم حاتم!!

لم يكد يكمل جملته حتى فوجئ الجميع بأن صابر يقف خلفهم.. ففزعوا بشدة، ورجعو للخلف مبتعدين.. لحظات قليلة وهدءوا، وتوجَّه حامد بالحديث إليه ..

– كنت فين يا سي صابر؟؟ بنت عمك جمال هنا، وجايه من مصر مخصوص علشان تسلم عليك.

نظر صابر إلى هناء، ولم يتحدث.. تطلَّع إليه حاتم ناظرًا له بتمعنٍ فوجده رجلًا في منتصف الأربعينيات.. حليق اللحية، له شارب رفيع، عيناه ضيقتان، ولكن بنظرات حادة، طوله متوسط، وملابسه مُمزّقة، وغير مهندم.. شكله عادي للغاية، لا شيء فيه مميز أو يثير الريبة إلا صمته الدائم.. توجَّهت هناء إلى صابر ومدَّت يديها إليه لتُسلِّمَ عليه.. فنظر إليها صابر قليلًا ثم تجاهلها، ونظر إلى حاتم..

فسحبت هناء يدها بخجلٍ، وابتسمت وهي مرتبكة، ثم وضعت يديها على رأس حاتم وحدَّثت صابر ..

– ده حاتم ابني الثاني.. عنده 12 سنه دلوقتي.

نظر صابر إليها ثم ابتسم لأول مرة منذ رأته.. ثم أعطاها ظهره، وانصرف في صمتٍ.. تعجبَّت هناء من شخصيته، ونظرت إلى حامد مندهشةً .. فأشار إليها حامد بيده ..

- يلاَّ بينا يا أم حاتم .. إنتِ كده عملتي اللّي عليكي، وزياده.

فهزّت هناء رأسها مصدّقة على كلامه، وسحبت حاتم من يده، وانصرفوا.. فنظر حاتم نظرة خاطفة خلفه، فرأى صابر ينظر إليه، ويهمس له بصوتٍ منخفضٍ ..

- اهرب.

لم يكد ينطق كلماته حتى انسحب جسد صابر بقوة شديدة إلى داخل الغرفة، واختفى عن نظر حاتم الذي فزع مما رآه والتفت خلفه بقوةٍ فنظرت هناء وحامد إليه مُندهشين ..

- ما لك يا حاتم؟ .. وقفت ليه؟

حاتم بحيرةٍ ..

- عم صابر .. عم صابر كلّمني وبعدين.. لقيته.. اختفى.

ابتسم له حامد:

- كلّمك كمان.. شكله إنت الوحيد المبسوط منك.. أنا عمري مشفته ابتسم لحد قبل كده من ساعة اللي حصله.. بقولك يا حاتم

بقى إنت، وأمك إعمللكم همة شويه خلّونا نلحق الغداء علشان لو إتاخرنا العيال، وأمهم مش هيخلّولنا حاجه.

ابتسم الجميع، وهمّوا بالرجوع إلى المنزل..

مرَّ يومان منذ لقاء حاتم بصابر، وجرت الأمور عادية حتى حدث ذات يوم أن اختفى حسام أخو حاتم الأصغر في القرية، ولم يستطع أحد الوصول إليه.. فذهب حاتم وسط أهل القرية، ورفاقه من أبناء عمومته ليبحثوا عن حسام أخيه، وتواصل البحثُ حتى غروب الشمس، ولم يستطع أحدٌ الوصول إلى حسام الصغير، وهمَّ الجميع بالعودة لحلول الظلام إلا هناء التي ظلت تبكي، وهي تحملُ طفلتها حنان وابنتها الكبرى أميرة تقف بجوارها تبكي.. بعد محاولات كثيرة أقنع أهل القرية هناء أن تذهب إلى منزل أختها، وسيُكْمِلُ حامد زوج أختها وبعض رجال القرية البحث هم بدلًا منها، ورضخت هناء على مضضٍ وهي تبكي هي وصغارها.. تأثَّر حاتم للغاية من مشهد أمه وأختيه يبكين.. فطلب إلى الرجال أن يذهب معهم للبحث عن حسام.. فرفضت هناء طلبه، ولكن تدخّل حامد وأقنعها أنه سوف يصطحبه معه وسيكون دائمًا برفقته، فذهب حاتم معهم، وظلوا يبحثون في أرجاء القرية وهم يحملون المشاعل والقناديل القديمة وهم ينادون ويصرخون على حسام الطفل الصغير الذي لم يكمل 5 أعوام، ولكنهم لم يعثروا عليه في أي مكانٍ.. هَمَّ الرجال بالعودة وهم ينوُّن الذهاب للبحث مرة أخرى عن الطفل، ولكن في الصباح عند ظهور

ضوء النهار شعر حاتم بخيبة أملٍ، وهم عائدون ولم يكملوا بحثهم ولكنه كان يعذرهم لأنهم ليس لديهم كهرباء مثل المدينة..

مر الرجال، وهم عائدون على حقل للقصب وبجواره ترعة تفصل الحقل عن الطريق، ويصل الحقل بالطريق بواسطة جزعين كبيرين للنخل يستخدمه الأهالي للعبور من فوق الترعة ذهابًا وإيابًا.. التفت حاتم إلى يساره فوجد ظلًّا أسود يقف بجوار حقل القصب.. فتوقّف فَرِحًا لظنه أنه يمكن أن يكون أخاه الصغير حسام، ولكنه تراجَعَ عن تلك الفكرة لرؤية ظِلِّ شخصٍ بالغ وليس طفلًا صغيرًا.. حاول أن يتحدثِ للرجال ويوقفهم لينظروا إلى ظل الرجل لكنه وجدهم منهمكين في الحديث، ويتابعون طريقهم متناسينه بينهم..

نظر حاتم مرة أخرى إلى الظل، واقترب من حافة الترعة قليلًا ليحاول أن يرى من يقف بجوار حقل القصب على الجهة الأخرى.. فرأى الظل بوضوح تلك المرة.. إنه صابر يقف بجوار الحقل وهو يبتسم له.. ثم أشار إليه أن يأتي إليه.. فشعر بالاضطراب لحظات، ولكنه قرر أن يذهب إليه، فذهب مُسرعًا جهته ومرَّ بحذرٍ على جذعي النخل فوق الترعة المظلمة ووقف أمام صابر الذي حينما رآه دخل مسرعًا إلى حقل القصب..

اندهش حاتم من فعل صابر، وهمّ بالرجوع لكنه نظر خلفه فلم يجد أي أثرٍ للرجال، فنظر حوله فلم يجد إلا ظلامًا دامسًا، ولا يوجد أي بشرٍ حوله، والترعة لها مشهد كئيب مظلم، وصوت صرصور

الحقل يصم أذنه، والهواء البارد يخترق حقل القصب فيصدر صوتًا مُرعبًا قبل أن يصطدم بأسفل رقبته فيشعره بالبرد الشديد، بدأ الرعب يتسلّلُ إلى قلبه الصغير.. فقرر سريعًا أن يتبع أي بشر حوله حتى ولو كان صابر.. فدخل حقل القصب سريعًا.. وهو ينادي عليه ..

– يا عم صابر .. عم صابر .. استنّاني ..

ركض داخل الحقل عدة أمتار، ثم اصطدم بجسد شخص ما.. نظر أمامه فلم يستطع أن يرى شيئًا أمامه بسبب الظلام.. تحركت بعض السحب قليلًا تحت القمر، فبدأ يسقط جزء من إضاءته على ذلك الجسد الذي بدأ يتكشف قليلًا أمام حاتم.. ليرى بالنهاية صابر يقف أمامه.. ابتسم حاتم له سريعًا وهدأت دقاتُ قلبه، وهو يُحدّثه..

– عم صابر.. إيه اللي جابك هنا؟

ابتسم صابر له وحدَّثه بصوت ضعيف للغاية ولكنه مسموع..

– إنت جاي هنا ليه؟

– بدوّر على أخويا الصغير حُسام أصله تاه مننا، ومش لاقيّنه.. مشتفتوش؟ هو صغير عنده خمس سنين ولابس قميص أحمر مخطّط!!

– قولي يا حاتم.. جيت وراياه في الغيط ليه في الضلمة دي.. مش خايف ؟

ابتسم بثقة ..

- أنا راجل مبخافش.

- مبتخافش من أي حاجة؟

- لأ.. أنا قلتلك أنا راجل، والراجل مبيخافش.

- طالما مابتخافش.. تبقى لسه مابقتش راجل !.

- يعني إيه مش فاهم ؟

- إنت لسه صغير يا حاتم.. صغير قوي.

- انا مش صغير.. أنا عندي 12 سنة، ومش صغير.

ضحك صابر بشدة ..

- 12 سنة!.. ههههههههه.

ضحك حاتم لضحك صابر، وهو يجهل لماذا يضحك من كلامه..

وضع صابر يده على كتف حاتم ..

- قولّي يا حاتم.. بتحب أخوك الصغير ؟

- آه طبعًا بحبه.

- مستعد تعمل أي حاجة علشان تلاقيه ؟

شعر حاتم بالريبة من سؤاله ..

- أعمل أي حاجه زي إيه مثلًا؟

نظر صابر إلى يساره.. ثم نظر إليه..

– تصاحب واحد غريب عنك، ويبقى صديقك؟!

إبتسم حاتم بشدة..

– أصاحب واحد غريب؟!.. عادي.. أنا بصاحب أي حد..

– آخد منك عهد على كده.. نساعدك تلاقي أخوك، وتبقى صديقه؟!.

– آه أنا موافق.. إنت عارف مكان حُسام؟؟

إبستم صابر له ثم تركه، وتحرّك للأمام..

– تعالى ورايا.

تبعه حاتم سريعًا، وظل يتحرك خلفه مخترقًا حقل القصب حتى نهايته فوقف حاتم في نهاية الحقل، ثم أشار إلى جهة اليمين.. نظر حاتم بسرعة إلى اليمين فوجد عشة صغيرة مبنية من أعواد الخوص، والقش وحسام نائمًا بداخلها بعمق.. فرح حاتم للغاية، وذهب إليه مسرعًا وحمله بين يديه.. فأفاق حسام ببطء، وظل يمسح عينيه بيده.

– ماما فين؟

فحمله حاتم، وهو مسرور وطمأنه ..

– رايحين أهه لماما يا حسام.. متخافش.

نظر صابر لهما مبتسمًا ثم أرشدهما إلى الجهة الأخرى من الحقل، ومرَّ حاتم سريعًا فوق جذوع النخل فوق الترعة، وهو فرح.. فنظر خلفه ليحدث صابر فوجده يقف أمام حقل القصب.

– إيه يا عم صابر مش هتيجي معانا؟

فهز صابر راسه يمينًا ويسارًا له وهو يبتسم..

فابتسم له حاتم، وهو يحمل أخاه ثم تركه ومضى في طريقه.. ثم تذكّر أنه لم يسأله عن اسم من سوف يصبح صديقه، فنظر خلفه مرة أخرى، ولكنه لم يرَ صابر في أي مكان.. لم يعبأ كثيرًا، وأخذ طريقه عائدًا وهو يقبل أخاه الصغير حسام الذي غَطَّ في النوم على كتفه.. بعد عدة دقائق وجد أمه تركض باحثةً عنه، ومعها حامد وبعض رجال القرية، وما إن رأتهما حتى صرخت من الفرحة، وأخذت تحتضن حسام، وهي تُقبّله بجنون، ومن ثم احتضنت حاتم وهي تبكي وتشكره على إيجاد أخيه الصغير.. تصنَّع حاتم الجَلَدَ، وهو يكاد أن يبكي من مشهد أمه وهي تحتضنهما، وحاول أن يظهر بمظهر الرجل القوي ولكنه لم يستطع إخفاء شعوره بالفخر وقد أصبح البطل الجديد أمام القرية..

مرّت عدة أيام لم تكف أمه خلالها عن امتداحه أمام أي شخص تراه حتى بدأ حاتم يملُّ حديثها ذلك وأصبح يزهده..

باعت أمُّه نصيبها من الأرض، وأصبح لديهم مالًا يكفيهم للعيش من خلاله.. فودَّعت أختها وزوجها، وسافرت مع حاتم وإخوته إلى منزلها بالقاهرة مرة أخرى، وضعت أموالها بأحد البنوك، وظل تتعايش من فوائدها..

مر شهران منذ عودة حاتم من القرية ولم يحدث أي جديد في حياته حتى ذالك اليوم ..

***

الصديق

عاد حاتم من مدرسته، وتناول غداءهُ وتشاجر كالمعتاد مع أخته الكبرى أميرة التي أصبح عمرها الآن 17 عامًا، لعب قليلًا مع أخويه الصغيرين حنان وحسام، ثم اتجه إلى غرفته التي ينام بها هو وحسام الصغير، وأخرج من أسفل سريره المجلدات الجديدة من مجلة ميكي، وأخذ يتفحصها باستمتاع شديد لمدة نصف ساعة ثم دخلت أُمُّه عليه فجأةً فارتبك، وأخفى المجلة سريعًا، فصرخت أمُّه بأن يكفَّ عن قراءة هذا الهراء، وأن يقوم بعمل واجبه المدرسي، وإلا فسوف ينال العقاب الشديد.. هزَّ رأسه على مضضٍ ثم ذهب إلى حقيبته وأخرج كتبه وكشاكيله وهو ينوي أن يُنهي واجبه بسرعةٍ ويعود لقراءة مجلته المحببة.. فأغلقت أمه الباب بسرعة وهي تراقِبُ ما يفعله.. فتح أحد كتبه وبدأ في واجبه ليفاجأ بأن جميعها محلولة.. شعر بالاندهاش الشديد، أخرج باقي واجباته فوجدها جميعها محلولة أيضًا.. شعر

بالفرح فحل جميع واجباته يعني زيادة الوقت في الانغماس بقراءة مجلته المحببة واللعب بأشيائه المفضلة.. حاول أن يتذكّر كثيرًا مَنْ حَلَّ هذه الواجبات، هل هو وإنه لا يتذكر أنه فعل ذلك.. أم شخص آخر من أصدقائه؟.. لم يعبأ بالأمر كثيرًا، وسرعان ما فتح مجلته، وبدأ يستكمل قراءتها..

ذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، وسأل أصدقائه عمَّن حَلَّ له واجباته، ولكن الجميع أنكر أنهم فعلوا ذلك.. شعر حاتم بالحيرة، وظن أن أخته الكبيرة أميرة هي مَنْ فعلت ذلك.. ذهب إلى المترل واتجه إلى أخته أميرة بغرفتها التي تشارك أختها حنان بها، وشكرها على فعلتها، ولكن أميرة اندهشت من فعله، وبدأت بالسخرية منه، وانتهى حديثهما بشجار وصريخ كالمعتاد.. ترك غرفتها غاضبًا بعد أن وبّختهما أمهما على فعلهما، وذهب إلى غرفته،وفتح واجباته فوجدها محلولة مثل أمس، وليس ذلك فقط، بل وجد عددًا جديدًا من مجلة ميكي في حقيبته.. شعر حاتم بالسعادة، وأخذ يقلب بالمجلة ويقرأها في نَهمٍ حتى وجد مكتوبًا بخطٍّ سيئٍ بنهاية المجلة كلمة ..

"هدية من صديقك "

إذا كان من فعل هذا أحد أصدقائي بالفعل فمن هو يا ترى؟ ..

***

مرّت الأيام واستمر الحال كما هو، جميع واجباته محلولة، وما يتمناه يجده هدية في حقيبته.. رأت أمه الهدايا التي معه، ولكنها لم تسأله عنها ظنًا منها أنها من والده الذي يقابله سرًا، ويعطيه هذه الهدايا وطلب إليه ألّا يخبرها، وتمنّت أن يكون هذا هو بداية الطريق لأبيه أن يعود إليهم مرة أخرى فهي تحبُّه بالفعل، ولكنها لم تعد تستطيع تحمُّل تصرفاته.. فتخيّلت أنه قد عاد إلى رُشده، وأنه يمهّد لطريق عودته من خلال حاتم.. هذا كان تحليلها للموقف.. فكل إنسان يُحلّل أي شيء في الكون لمصلحته هو فقط..

ظَلَّ هذا الأمر مدة من الزمن وحاتم يستغلُّ هذا الصديق أسوأ استغلال، يطلب منه جميع طلباته، ويتركه يحل جميع واجباته، ووصل الأمر أنْ طلب إلى صديقه أن ينتقم من عماد الشاب المشاغب الذي يكبره بعدة أعوام، والذي قام بضربه ضربًا مُبرحًا.. فطلب من صديقه السِّرِّيِّ أن ينتقم له، وبالفعل علم في اليوم التالي أن عماد قد أُصيب بحادث دراجة نارية، وأنه بالمستشفى..

شعر حاتم بالسعادة لتحقّق أحلامه الجديد الذي يأمره فيطيع، ولا يفعل حاتم أي شيءٍ بالمقابل لهذه الخِدمات، والهدايا بل كل ما يفعله أن يهمس لنفسه بما يُريدُ فيجدُه قد تحقّق.. فانوس سحري.. مصباح علاء الدين قد وَقَعَ بين يديه، فقرَّر ألّا يتركه.. ظلّت الأمور على ما يُرام حتى بدأت تشعر هناء بأن هناك شيئًا خاطئًا في علاقة حاتم، ووالده لمّا لم يعُدْ والده إليهم أو لماذا لم يصارحها حاتم بمقابلته أبيه،

وأنه هو من يعطيه هذه الهدايا، وهمّت بسؤال حاتم عن أبيه، ولكن كبرياءها منعها في اللحظة الأخيرة، وفضّلت أن يأتي إليها زوجها راكعًا لها، يترجَّاها، أفضل من أن تسأل هي ولدها حاتم عنه أولًا..

في تلك الليلة كان حاتم نائمًا في سريره، وشعر بيدٍ صغيرةٍ باردةٍ على وجهه تصفعه بحنان.. فاستيقظ فوجد أخاه الصغير يصفعه على وجهه بيده الصغيرة وهو ينادي عليه ..

– حاتم .. حاتم ..

فنظر إليه بعينين نصف مغلقة ..

– إيه يا حسام.. إيه اللي مصحّيك دلوقتي؟.

أشار أخوه الصغير إلى جوار سريره وهو يحدّثه ..

– الراجل اللي هناك ده هو اللي صحّاني.

نظر حاتم إلى ما يشير إليه حسام، فلم يرَ شيئًا ..

– فين ده يا حسام؟ .. مفيش حد هناك.

أشار حسام مرة أخرى ..

– هناك واقف جنب السرير أهه ..

– ابتسم حاتم بسخرية ..

– ماشي .. ماشي ... عايز منك إيه الراجل ده؟؟

– بيقولّي أقولّك إن صديقك هيجي يشوفك.

حاتم مُندهشًا:

– صديقي هيجي يشوفني.. مين اللي قالك الكلام ده؟.. حد في الشارع.. حد من صحاب ماما، ولاّ أميرة؟؟

هزّ أخوه رأسه نافيًا، وأشار بجوار سريره:

– الراجل اللي هناك هو اللي قالّي.

هبَّ حاتم سريعًا يملأه الفُضولِ، وأخذ حسامِ من يدِه، واتجه إلى سريره، وأخذ يَنظرُ حولهِ فلم يجد شيئًا.. فنظر حاتم إلى حسام مُرتابًا يرفض تصديق خيال الطفل الصغير، ولكنه مُندهشٌ من كلماته، وأنه علم بسر صديقه المجهول.

– أنا مش شايف حد يا حسام.. إنت شايفه قدامك؟

هزَّ الصغير رأسَه بالإيجاب، وأشار أمامه فوق السرير:

– قاعد على السرير بتاعي، وبيبُصّلك.

بلع حاتم ريقه بسرعة، وهو ينظر إلى السرير بقلق:

– إسأله قولّه.. صديقي ده يبقى مين، وعايز مني إيه؟

ردّد الصغير كلمات حاتم.. ثم هزَّ رأسه عدة مرات.. انتاب حاتم الذُّعر من حديث أخيه إلى شيءٍ خفيٍّ، وغير مرئي.. ابتسم الصغير ثم نظر إلى حاتم ..

– بيقولّك صديقك.. هو الأمير، وهو عايز إنك تبقي صديقه..

شعر حاتم بالخوف، وصرخ جهة السرير..

– أمير مين؟.. أنا مش عايز أبقى صديق حد.. إنتم فاهمين؟.. أنا مش عايز أبقى صاحب حد.

وركض سريعًا جهة سريره، وأخرجَ الهدايا، والمجلات ومَزَّقها، ورماها غاضبًا..

فجأة انفجر مصباحُ الغرفة وأصدرَ صوتًا قويًّا، ففَزِعَ حاتم، وصرخ حسام خائفًا.. فذهب حاتم مُسرعًا جهة صوت حسام، وهو يتخبط في الظلام ليجد شيئًا يقبض على ملابسه، ويرفعه إلى أعلى دون أن يرى شيئًا في الظلام، ثم قذفه للحائط، وسمع صوتًا عاليًا، وغليظًا يصرخُ به..

– محدّش يرفض صداقه الأمير.. محدّش يقول للأمير لأ.!

سقط حاتم على الأرض فَزِعًا مما حدث له، وظَلّ حسام يصرُخُ في خوف، وهو ينادي على أمه التي ذهبت إليه مُسرعةً، فوجدت الغرف مظلمة.

– إيه في إيه؟ إيه الصريخ ده؟

عندما فتحت باب الغرفة تسلّل نور غرفة المعيشة إلى داخل غرفة حاتم، فرأت حاتم مُرتاعًا إلى الأرض، وبجواره مجلاته ممزقة، وألعابه، وهدايا مُبعثرة، وحسام الصغير يبكي وهرول إليها عندما رآها..

أتت أُختاه أميرة، وحنان على أثر الصوت الصاخب، ودخلتا إلى الغرفة مستفسرتين عمَّا يحدث.. احتضن حسام أمه، وهو يبكي، فنظرت إليه فوجدت جبهته جريحة بفعل تحطُّم زجاج مصباح الغرفة، فنظرت إلى حاتم غاضبة تلومه لجرح أخيه ظنًّا منه أنه فعل ذلك، وظلت تصرخ به:

– لماذا فعل ذلك؟ ولماذا حطَّم المصباح وبعْثَر محتويات غرفته وجرحَ أخاه؟..

وحاتم ينظر إليها مصدومًا مِمَّا حدث، ولم يستطع فتح فمه بحرفٍ واحد ليشرح لها ما حدث..

تركته أمُّه، وهي تصرخ به بأن ينظف غُرفتَه، وأخذتِ أخاه حسام إلى غرفتها، وتركوه وحيدًا في غرفته التي فَزِعَ منها فجأةً، خَرَجَ منها، وظَلَّ جالسًا في غرفةِ المعيشة يفكر فيما حدث.. علم الآن أنه حان الوقت ليسدّد لصديقه المجهول ثمن هداياه وخدماته، وأن هذه الأشياء لم تكن مجانية مثلما كان يعتقد.. ظَلَّ يفكر كثيرًا:

مَنْ هو ذلك الأمير الذي يريد صداقته؟ ولَم هو بالذات؟، وهل هو الصديق الذي أخبره به صابر في القرية من قبل؟..

حاول كثيرًا أن يُفكِّر كيف يستطيع التخلُّص من هذه الورطة التي تورَّط بها، فلم يَهدِه تفكيرُه إلا أن يُصارِح أمَّه بحقيقة ما حدث، وأن يطلب إليها مساعدتها ليتخلص من تلك الصداقة المزعجة، ظَلَّ

مُستيقظًا حتى الصباح، واستيقظت أمه فرأته مستيقظًا، وطلبت إليه أن يتجهز ليذهب إلى مدرسته.. أراد أن يحدثها بشأن ما حدث البارحة، فطلبت إليه التوقُّف الآن، وأن يتحدثا بعد أن يعود من المدرسة.. رضخ لها في النهاية ودخل إلى غرفته المبعثرة سريعًا، والتقط ملابسه وحقيبته، وهبَّ طائرا خارجها، وذهب إلى مدرسته لا يفكر بشيءٍ إلا ما حدث له..

وبالطبع حدث تفتيش مفاجيء على واجبات أمس، وفتح حاتم كراساته ليجدها فارغةً من واجبات أمس؛ ليأخذ نصيبَه من عِقابه اليوم عددًا من العِصي، لسببٍ ما جميع المدرسين اليوم لم يضربونه على يديه، بل انتقلت العصى إلى مؤخرته، وحدث ذلك في جميع حصص ذلك اليوم، ولسببٍ مجهول أيضًا شارَكه جميع المتنمرين بالمدرسة اليوم أيضًا خبراتهم في فنون (الشلاليت) السحرية، وفنون ضرب القفا السِّرية؛ليمر على حاتم أسوأ يومٍ على الإطلاق في حياته المدرسية..

عاد إلى المنزل يشعر بالضيق والحزن ليتفاجأ بمفاجأة عظيمة جهَّزتها والدته في انتظاره.. فوجد والدته منتظرةً إياه مبتسمةً، وفي يديها قطعة لا تتعدّى المتر من خرطوم المياه النقي الأصلي القديم الذي لا يوجد مثله الآن، وعزفت سيمفونية رائعة تُضاهي سميفونية بتهوفن التاسعة، ولكن ليس على بيانو ونوتة موسيقية مثل بيتهوفن، ولكن بخرطوم مصري أصيل، وعلى جسد حاتم، وأخذت تعزف وتعزف على

جسده، وحاتم يُترجِمُ هذا العَزْفَ إلى ألحان شجية غنية بالمشاعر الفياضة التي أضحكت أخته الكبيرة أميرة كثيرًا، وهي تنظر إليه متشفية ومستمتعة بغنائه وآهاته، وأخافت أخويه الصغيرين حنان، وحسام.. انتهت الأم من الغزف، وطلبت إليه أن يعتذر عمَّا حدث منه أمس، فرضخ وهو يبكي ممَّا حدث له من مصائب في ذلك اليوم.

جلس في غرفته مُتألمًا يلعن الحياة، ويتمنى أن يتخلص منها.. عدة لحظات، ودخلت أمه تنظر إليه، وتعالج جراحه وهي تصرخ به بألَّا يتحرك، وهي تضع الضمادة الطِّبية على جراحه، وجسده المتورم..

شعر حاتم بتناقض بداخله:

أتحبُّه أمه أم تكرهُهُ؟ كيف لها أن تضربه بكل هذه القوة وتأتي بعد ذلك لتضمِّدَه؟ ولكنه لم يجد إجابةً لما بداخله، فقرَّر أن يبوح لها بما في داخلِه، وليكن ما يكون.. فنظر إليها مُستعطِفًا ..

– والله يا ماما ما ضربت حسام إمبارح.

فصرخت به بضيق:

– إنت لسه هتكدب عليَّ ؟! ده أنا أمك اللي حفظاك..

– والله مانا.. مش أنا اللي عملت كده.. أنا هاقولِك كل حاجة.

وبدأ حاتم يشرح لها ما حدث له أمس، ويربط ما بين حديثه مع صابر، وعثوره على حسام أخيه، وما بين الصديق الذي كان يساعده في واجباته، ويقدّم له هدايا.

شعرت هناء بالضيق، والغضب الشديد من كلام حاتم حيث إنه قد دمَّرَ النظرية التي وضعتها في مخيلتها عن رجوع والده إليهم، وأنه هو من كان يبعث له بالهدايا..

- يعني أبوك مش هو اللي كان بيجيبلك الحاجات دي؟

شعر حاتم بالاندهاش ..

- أبويا؟! لأ مش أبويا.. أنا أبويا بقالي سنتين مشوفتوش.

شعرت هناء بالغضب من نفسها لأنها ما زالت تفكر في زوجها، وكانت تعتقد أنه سوف يعود إليها..فنفثت غضبها على حاتم ..

- طالما مش أبوك.. مين اللي جبلك الحاجات دي؟وجبهالك ليه؟

بخوف:

- والله ما اعرف يا ماما.. أنا قولتلك كل حاجة أعرفها إن حد أمير عايز يبقى صاحبي.

- إنت هتستهبل.. أمير مين اللي عايز يصاحبك يا فاشل؟.. ده إنت مش فالح في حاجة خالص ولا دراسة، ولا غيره.. ما هو انا مش هسيبك النهارده إلا لما تقولي مين اللي جابلك الحاجات دي؟

– والله يا ماما ما اعرف كل اللي اعرفه قولتهولك.

هبَّت غاضبةً، وهي تنظر إليه:

– يبقى إنت عايز تاخد علقة تاني تخليك تقول الحقيقة.

وخرجت مسرعةً إلى خارج الغرفة.. فارتعب حاتم أن تضربه مرة أخرى، ونَدِمَ بشدة أنه أخبرها.

عادت إليه مسرعةً، وهي تحمل خرطوم المياه بيدها.

– انطق بدل ماقطّعوا عليك.

قرَّر حاتم أن يكذب عليها ليُخلِّصَ جسدَه المُثخن بالآلام التي تعرض إليها اليوم من سيمفونية الألم جديدة.

– خلاص يا ماما.. خلاص.. بابا هو اللي جاهملي، وقالّي مقولّكيش..

وقفت هناء تنظر إليه قليلًا، ثم جلست بجواره على السرير.

– أمال لما قولتلك إنه أبوك كدبت ليه؟ خبّيت عليًّا ليه؟ بتحب أبوك أكتر مني؟ نسيت اللي عمله فيكم، وإنه طلّقني، وساب البيت مفهوش مليم؟!

ظلّت قرابة خمس عشرة دقيقة تذمُّ في أبيه، وفيما فَعَلَ بها، وبهم، وأنها على حقٍّ فيما فعلت عندما تركته، وطلبت إليه أن يُطلّقها..

إلخ.. إلخ.. ثم جلست تستقصي منه..أين رآه؟ ومتى آخر مرة قابله؟، وحاتم يرد عليها بكل حرفية.. لم يكن يعلم أن لديه هذه القُدرة الكبيرة على اختلاق الكذب أو أن أمه التي هي من لديها القدرة الكبيرة على تصديق هذا الهراء بخصوص والده..

ظَلَّ الاستجواب طويلًا ومن ثم اقتنعت والدته بكلامِه، فطلبت إليه أن يجمع هذه الهدايا التي أرسلها له والده، شعر بالحيرة من كلامها، ولكنه رضخ لها، وجَمَعَ الهدايا والمجلات، وتقدَّمت أمامه، وذهبت إلى المطبخ، وطلبت إليه أن يضع هذه الأشياء في حوض المطبخ، فنفَّذ ما تقولُ مُتحيِّرًا.. أمسكت أمه ببعض الكيروسين، ووضعته على الهدايا ثم أشعلت بها النيران.. نظر إليها حاتم غاضبًا ومُستنكرًا، ولكنه لم يتحدث خوفًا منها.. نظرت إلى النيران، وهي تُحدِّثُه بحدة..

– متاخدش حاجة من أبوك تاني، ولو عرفت في يوم من الأيام إنك قابلته من ورايا هقطّعك.

هزَّ رأسه في رضوخ.. فاستكملت مُحذّرةً..

– وأخوك حسام.. لو مدّيت إيدك عليه تاني هقطعالهاك.. فاهم؟

هَزَّ رأسه مرة أخرى برضوخ.. فتركته والدته، وانصرفت وهو ظل ينظر إلى مجلات ميكي، وهي تحترق وهو يشعر بالاضطراب داخله، ويتقلب شعوره مثل الإعصار ما بين الخوف والحيرة والغضب

والأسى.. انصرف إلى غرفته التي وجد والدته استبدلت المصباح بداخلها، وأغلق على نفسه الباب، وبسط جسده على السرير لحظاتٍ، وسمع أمه تبكي بحرقة خارج الغرفة، وأخته أميرة وحنان ملتفتان حولها تحاولان تهدئتها.. شعر بالضيق مما يسمعه، ومن الآلام التي بجسده.. فسحب الوسادة التي أسفل منه، ووضعها فوق رأسه لكي لا يسمعها، وانهمرت الدموع من عينه بصمتٍ.. لحظات وغطَّ في النوم ..

***

الأمير

استيقظ حاتم فجأةً ليجد نفسه على الأرض نائمًا أسفل شجرةٍ خضراء لها رائحة كريهة، فهبَّ واقفًا، ونظرَ حوله، فوجد نفسه بمنطقةٍ فارغةٍ من أي شيءٍ بخلافه هو والشجرة وجميع ما حوله أسود مظلم، ولكنه يرى كل شيءٍ بوضوحٍ .. اندهش بشدة ..

– إيه ده؟ أنا فين؟

نظر حوله فلم يجد أحدًا.. ركض سريعًا مُخترقًا الظلام فترةً طويلة، ولكنه لم يجد شيئًا.. ظل يركض وهو خائف ومرتعب يبحث عن أمه وإخوته، ويصرخ عليهم، ولكن دون مُجيبٍ.. لَمَحَ شيئًا أخضر بعيدًا أمامه، فتوجَّه إليه مُسرعًا، فوجد نفسه يقفُ أمام الشجرة ذات الرائحة الكريهة مرةً أخرى.. شعر بالخوف الشديد،

وظل يصرخ، ويصرخ دون مُجيب.. فجأةً وَجَدَ رجلًا يقفُ بعيدًا في الظلام،ويرتدي جلبابًا ويرتدي غطاء الرأس الرِّيفي التقليدي.. صرخ عليه وتوجَّه إليه مُسرعًا ..

- يا عم.. يا عم.

كلما اقترب منه حاتم لا يجد وجهه، فيذهب إلى اليمين أو اليسار يجد الرجل يُعطي له ظهره.. فصرخ به بيأسٍ:

- يا عم.. أنا فين.. مبتردش عليَّا ليه؟ متبصلي هنا.

جذبه حاتم من يده، فنظر إلى وجهه أخيرًا ليجده صابر الذي قابله بالقرية..فشعر بالفرح، وأخذ يُحدِّثُه مُبتسمًا ..

- عم صابر.. عم صابر أنا فين ؟

لم يجاوبه صابر، واكتفى بالنظر له.. فعاود حاتم سؤاله..

- مبتردّش عليَّا ليه.. عم صابر.. أنا فين ..؟

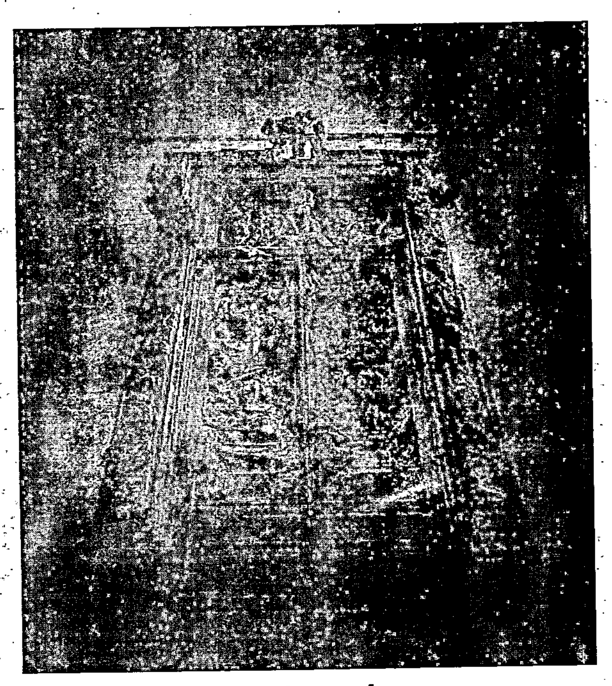
نظر إليه، واقترب منه وهمسَ له..

- عندهم .!

نظر حاتم حوله بفضولٍ ولم يرَ أحدًا غيرهما ..

- عند مين؟.. عند مين؟.. طيب أخرج من هنا إزاي؟

نظر له صابر قليلًا ثم أشار بسبابته خلفه.. فنظر حاتم إلى الجهة التي أشار إليها صابر، فوجد بابًا كبيرًا عليه نقوش ورسوم غريبة للغاية كان غير موجود مسبقًا.. شعر بالاندهاش، ونظر أمامه ليحدّث صابر، ولكنه اختفى من أمامه فجأة.. ظل حاتم يبحث عنه باستماتة، فلم يجد أي شيءٍ غيره هو، والشجرة، والباب الكبير المفتوح الذي بدأ يُغلق أيضًا.. ارتاع حاتم عندما رآه يُغلق، ورَكَض مُسرعًا إلى الباب، ودخل من خلاله والذي أُغلق فورًا بعد دخوله.. نظر حاتم إلى ما يوجد خلف الباب، فوجد عالمًا غريبًا لم يَرَهُ أو يسمع عنه في حياته من قبل.



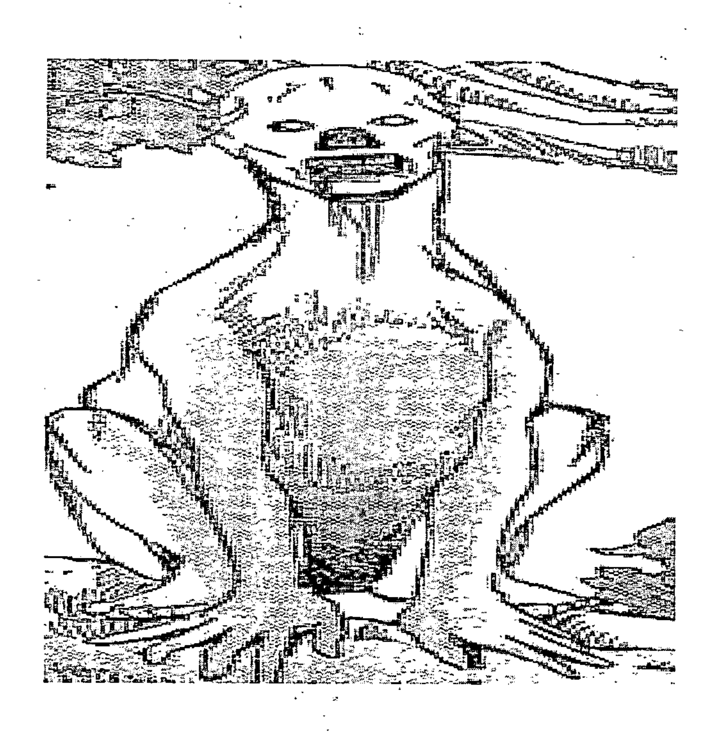
أول ما شَدَّ انتباهه هو لون السماء، والإضاءة لونها أحمر يميلُ إلى البرتقالي كلون الشَّفَقِ الأحمر بالمساء، وبيوت من طابق واحد مبنية وسط شيءٍ يُشبه المقابر أمامه، والشمس في كبد السماء، ولكن لونها أحمر وأكبر من الشمس التي عادةً ما كان يراها.. عندما تحرَّك خطوةً واحدةً إلى الأمام شعر بالجفاف الشديد، وحلقه أصبح جافًّا للغاية، فأمسك حلقه، وقام ببلع ريقه بصعوبة شديدة، وتقدَّم عدة خُطوات إلى الأمام بسرعة ليشعُرَ فجأةً بالجوع الشديد.. جوع لم يشعر به من قبل، كاد أن يمزق معدته من شدته حتى أنه انساه شُعورَه بالعطش.. فنظر حوله بسرعة يبحث عن أي شيءٍ يسُدُّ به رَمَقَه سريعًا.. فوجد عدة أشجار لها لون رمادي، وألوان أوراقها برتقالية، فذَهب جهتها سريعًا، ونظر إلى الأوراق، فوجدها كبيرة للغاية بالنسبة إلى الأوراق التي يراها عادةً.. سحب أكثر من ورقة بسرعة من الشجرة ووضعها في فمه سريعًا وأخذ يأكلها بسرعة لعل شعوره بالجوع الشديد يتوقف، أغمض عينيه وجلس على ركبتيه وهو يُتابِعُ حركة أوراق الشجر وهي تنـــزل ببطءٍ من بلعومه إلى معدته.. لحظات قليلة وبدأ شعور الجوع يخفُّ تدريجيًّا حتى اختفى تمامًا.. شعر بالارتياح، ونظرَ أمامه مُضطربًا وهو يسأل نفسه: أين أنا.. هل ما أراه حقيقي أم خيال؟.. تقدَّم خائفًا مُتوجسًا ومَرَّ بجوار أحد البيوت بالمقابر، ثم تقدَّم جهة المنزل الذي كان مُكوَّنًا من طابقٍ واحدٍ وشكله غريب للغاية، حيث إنه بيضوي تقريبًا وبدون أبواب، ولكن له نوافذ صغيرة على

جانبيه، طَرَقَ حاتم على المترل، فوجد مَلمسه خشبيًّا، وعندما طرق على جدار المترل تغيَّر لونه إلى الأبيض .. فتعجَّب للغاية، ثم طَرَقَه مرةً أخرى فتغيَّر إلى عدة ألوانٍ سريعًا، وظلَّ حاتم يطرق جدار المترل، ويتغير لونُه حتى أصبح لونُه أحمر، ثم انهارَ فجأةً أمام حاتم دون أن يُصْدِرَ صوتًا، ففَزِعَ حاتم وابتعد سريعًا عن المترل، فارتطم بمقبرةٍ خلفه، فسقط بسرعةٍ على الأرض، فوجد الأرض قد اهتزت قليلًا ثم ظهر شيءٌ يُشبه الفم بالقرب منه، فتعجَّب ممَّا رآه، ووقف سريعًا وتقدَّم جهة الفم البارز من الأرض، فوجدَه قد فُتِحَ فجأةً وصَدَرَ صوتٌ خفيفٌ للغاية منه، فشعر بالاندهاش مما يراه، ثم فجأةً خرج صوتُ صراخٍ قويٌّ جدًّا من الأرض .. جعل حاتم يركض وهو خائفٌ مبتعدًا عنه، ويُغطي أذنيه اللتين تكادان تنفجران من هذا الصوت ..

صوت الصراخ يشتدُّ أكثر فأكثر .. فبدأ حاتم يصرخ في خوف، وهو يهرب بعيدًا عنه، ويتمنَّى أن يتخلَّص ممَّا هو به .. فجأةً لمح أمامه شيئًا غريبًا، فبجوار أحد القبور وجد شيئًا يُشبهُ الكلب يقف على أربعٍ، ولكنه بيدين وقدمين بشريتين وله وجهٌ مُفْزِعٌ، ليس ببشريٍّ، ولكن أقرب إلى البشر، ولكن دون أنفٍ بارزٍ، ولكنه مُجوَّف للداخل، وعينان سوداوان كبيرتان، وجسده ليس عليه شعر أو فرو..

فجأةً توقَّف صراخ الأرض عندما نَظَرَ هذا الكائن إلى حاتم الذي بدأ يتراجع في خوفه، لكنه وَجَدَ من الجهة الأخرى كائنًا آخر شبيهًا يقفُ خلفه، ثم كائنًا عن يمينه ويساره، ثم فجأةً أصبح مُحاطًا بالكثير

من تلك الكائنات .. شعر بالخوف الشديد، وكاد قلبه المراهق أن يصاب بأزمة شديدة، وظل يصرخ مِمَّا يُشاهِدُه، اقتربت منه الكائنات وهي تركض جهته، وتحاول أن تفتك به .. واستسلم حاتم إلى مصيره بخوفٍ وهو يَصرخُ ..





فجأةً ظهر أربعة أشخاص .. سقطوا من أعلى ويحيطون به مدافعين عنه ضد هذه الكائنات ..يرتدون عباءات سوداء بها غطاء رأس أسود يُغطي وجوهم فلا تستطيع رؤيتها ..

عندما شاهدتهم هذه الكائنات هربت مفزوعة.. الأشخاص الأربعة أعطوا حاتم ظهورهم، وبدؤوا يتحدثون بكلامٍ غريبٍ وهذا



الكلام تحول إلى رسومات ونقوش غريبة على الأرض، عدة لحظات، وأحاطت هذه الرسوم بحاتم والرجال الأربعة، من ثم سقطوا فجأة بداخل الأرض .. صرخ حاتم بشدة ممَّا يحدث له، ووجد نفسه يسقط بداخل حفرةٍ عميقة سوداء فترة قليلة، ثم وَجَدَ نفسه على الأرض في مكانٍ واسعٍ ومُزخرف ومُضاء ومُزين، وبه عددٌ كبيرٌ من الأشخاص يرتدون مثل الرجال الأربعة المحيطين بحاتم .. نظر الرجال الأربعة إلى حاتم وحدثوه بلغة غريبة.. فلم يفهمها، فأشاروا إليه أن يقف.. فوقف حاتم سريعًا مُنفِّذًا أمرهم وهو ينظر حوله بارتيابٍ.. فجأةً انحنى الرجال الأربعة إليه ثم أشاروا إله أن يتقدَّم أمامهم .. فتقدَّمهم حاتم وهم يتبعونه .. فوجد أنه يمشي على بساطٍ مُزخرفٍ مُرصَّعٍ بالذهب والجواهر الثمينة، ووجد رجالًا وسيدات يبتسمون إليه وينحنون له وهو يتقدَّم.. شعر حاتم بالارتياح قليلًا وهو ينظر إليهم وهم يرحبون به ويبتسمون في وجهه، وبدأ قلبه يستردُّ عافيته وأمنه.. في نهاية البساط وجد حاتم نفسه يقف أمام بعض الشيوخ الكِبار يحملون صولجنات ذهبية في أيديهم، ويقفون بتبجيلٍ أمام أحد الأشخاص الذي يقف أمام كرسي عرش كبير ومزخرف ومرصع بالجواهر الثمينة، ولكنه على أشكال مرعبة .. توقف الرجال الأربعة المُحيطين بحاتم، وتحدثوا إلى شيخ كبير يبدو عليه أنه كبير هؤلاء الشيوخ .. فنظر إلى حاتم، ثم قال له بصوتٍ رخيمٍ ..

- الأمير.

ثم أشار إلى الرجل الواقف أمام كرسي العرش، ويُعطي الجميع ظهره.. نظر حاتم بتبجيل إلى الرجل الذي يُعطيه ظهره أمام العرش وابتسم ..

- إنت الأمير.. اللي قالي عليه صابر؟..

نظر الجميع إلى الأمير الذي لم يتحرك من مكانه، ولم ينظر إلى حاتم .. ونَطَقَ بعدة كلمات لهم ..

- تو.. بيباتورن.

فنظر الشيخ إلى حاتم غاضبًا .. وصرخ فيه ..

- رفضت صداقة الأمير؟!

فصرخ في الجميع بقوة ..

- بيوكان ناراكا ..

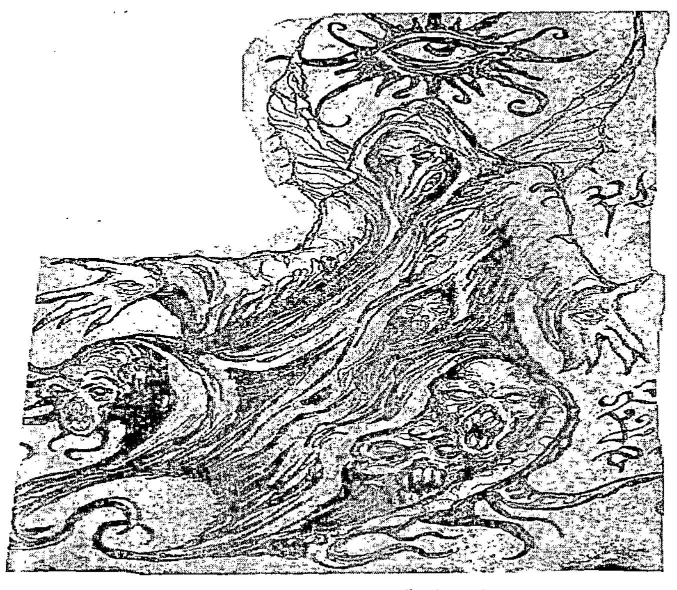
فنظر الجميع بغضبٍ وصرخوا في حاتم ..

- بيوكان ناراكا ..

وفجأةً ملأ الظلام المكان والجميع تحوَّل إلى أشكال مفزعة ومخيفة وعيونهم تضيء بلونٍ أحمر مُخيف وهم يصرخون غاضبين ..

- بيوكان ناراكا.

قفز قلب حاتم من مكانه عندما رأى الرجال الأربعة المحيطين به يلتفون حوله بغضبٍ وقد ظهرت وجوهم من داخل عباءاهم، والتي كان ملامحهم قد دمَّرت ما تبقى من أعصاب حاتم في تلك اللحظة فسقط على الأرض، وغاب عن الوعي، وآخر ما رأته عيناه في حينها هو ظهر الأمير الذي كان يقف في مكانه ولا يُعير أيَّ اهتمام لما يحدث لحاتم خلفه ..



(الرجال تحت العباءة بعد تحولهم)

***

طرقت حنان الباب ثم دخلت سريعًا ..

- حاتم .. ماما بيتقولك تعالى اتعشى .

استيقظ حاتم وهو ينظر إليها بعينين نصف مغلقتين ..

- طيب .. طيب .. ماشي.

انصرفت حنان مسرعة واستيقظ حاتم وهو يتثاءب.. ثم نظر حوله فجأةً مُتعجبًا وتذكّر ما حدث.. ثم أمسك صدره بارتياح، وأخذ نفسًا عميقًا ..

- كان كابوس الحمد لله.

قام من سريره وهو يشعر بالنشاط فجأةً.. حكّ رأسه قليلًا، ثم لفت انتباهه شيءٌ على معصمه، فنظر سريعًا إلى معصمه، فوجد أثر عضةٍ أسفل معصمه الأيمن، ثم نظر إلى يده اليسرى ليجد آثار عضةٍ أعلى معصمه، شعر بالاضطراب، فسحب ملابسه عن معصمه، فوجد هناك آثار عضةٍ أخرى بالأعلى، فخلع ملابسه العلوية، ونظر إلى جسده، فوجد آثار عضات كثيرةٍ في أنحاءِ جسده، ثم شمّر بنطاله، فوجد نفس الحال في قدمه.. شعر بالخوف الشديد.. لحظات ثم سمع صوت أمه تنادي عليه ليتناول العشاء، فأجابها وارتدى ملابسه بسرعة، وتوجّه إلى مائدة السُّفرة، وهمَّ بتناول الطعام مع أمه وإخوته، وهو يحاول جاهدًا ألا يكشف معصمه وهو يأكل حتى لا تراه أمه ..

التي لاحظت ما يحاول أن يخفيه بعيني الأم الثاقبتين، ولكنها لم تحدّثه أثناء الطعام.. بعد أن انتهى من عشائه ذهب مسرعًا إلى داخل غُرفته فتبعتُه هناء وحدَّثته ..

– مالك يا حاتم .. في إيه ؟ .. عملت حاجة ومخبي .. ؟

شعر بالاضطراب وهو يحاول أن يخفي يديه بملابسه ..

– لأ يا ماما معملتش حاجه .. معملتش حاجه والله.

لاحظت أنه يحاول إخفاء يديه عنها.. فجذبت ملابسه بسرعة عن يديه، لترى آثار العَضِّ على يديه .. نظرت إليه مُستنكرة .. فشعر حاتم بالخوف ونظر إلى الأرض وتحاشى أن ينظر إليها لأنه لا يعلم ما سيبرِّرُ به حدوث هذا في يده .. ولن تصدقه إذا ما حكى لها ما حدث له .. اقتربت هناء منه قليلًا .. ثم ضمَّته إليها ..

– متزعلش يا حبيبي .. أنا هاجبلك كل اللي إنت عايزه .. اللي إنت نفسك فيه تقولي عليه هاجبهولك على طوول بشرط إنك تذاكر وتنجح وتبقى شاطر في دراستك.. وإوعى تشيل في نفسك وتعمل في نفسك كده تاني .. ماشي ؟

– حاضر يا ماما.

– يلاّ بقى ذاكر ..

نظرت إليه أمُّه بأسًى وهي تلوم نفسها أنه قد عَضَّ نفسَه بسبب تخلُّصِها من مجلاته وهداياه التي أرسلها إليه أبوه .. أغلقت عليه غرفته

وانصرفت.. فهبَّ واقفًا وركضً يفتح الباب، وأضاء أنوار الغرفة كاملةً، وجلس على سريره مُترقِّبًا.. جلس على وضعه ذلك كثيرًا، فلم يحدث شيءٌ، بدأ يسترخي على سريره أكثر فأكثر .. ولكن كان خائفًا أن ينام ويحدث له مثل أمس، ظَلَّ يفكر في أشياء تشغل تفكيره عمَّا حدث أمس، ولكن لم تُجدِ نَفْعًا .. ثم تذكَّر شياء فجأةً، فوضع يده أسفل سريره بسرعةٍ وأخرجَ صورته التي اُلتقطت له وهو في سن 4 سنوات، وهو يرسم الشمس وقوس قُزح، فنظر إليها طويلًا يتأمَّلُها ويتذكر معها ذِكريات طفولتِه السعيدة، ووجود والده وأمه في حياته.. هذه الصورة هي الوحيدة التي كانت تستطيع أن تُخرِجَه من أي شيءٍ يُحزنه، ويصبح بعدها سعيدًا.. ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهه برؤيته لتلك الصورة، ثم وضعها مكانها مرة أخرى.. وأغلَق عينيه يتأمَّل تلك اللحظة بتفاصيلِها.. ثم أخذ نفسًا عميقًا وأخرجه ببطءٍ فشعر بارتياحٍ شديد تقلب على جانبه الأيمن واستعدَّ للنوم .. فوجد إضاءة شديدة تضرب في عينيه بقوةٍ فوضع يده أمام عينيه يحجب عنهما الضوء، وجلس على سريره ونظر حوله مندهشًا .. لحظات وارتاع رُعبًا عندما أدرك ما حدث .. إنه يجلس بسريره بجوار مصباح الغرفة.. ولا .. لم يسقط المصباح أرضًا.. بل سرير حاتم هو الذي أصبح بالسقف.. اجتاح الخوف الشديد قلب حاتم وهو يرى نفسه جالسًا على سريره الموضوع أعلى سقف الغرفة، ويرى أسفل منه سرير أخيه حسام وخزانة ملابسه ومكتبه الذي يدرس عليه، كل

شيء في غرفته في مكانه بالأسفل ما عداه وسريره بالأعلى، حاول أن يتشبث بالسرير لكيلا يسقط منه على الأرض.. صرخ على أمه لكي تأتي وتُنقذه من هذا الموقف المستحيل.. وظل يصرخ ويصرخ ولكن لم يجاوبه أحدٌ، نادى على إخوته جميعًا، ولكن لم يأتِ أحد لنجْدَته.. نظر حوله مُتعجبًا: كيف حدث ذلك؟ ومتى؟ فإنه لم يغفل لحظة واحدة، فكيف أصبح في ذلك الوضع؟..نظر إلى الأرض التي أصبح أسفل منها، أو بمعنى أدق فوقه، فوجد آثار السرير باقية على سجاد الغرفة، أي إنه ارتفع بسريره فعلًا.. فكّر سريعًا وهو خائف: كيف له أن يتحاشى السقوط والخوف الأكبر أن يتحاشى سقوط هذا السرير فوقه؟ فهذا سوف يكون مؤلمًا أكثر من عملية السقوط نفسها.. فهداه تفكيره أن يختبيء أسفل سريره، ولو سقط في حينها سوف يسقط هو على السرير وذلك سيكون أقل إيلامًا من أن يسقط السرير فوقه هو، وبالفعل بدأ يضع يده إلى جانب السرير، ونَظَرَ أسفل منه ليجد نفسه بالحال ثقيلًا للغاية، وسوف يسقط بفعل الجاذبية التي كانت غير موجودة منذ لحظات..فتعلّق بجانب السرير، هو يصرخ خوفًا، وينادي على أمه وإخوته.. تعلّق بقوةٍ بجانب السرير الذي بدأ يشعر بأنه يميل به.. لقد بدأت أقدام السرير تنزع من على الحائط ليسقط أرضًا وينخلع قلب حاتم كلما انخلعت قدم من السرير.. وفجأةً وجد نفسه يسقط أرضًا والسرير يسقط بسرعةٍ فوقه، فأغلق عينيه خوفًا وهو

يصرخ بأعلى صوته وهو يتوقع الألم الذي سوف يحدث له الآن.. ظل يصرخ بقوة، وشعر بيد تهز كتفه بقوة، وصوت أمه يحدّثه:

– حاتم .. مالك في إيه؟

فتح عينيه سريعًا ليجد أمه جالسةً بجواره على سريره الذي عاد إلى طبيعته وهو ينام فوقه بصورة عادية، وإخوته يقفون عند الباب ينظرون إليه بخوف.. فصرخ مرتاعًا..

– السرير اتعلّق في السقف.. أنا مش عايز أنام هنا.. مش عايز أنام هنا.

نظرت هناء إليه مندهشة، ونظرت إلى سريره فوجدته طبيعيًّا.. ونظرت إلى حاتم فوجدته مُرتاعًا.. فطمأنته ..

– خلاص..خلاص.. نام في أوضة اخواتك البنات.

فاعترضت أميرة ..

– لا يا ماما.. محدّش ينام في أوضتي.

فنهرتها غاضبة ..

– حاتم هينام في أوضتكم وانتم نامو في أوضته النهارده وحسام هينام معايا .. يلاّ .

ترجّاها حاتم..

– لأ يا ماما أنا مش عايز أنام لوحدي.. خلّي حسام ينام معايا.

فصرخ حسام غاضبًا وتمسَّك بأمه..

– لا .. يا ماما .. أنا هانام معاكي.

فحدثت حاتم برفق..

– إيه يا حاتم..إنت راجل دلوقتي..في راجل بيخاف ينام لوحده.. يلاّ خش الأوضة بتاعت إخواتك نام هناك، وانتم يا بنات يلاّ ناموا هنا .. يلا علشان متتأخّروش على المدرسة الصبح.

دخلتا أميرة وحنان الغرفة على مَضضٍ وقالت أميرة لحاتم:

– إوعى تلعب في حاجتي إنت فاهم.

خرج حاتم مع أمه وحسام فأدخلته غرفة أميرة وأخذت حسام بيدها ..

– يلاّ يا حاتم.. تصبح على خير، وأنا جنبك لو عايز حاجة ناديلي ..

صرخ حاتم:

– سيبي الباب والنور متقفلهوش ..

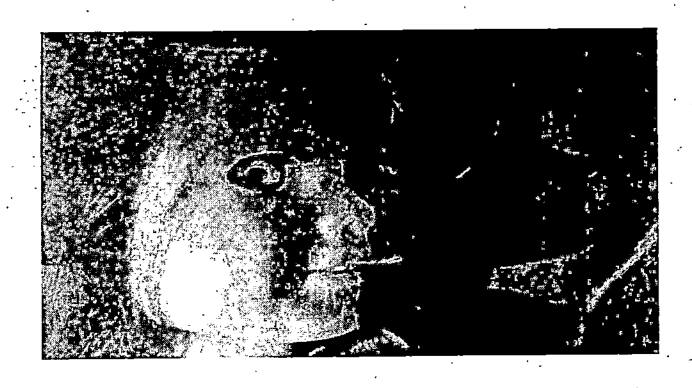
– حاضر .. أهم سيباهم أهم.

نظرت إليه بقلق شديد وهي تغادر الغرفة ..

جلس حاتم على السرير، وأخذ ينظر في محتويات الغرفة، فوجد على الحائط صورًا كثيرة لمغنين وممثلين، ولفت انتباهه صورة كبيرة لمطرب وسيم يرتدي (تي شيرت) أسود ومخططًا بخطوط زرقاء وحمراء، ومكتوب أسفل الصورة عمرو دياب .. هلا .. هلا صوت الدلتا .. وصورة أخرى لمطرب شاب يرتدي قميصًا أسود بخطوط بنفسجية وهو يبتسم، ومكتوب أعلى صورته محمد فؤاد .. خفة دم .. صوت الحب.. وصورة كبيرة لمطرب أجنبي أسمر يتكيء على جانبه ويرتدي بذلة بيضاء، ومكتوب بجواره بالإنجليزية مايكل جاكسون .. ثريللر، والكثير من شرائط الكاسيت موضوعة بجوار مسجل كبير على مكتب دراسة أميرة وبالجهة الأخرى سرير حنان الصغيرة وعليه الكثير من الألعاب والدُّمى مختلفة الأحجام.. جلس على السرير يقاوم النوم ويحاول أن يطرد مخاوفه، ولكن النوم سلطان سيفه على رقاب الجميع .. فأخذ يتساقط في غفواته سريعًا، ثم يستيقظ مرة أخرى خائفًا ويحاول أن يُغيِّر من جلسته حتى لا ينام .. تنقّلت إلى أنفه رائحة زكية للغاية لا يدري من أين أتت؟ ولكنه كان يشعر بالاسترخاء كلما تنشقها أكثر.. فأخذ يرتشف منها أكثر فأكثر، وأصبح جسده مسترخيًا أكثر فأكثر، فذهب برأسه إلى عالم الأحلام..

***

سمع صوتًا يُناديه .."حاااااتم .. حاااااتم .." فتح عينيه ببطء ليرى مصباحَ الغُرفة يُضيءُ بإضاءة خفيفة للغاية، ويلف حول محوره بسرعة بطيئة.. حاول أن ينهض من سريره فلم يستطع.. حاولَ أن ينادي على أمه فلم يخرج صوته، فقط عيناه هُما اللتان يستطيع أن يحركهما بحرية .. ما زال يسمع صوتًا يُناديه باسمه بطريقه غنائية كشخص يقوم بتلحينه .."حاااااتم ... حاااتم .." شعر بالخوف وهو لا يستطيع الحركة.. نظر بطرف عينيه جهة مصدر الصوت وصدم بشدة مما رآه.. فكانت صور المغنين هي من تصدر هذه الأصوات نعم الأشخاص بتلك الصور تحرك شفاهها وتغني باسمه.."حاااااتم... حاااااتم" قفز قلبه من مكانه، وارتفعت حرارة جسده ودبَّ الذُّعر به ووقف شعر رأسه.. حاول أن يتحرك بأي طريقة، أن يصرخ بأي صوت، ولم يستطع أن يحرك ساكنًا.. فجأةً عمل المسجل، وأخرج صوت موسيقى شبيهًا بصوت الموسيقى الجنائزية التي نسمعها في الكنائس، وقد أضافت رعبًا جديدًا على مشهد المصباح الذي يتراقص أعلاه بإضاءة خفيفة تكاد تبصره ما يحدث حوله، وصوت الصور التي تتغنى باسمه.. مال السرير به إلى أعلى قليلًا وهو نائم عليه لا يستطيع الحركة.. فتمكّن من مُشاهدة الغرفة بأكملها دون أن يحتاج أن يتحرك فجأةً تحركت دمية كبيرة من دُمَى أخته حنان على هيئة عروسة اهتزت بشدة أمامه فتضخمت رأسها بحجم ضعف جسدها .. وأخذت تقترب منه ببطء وهي تضحك بشدة .. فأخذ حاتم يصرخ من داخله وهو يراها تتقدم جهته .. ثم اختفت فجأةً ..



توقّف المسجل، وتوقفت الأصوات التي بالصور فجأةً سكون تام نظر حاتم مُترقّبًا بخوف يجوب بعينيه في أنحاء الغرفة وهو يهز جسده بعنف يحاول أن يتحرك من مكانه فجأةً وجد الدُّمية أمام قدمه على السرير، وعاد المسجل بموسيقاه الجنائزية وصوت الأصوات التي تخرج من صور الحائط أصبح أكثر عذوبة ومتناغمًا مع الموسيقى التي يخرجها المذياع، والدُّمية وقفت أمامه برأسها المتضخم عن جسمها، وعلى وجهها البلاستيكي ابتسامة ثابتة شريرة وأخذت تتقدَّم جهته ببطء ورأسها الكبير يتمايل يمينًا تارة ويسارًا تارةً على نغمة الموسيقى الجنائزية .. تقترب منه أكثر فأكثر.. ويجن جنونه أكثر فأكثر يحاول أن يهرب فلا يستطيع.. وقفت الدُّمية أمام وجهه، ونظرت إلى عينيه وهي ما زالت تميل برأسها يمينًا ويسارًا، والابتسامة الكبيرة على وجهها البلاستيكي هي التي أمام عين حاتم وفؤاده..أصبحت الموسيقى أكثر رعبًا وتوقفت الدُّمية عن الحركة، ولكنها اقتربت برأسها من وجه حاتم أكثر وببطء شديد .. شعر حاتم بأن يده اليسرى أصبحت

خفيفة قليلًا.. فحاول أن يحركها بسرعة ويحاول ان يتفلت بكل قوة ، والدُّمية تقترب منه، وصيحات الصور تزداد أكثر فأكثر.. بعد جهد شديد نجح حاتم في أن يترع يده من مكانها وأطبق على الدُّمية بكل قوة بيده اليسرى .. وجذبها بكل قوةٍ بعيدًا عن وجهه .. فجأةً فتحت الدُّمية فمها وقامت بعض حاتم في سبابته بقوة شديدة .. فشعر بعظام أصابعه تتحطم، فصرخ بأقصى ما لديه، وسرعان ما لم يتحمل ذلك الألم فأغميَ عليه في الحال.

استيقظ حاتم فوجد نفسه في مكان واسع وكبير للغاية.. في مكان صخري غريب.. نظر حوله مندهشًا ومُرتابًا أين هو الآن.. فوجد أشخاصًا يجرون بسرعة جهته وهم يصرخون به أن يهرب.. شعر بالاضطراب، ووقف في مكانه لا يدري ماذا يفعل.. فاصطدم به الهاربون، وهم يصرخون، ويركضون بفزع.. حاول أن يقف مسرعًا وقام بالركض بينهم، وهو مذعور لا يدري أين هو؟ ومَنْ هؤلاء؟ ولماذا يركضون هربًا ويهربون ممَّن؟.. نظر خلفه، وهو يركض فوجد شخصين لونهما يميلُ إلى الرماديِّ يحملان سكينين كبيرين كسيفين ويَركُضان وراء هؤلاء الأشخاص، ومَنْ يلحقان به يضربانه ضربةً واحدةً من السكين الضخم، فتارةً تطير رقبة هذا، وآخر يطيح بكتف أحد الهاربين.. وتارةً يطيح بجذع ذلك..

رأى حاتم هذا فصرخ وهو يركض بسرعة شديدة، وأصبح يدفع من يهرب حوله بقوةٍ طلبًا للخلاص، فيسقط إثنان على الأرض فيقتلهما مطارديهما في الحال.. فجأةً ضاق الطريق أكثر.. وتوقّف

الرجلان الرماديان عن مطاردة حاتم، ورفاقه.. توقّف حاتم وأخذ يلتقط بعض أنفاسه مع بعض الناجين المُتبقين، فظهر فجأة أربعة أشخاص يركضون جهتهم والنيران مشتعلة بهم، وهم يصرخون ويطلبون النجدة.. ويتجهون إلى حاتم ورفاقه فيمسكونهم وهم يصرخون.. "إلحقونا..النااااار.."، ويصرخون وهم يمسكون الناجين الذين يشتعلون بدورهم.. رأى حاتم ذلك فأصبح يركض بكل قوة ويركضُ وراءه الناس المشتعلون والذين حين يمسون أيَّ شخصٍ يشتعل هو الآخر، ويصرخ بشدة ويمسك بالذي بجواره وهلمَّ جراً حتى اشتعل معظم الناجين، وظل حاتم ومَنْ تبقّى منهم يهرولون خائفين، وخلفهم يركض ورائهم المشتعلون كجبل من نار يطاردهم، وكلما تقدمو للأمام يضيق الطريق أكثر، وأصبح ممرًّا صغيرًا بين جبلين هو المخرج الوحيد الذي أمامهم وخلفهم الرجال المشتعلون.. فتوجَّه الجميع إلى الممر الجبلي الضيق ليهربوا من مطارديهم.. ليظهر فجأةً شخصان يحملان معولين حادين ويقفان على جانبي الممر، وعندما يقترب أيُّ شخصٍ يضربونه بالمعول فوق رأسه بقوة.. شاهد حاتم ذلك فتوقّف فجأةً عن الركض، فاصطدم به من يهرولون خلفه فسقط على الأرض.. حاول أن يقف بسُرعة.. ولكنة وجَدَ فجأةً أحدَ الرجلين يرفع مِعوله ويضربه به بكل قوةٍ على رأسِه..

صرخ حاتم بكل قوةٍ فَزِعًا.. ونظر أمامه فوجد أنه ما زال بغرفته ينام على سريره، وما زال مصباح الإضاءة يصدر إضاءة خافتةً، ويدور حول نفسه ببطء، ولكنه لم يجد الدُّمية وتوقفت الصور عن الغناء ولكن ما زال المسجل يعمل ويصدر الموسيقى الجنائزية، ولكنه

يستطيع أن يتحرك بسهولة الآن، قفز من السرير بسرعة واتَّجه إلى باب الغرفة، حاول فَتْحَه بقوة فلم يستطع، طَرَقَ عليه كثيرًا فلم يجبه أحد.. ثم فجأة وجد شئ يطرق على الباب بقوه شديده من الجهه الأخري طرقات عنيفة حتى كاد الباب أن يتحطم في أي لحظة منها.. فابتعد حاتم عن الباب في الحال، وأخذ يصرُخُ، ويَصْرخ دون مُجيبٍ..ثم سمع شخصًا يُنادي عليه بصوتٍ أشبه بصوت الأطفال..

– حااااتم..

نظر حوله فلم يجد شيئًا .. سمع صوت المسجل يصدر الموسيقى فذهب مُسرعًا وألقاه على الأرض فتحطَّم وتوقَّف الصوت في الحال.. سمع الصوت يناديه مرةً أخرى من خلفه، وشعر بشيءٍ صغير يجري مُسرعًا .. نظر خلفه فلم يرَ شيئًا .. سمع الصوت مرة أخرى يضحك ويناديه ..

– حاتم أنا هنا.

ذهب يبحث بالغرفة عن مصدر الصوت، ولكن تلك المرة لم يشعر بالخوف، ولكن بالغضب من ذلك الشيء الذي يسخر منه .. لَمَحَ بطرف عينيه شيئًا يختبئ أسفل السرير.. فتوجَّه إليه ببطء وحذرٍ، ونَظَرَ أسفل السرير بنفس الحذر والبُطء فوجد الدمية تنظر له وتضحك بشدة ..

– حاااااااتم..

فصرخ وابتعد مهرولًا، ولكنه فجأةً وجد نفسه يُسحَبُ أسفل السرير ووجد نفسه مُعلقًا أسفل السرير من يديه ومن قدميه مُقيَّدًا بشيءٍ أشبه بالحبال ولا يستطيع الحركة .. فصرخ بأعلى صوته يُنادي على أمه وإخوته .. وركضت الدُّميةُ بعيدًا عنه جهة قدمه، وبدأت بعضِّه بقوةٍ وهو يصرخ من الألم ويهزُّ قدمه بقوةٍ يحاول أن يخلص قدمه .. فركضت الدُّميةُ ووقفت أمام وجهه وهي تبتسم ابتسامتها الصماء ..



وتهزُّ رأسها يمينًا ويسارًا وتقول بصوتٍ طفوليٍّ ..

- حاااتم.. تقدر تقول أنا مين.. لو معرفتش قول عروووستي..

ثم تركته وركضت إلى قدمه الأخرى، وعضَّتْهُ من أصابع قدمه.. فصرخ بقوةٍ وهو ينادي على أمه وإخوته..عادت إليه سريعًا، ووقفت أمام وجهه وهي تتمايل يمينًا ويسارًا وهي تقول له ..

– ها .. عرفت أنا مين .. لو عرفت قول عرووستي ..

لم يفهم حاتم ما تريده منه الدُّمية فصرخ بها ...:

– عروستي .. عروستي.

فذهبت أمامه الدُّمية وابتسمت وهزت رأسها يمينًا ويسارًا..

– هاها... غلط.. أنا مين.. لو معرفتش قول عروستي..

– ثم تركته وركضت عند يده اليمنى، وعضَّتْها بقوة فصرخ حاتم غاضبًا ..

– عايزه مني إيه؟.. مش عارف.. مش عارف.

فاقتربت منه الدُّمية ووقفت أمامه تتمايل .. فانتهز حاتم اقترابها منه، ثم عضَّها بأسنانه وهو مُقيَّد وظَلَّ يُطبِقُ عليها بقوة..فسمع صوت صراخها ممتزجًا بصوتِ ضحكاتها ..ضغط بأسنانه أكثر وأكثر وهو يحدثها بغِلٍّ وهي بين أسنانه ..

– بتوجع .. حسيتي باللي أنا حاسس بيه؟

كان لسانه يتلمس جسد العروس البلاستيكي وهو يضغط عليه بأسنانه، فتذوَّق طعمًا غريبًا بدأ يخترق فمه بقوة..طعمًا نُحاسيًّا غريبًا.. ظَلَّ على ذلك لحظاتٍ، ثم لم يسمع الدُّمية تتحدث ولم يشعر بها تتحرك، فتركها من بين أسنانه، فوجدها وقعت على الأرض هامدة لا تتحركُ، والدماء تُغطي فَمَه وأسنانَه .. فظَلَّ يبصُقُ الدماء من فمه

بضيقٍ، وقرفٍ شديدين..لحظات ووجد الدُّمية تذوب بالأرض وتكوِّنُ مادةً سوداء كبيرة.. صرخ في ضيق ..

– عايزين مني إيه؟ .. عايزين مني إيه؟

تحوَّلت المادة السوداء إلى وجهٍ كريه أمام حاتم الذي ما زال مُقيَّدًا من يديه وقدميه أسفل السرير.. وحدَّق الوجهُ بقوةٍ في وجهِ حاتم الذي صرخ.. عندما هجمَ الوجه الأسود عليه فجأةً بأسفل السرير ..

***

لاح الصباح واستيقظ الجميع .. ذهبت هناء مسرعة إلى غرفة بناها لتوقظ حاتم، فدخلت الغرفة وجدت الدُّمي مُبعثرةً بالغرفة، وصور المطربين ممزقةً والمسجل مُحطمًا.. شعرت بالغضب وهي تتوعد حاتم، إلا أنها صُدمت عندما وقعت عيناها عليه، فلقد وجدته مستيقظًا يجلس على السرير، عيناه حمراوان كالدماء وأسفل عينيه محاطٌ بهالة سوداء كبيرة، ولونه يميل إلى الاصفرار، ويميل برأسه يمينًا ويسارًا .. فحدثته بقلق ..

– ما لك يا حاتم؟.. إيه اللي حصل؟.. وعملت كده في الأوضه ليه ..؟

توقف حاتم عن إمالة رأسه، ونظر إليها ولم ينطق بحرفٍ .. دخلت أميرة الغرفة مسرعةً فهالها ما أصاب غرفتها .. وصرخت في غضبٍ:

– يا نهار إسود.. مين اللي عمل في أوضتي كده.. إنت يا سي زفت .. بهدلت أوضتي ليه ..؟

فجأةً وقف حاتم على سريره وهو ينظر إليها في غضبٍ.. فشعرت هناء وأميرة بالخوف من نظراته، ثم تحرك خارج الغرفة ولم يتحدث إليهما.. تابعته هناء وهو ينصرف بقلق وحيرةٍ .. حين صرخت فيها أميرة ..

– شفتي يا ماما .. ابنك عملي إيه في الأوضه .. علشان تخليه ينام في أوضتي تاني.

نظرت إليها أمها بغضب، وتركتها وغادرت الغرفة.

خرج حاتم من منزله حاملًا حقيبته على ظهره متوجهًا إلى مدرسته دون أن يتحدَّث بكلمةٍ واحدةٍ منذ الصباح .. وهو ذاهب إلى طريق المدرسة رآه فتحي الشاب المتنمر البدين الذي يُخرِجُ كَبْتَه وطاقته في زملائه بالمدرسة.. ذهب مسرعًا جهة حاتم وضربه على رأسه وهو يبتسم :

– رايح فين ياض؟؟

نظر إليه حاتم بغضبٍ شديدٍ.. فوضع فتحي يده على وجه حاتم ثم دَفَعَه بقوةٍ فسقطَ حاتم على الأرض.

– إيه يلا بتبرقلي..فاكرني هخاف منك؟؟

بدأ حاتم يصدر أصواتًا من فمه ويزوم وتحسَّس الأرض بيدِه فوجد حجرًا بالقُرب من يده، فأخذه سريعًا واتَّجه جهة فتحي مُسرعًا الذي

قابَلَ حاتم بدوره بدفعةٍ من يده فأوقعت حاتم أرضًا، ثم جَثَمَ على جسده سريعًا وأمسكه من ملابسه، وبدأ يسبُّه ويلعنه .. فعاجله حاتم بالحجر الذي في يده وضربه بكل قوة في أنفِه وفمِه.. فوقف فتحي متألمًا والدماء تسيل بغزارةٍ من أنفه المُحطَّم، ووضع يده على فمه فسقطت بعض أسنانه في كفه .. رأى ذلك فظَلَّ يصرخ ويبكي .. فوقف حاتم سريعًا وأعطاه ظهرَه وتركه وغادر في طريقه...

أكمل حاتم يومه الدراسي بشكل عادي، وطبيعي، إلى أن جاء وقت حصة الرسم.. فتح الجميع كراساهم أمامهم وكذلك فعل حاتم.. الذي ما إن فتح كراسته حتى شاهد شيئًا عجيبًا .. فلقد وجد فتحي يقف أمامه ويجري مسرعًا إلى مترله، ورأى أخا فتحي الأكبر يحدث فتحي بغضبٍ، وذهب إلى أصدقائه وأخذهم ووقفوا أمام مدرسة حاتم ينتظرونه، وهم يحملون العصي وبعض الزجاجات الفارغة، ويختبئون في أحد الأماكن القريبة من المدرسة.. ورأى أحد زملائه يقف بجوارهم ثم يتركهم ويذهب إلى حاتم يتحدَّث معه ثم يأخذه ويذهبان إلى الجهة المختبئ ها أخو فتحي وأصدقاؤه ويعتدون بالضرب عليه..رأى ذلك جميعًا يحدث أمامه بشكلٍ مُتتابعٍ كأنه يشاهد فيلمًا أمامه، ولكنه يحدث على أوراق كراسة الرسم .. عَلِمَ الآن بالمؤامرة التي تُحاكُ ضدَّه، وبالفعل مثلما رأى بالضبط وَجَدَ زميله يقابله بعد المدرسة ويطلب إليه أن يأتي معه ليبادله بمجلة جديدة من مجلات ميكي .. نظر له حاتم بغلٍّ ثم ضربه برأسه على أنفه فسقط زميلَه مُتألِّمًا والدماء تترف من أنفِه .. نظر إليه حاتم مُبتسمًا ثم تركه

وانصرف عائدًا إلى منزله .. فاستقبلته أمُّه بترحابٍ واهتمامٍ .. فنظر إليها حاتم مُندهشًا، ثم ازداد اندهاشه أكثر عندما لم تتشاجر معه أميرة أو تحدثه عن عبثه بغرفتها أمس.. رفض أن يدخل غرفته أو غُرفة أختيه .. إلا في وجود أمه بجواره، شعرت هناء بالخوف على حاتم، ولم تعلم ما الذي أصابَه وجعله يشعر بكل ذلك الخوف؟.. فقررت ألَّا تَضْرِبْهُ مرةً أخرى لظنِّها أن ما حدث له بسببها..وتمزَّق قلبُها ببطءٍ عندما رأت ظهورًا كثيفًا لبعض الشعر الأبيض في أسفل رأس حاتم الصغير، ولاحظت أنه يتحاشى الجلوس بمفرده أو دخول الحمام دون أن يقف أحد بالخارج.. حزنت، كيف تحوَّل ابنُها الكبير ذو الإثنى عشر عامًا إلى طفلٍ صغيرٍ مثل حسام، بل حسام الصغير لا يخاف مثله.. جلست معه بمفردها، وطلبت إليه أن يتحدث معها ..

– قول لي يا حاتم يا حبيبي .. في حد بيعملك حاجة في المدرسة .. حد مضايقك؟؟

نظر إليها قليلًا وهزَّ رأسه نافيًا ..

– أمال إيه اللي مخوّفك كده يا حبيبي؟..إنت زعلان مني علشان ضربتك؟..لو علشان ضربتك متزعلش مني والله ماهضربك تاني.

نظر إليها وبكى بشدةٍ ..

– مش انتِ يا ماما .. مش انتِ.!

– أمال مين يا حبيبي اللي مخوّفك كده؟..قول لي متخافش.. مفيش مخلوق هيقدر يعملك حاجة طول منا موجودة.

نظر إليها حاتم بسرعة وصرخَ ..

– الأمير يا ماما..الأمير.. خدني عنده، وبيعذّبني، ووراني النهارده فتحي واخواته وهما عايزين يضربوني.

وأخذَ يسردُ لها ما حدثَ معه بشكلٍ مُتقطّعٍ ومُبعثَرٍ فلم تفهم هناء من كلامه الكثير..نظرت إليه متشككة، وقررت أن تحاول أن ترى بنفسها ما يحدث لابنها ..

– طيب يا حاتم حد شاف الأمير ده؟ بيظهر لحد تاني .. حد شافه غيرك؟"

هزَّ رأسه بسرعةٍ:

– آه يا ماما .. حسام شافه.

نادت سريعًا على حسام.. لحظات وأتى إليها حسام أجلسته بجوارها، وأخذت تُداعِبُ شعرَه بيديها وتبتسم له ..

– قولي يا حسام.. حاتم أخوك بيقول إنك شفت واحد اسمه الأمير، وقالك تقول لحاتم إنهم عايزين يبقوا صحاب.. صح الكلام ده؟

هزِّ الصغير رأسه نافيًا .. نظر له حاتم بغضبٍ ..

– كدّاب والله يا ماما .. هو شافه وقال لي والله.

شعُرَ حسام بالخوف واحتضن أمَّه بقوةٍ..فاحتضنته هناء

- متخافش يا حبيبي.. متخافش.. بس متكدبش على ماما .. الكلام اللي بيقولو حاتم أخوك حصل حقيقي؟؟

هزَّ رأسه بنفيٍ .. فتابعت سريعًا ..

- أمال مين اللي عوّرك في راسك طيب ..؟

أشار حسام إلى أخيه وقال:

- حاتم .. عوّرني.

شعر حاتم بالغضب الشديد وأراد أن يضرب حسام فأبعدته أمُّه خارجًا وصرخت في حاتم ..

- إيه يا حاتِم هتضرب اخوك قدامي؟!

- كداب يا ماما .. بيكدب .. والله بيكدب ..

نظرت له مُعاتبةً ..

- حاتم .. اخوك هيكدب عليك ليه؟

- والله كداب يا ماما، والله كداب.. طيب باتي في أوضتي النهارده وانتي هتشوفي بنفسك اللي بيعملوه فيّ كل يوم!!

- خلاص أنا هنام في الأوضه النهارده، وهنيّم اخوك مع اخواته ونشوف كلامك كدب ولا لأ؟؟

نظر حاتم إليها مُتحدِّيًا:

– هتشوفي بنفسك .. إني مش كداب.

وبالفعل جلست أمه معه في غرفته، وظلا يتحدثان ويتسامران معظم الليل ولكن لم يحدث شيءٌ ..

– أهه يا عم حاتم .. أديني بايته في أوضتك أهه ولا شفنا أمير ولا غفير .. إنت بس كان بيتهيّألك .

– متسبنيش يا ماما .. همَّا هايجولي لما انام .. خلّيكي قاعده جانبي علشان تصحيني ومتخلهمش يعذبوني.

– حاضر يا حبيبي .. أنا جنبك أهه ومفيش مخلوق هيقرّبلك.

سرعان ما نام حاتم بعُمقٍ شديدٍ، وعلا شخيره دليل على إبحاره في عالم الأحلام.. نظرت إليه هناء، وهو نائم، ثم ابتسمت ونامت على سرير الصغير حسام بهدوء ولم يحدث أي شيءٍ غير طبيعي ..مرَّت عدة أيام، تنام هناء في غرفة حاتم كل ليلةٍ دون أن ترى أو تشعر بشيءٍ غير طبيعي، فتوقَّفت عن النوم بغرفته وسط توسُّلاته بألّا تتركه، وأنهم سيعاودون الظهور إليه مرة أخرى، وصرخت به والدته وطلبت إليه أن يتعامل كرجلٍ كبيرٍ، وأن يترك أفعال الأطفال تلك وهراء الأمير ذلك، وطلبت إليه أن يكفَّ عن قِراءة مجلدات ميكي وأمثالها؛ لأنها هي التي أدخلت إلى عقله كل ذلك الخَرفِ والتخيُّلات الحمقاء، وفي نفس اليوم نام حاتم بمفرده، وبدأت الحفلة اليومية

المعتادة معه وهو يواصل صرخاته وتوسلاته بالليل، وبالنهار يحكي لوالدته ما يحدث معه ولا تُصدِّقُه، وبدأت تواصل ضربه مرة أخرى إذا ذكر لها ما يحدث معه لأنه يُشعِرُ أطفالها الصغار بالخوف من أحاديثه.

بدأ حاتم ينغلق على نفسه ولا يتحدث مع أحد في الأسرة كلها، وبدأت حالتُه تسوءُ يومًا بعد يوم .. فعرضتْهُ أمُّه على بعض الأطباء، ولكنهم لم يجدوه يشتكي من أي مرضٍ ، ويمكن أن يكون ما يحدث له بسببٍ نفسيٍّ وأنه يريد أن تهتمَّ به أمه أكثر، ويريد أن يلفت له الأنظار ..

ظَلّت الأُمورُ مع حاتم تسير من سيئٍ إلى أسوأ، فهو دائم الشِّجار مع إخوته، وبالمدرسة فُصِلَ أكثر من مرة لتعديه الدائم على زملائه، وأصبح شِبهَ منعزل بغرفته لا يُحادثُ أحدً ولا يكاد يأكل.. رأت أمه ما يحدث له، ولم تعلم ماذا تفعل معه؟.. فهداها تفكيرها في يوم من الأيام أن تدعو أختها وزوجها وأولادهما من القرية لعل وجود أشخاص آخرين في حياته يُخرِجْهُ من حالته تلك .. وبالفعل أتى إلى منزلهم خالته وزوجها وأولادهما، وتجمَّعوا جميعًا حوله، وبعضهم نام معه في غرفته، وبدأ حاتم يشعر بالتحسُّن واختفى زوار الليل من القدوم إليه .. ظل الوضع كذلك حتى تلك الليلة .. عندما أغلقوا الأنوار والتفَّ الجميع حول التلفاز في غرفة المعيشة يشاهدون مسرحية سيدتي الجميلة.. وتعلو ضحكاتهم على كلمات شويكار وهي تقول .."أنتِ الكلب الكبير".. ضحك حاتم بشدة .. ضحكات

لم يشعر بها من داخله منذ مدة كبيرة للغاية.. عدة دقائق وسمع حاتم صوت شخص يعبثُ بمقبض باب المنزل الذي أمامه غرفة المعيشة.. نظر حاتم حوله فوجد الجميع منغمسين بمشاهدة المسرحية ولم يشعروا بشيءٍ يحدث.. فتابع ما يحدث بقلقٍ شديد فوجد مقبض باب المنزل يتحرك بشدة.. شعر حاتم بالخوفٍ ولكنه شعر بالفرح أيضًا لأن ما سيحدث الآنً سوف يراه الجميع، ويصدقونه بعد أن كانوا يكذبونه، فجلس في صمت يُتابِعُ ما يحدث دون أن يخبرهم.. فجأةً اهتزَّ باب المنزل بشدة وبعُنفٍ وظهر صوت طَرْقٌ قوي للغاية على الباب.. نَظَرَ حاتم مُضطربًا إلى الجميع فوجدهم لا يعيرون للأمر اهتمامًا، فشعر بالاندهاش.. بعد قليلٍ توقّف الطَّرقُ على الباب.. وفجأةً اخترقت بسرعة يد الباب وكسرته من أعلى بقوة.. وظهر جزء من اليد من الكف حتي الكتف وعليها شعر أسود طويل، وبدأت اليدُ تتحسَّس الباب بحثًا عن مقبضه.. نظر حاتم بخوف إلى ما يُشاهدُه والاندهاش ألا يعيرَ أحدٌ ما يحدث أيَّ اهتمام.. فصرخ فيهم..

- بصوا على الباب.

فنظر الجميع إليه.. وأميرة ابتسمت..

- ماله الباب؟

فصرخ فيهم حاتم ..

- الباب .. حد كسر الباب عايز يخش.

نظر الجميع جهة الباب بفضول ولم يروا شيئًا .. وجد حاتم أن اليد بدأت تبحث عن المقبض بشكلٍ أسرع .. فهبَّ واقفًا وهو يُشيرُ إلى الباب ..

- أهه .. إيد هناك.. أهه في الباب عايزه تفتحه.

تقدّمت أميرة جهة الباب ووقفت أمامه قليلًا ثم ابتسمت:

- مفيش حاجة يا حاتم .. أهه.

نظرت هناء إلى أختها وحدثتها بضيق:

- شفتي .. زي ماقلتلك ..

نظرت أختها إلى حاتم بأسًى ..

- يا عيني يا ضنايا.

شعر حاتم بالإهانة من كلام أمه وخالته..فصرخ فيهمت..

- إنتم كلكم عميتو.. مش شايفين اللي بيحصل؟..

ثم جرى مسرعًا جهة الباب، فسحبت اليد نفسها بسرعة من الباب واختفت .. ووقف حاتم أمام الباب يشعر بالغضب، فنظر خلفه فوجدهم جميعًا ينظرون إليه بنظرات الأسى والحُزن ونادى عليه حامد زوج خالته..

- تعالى اقعد جنبي هنا يا حاتم.. تعالى نتفرج على المسرحية مع بعض.

نظر حاتم إليه بضيقٍ وأراد أن ينصرف، ولكنه شعر بالخوف، ففضَّل أن يجلس معهم ثم اتجه بجوار أمه وجلس يتابع المسرحية .. فجأةً اهتزَّ الباب بقوةٍ شديدة .. ففزع حاتم ونظر إليه الجميع مرتابين

مرة أخرى يضرب الباب بشدة ثم ينخلع بقوة ويسقط على الأرض ويدخل من الباب شيءٌ أسود لجسدٍ علويٍّ لشخصٍ مُخيفٍ يمشي على يديه بسرعةٍ ويتجه إلى حاتم سريعًا.. فيصرخ حاتم عندما يُشاهدُه ويُشير إليه فينظر الجميع إلى ما يشير إليه فلا يجدون شيئًا أمامهم، وفجأةً يقترب الكائن من حاتم ويطارده وحاتم يهرب مبتعدًا عنه، والجميع ينظر إلى حاتم بخوفٍ وقلقٍ وهم يحدثونه ويحاولون تهدئته، فهم يرون من وجهة نظرهم حاتم قد قفز من مكانه فجأةً وهو خائف، وأخذ يركُضُ بأنحاء الغرفة .. قفز عليه حامد وأمسك حاتم واحتضنه وهو يطمئنه..

– مالك يا حاتم .. متخافش في إيه؟ .. اهدى.

أشار حاتم إلى الكائن الذي توقّف عن مطاردته، وظل ينظر إليه فقط..

– واقف هنا..هناك.. بيبصلي أهه.. انتم مش شايفينه .. ؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض..ثم بدأ حاتم يأخذ الأثاث ويُلقيه على الأرض أمامهم وهو يصرخ ..

– إنتم مش شايفينوا .. إزاي؟ واقف هناك أهه ..!

وبدأ الأطفال بالصُّراخ خوفًا مّما يفعله حاتم، فاخذه حامد سريعًا ودخل به إلى غُرفتِه وحاول تهدئته.

***

ظل حامد بجوار حاتم إلى أن نام، ثم تركه في الغرفة وانصرف إلى الجميع بالخارج وهو يضرب كفًا بكفٍ ..

– يا حول الله .. يا حول الله .. الواد يا عيني تعبان خالص.

أخذت هناء تبكي بشدةٍ وأختها تحتضنها وهي تصرخ في أطفالهم:

– يلا..كلكم خشو نامو..يلا.. إطفي التلفزيون يا حامد ونيّمهم.

فرضخ الجميع إلى كلامها وانصرفوا إلى غرفهم بعدما أغلق حامد التلفاز .. احتضنت أسماء أختها وربّتت على كتفها ..

***

استيقظ حاتم في الصباح على صراخ أخته حنان.. ذهب مُسرعا إلى غرفتها ليجد فتحي الفتى المتنمر البدين يقف أمامها وهي تبكي .. ذهب حاتم إليه غاضبًا، وضربه بكل قوته فسقط فتحي على الأرض وجلس حاتم سريعًا على جسده وضربُه بكل قوةٍ وعنف وهو يصرخ فيه أنه سوف يقتله لأنه يؤذي أخته الصغيرة التي حاولت أن تخلص فتحي من يديه وهي تبكي، وجاءت أمه وحاولت أن تخلصه من يديه فلم تستطع، وأمسكت خالته به بقوةٍ وهي تصرخ فيه أن يترك فتحي، ولكنه دفعها بقوةٍ بعيدًا عنه، وبدأ يكيل الضرب إلى فتحي الذي امتلأ وجهه بالدماء .. فجأةً أمسك به حامد زوج خالته بكل قوةٍ وأوقفه بعيدًا عن فتحي وهو يسبُّه ويكيل له اللعنات.. ذهبت إليه أمُّه وصفعته بشدةٍ.. نظر إليهم حاتم غاضبًا لدفاعهم عن فتحي الذي أبكى أخته الصغيرة ..

- بتضربيني ليه؟..بتدافعو عنه ليه؟ ده ضرب حنان أختي .. أنا لازم أموته.

صرخت أمه فيه، وهي تهزُّه بقوةٍ ..

- فتحي مين؟ .. إنت ضربت ابن خالتك.

نظر حاتم إلى فتحي مرةً أخرى، فوجده ليس فتحي، وإنما ابن خالته يسقط على الأرض والدماء تملأ وجهه، وخالته تنظر إليه وهي تبكي وتمسحُ وجه ابنِها المصاب، وحامد (أبوه) ينظر إليه وهو يعض على أسنانه.. ثم صرخ في زوجته ..

- إنتِ يا ست إنتِ .. خدي العيال ويلا نغور من هنا .. عليَّ الطلاق منا بايت هنا تاني.

ثم تركها وخرج إلى خارج الغرفة غاضبًا .. فنظرت هناء إلى حاتم بضيق ثم تبعت زوج أختها تحاول أن تهدئه قليلًا.. جلس حاتم في غرفته .. وسمع خالته وزوجها وهما يصبان جامَّ غضبهما على أمِّه ثم يرحلون وهم يغلقون الباب بقوةٍ..سمع أمُّه وهي تبكي بالخارج وتصرخ:

- ليه بس كده يا ربي؟.. أنا عملت إيه لكل ده؟"

هنا شعر حاتم بالغضب الشديد، وأغلق على نفسه غرفته، وأغلق أنوارها وهو ينتظر زوار الليل اليوم على أحرٍّ من الجمر.

وبالفعل عندما دقَّت الساعة 12 مساءً وجد حاتم باب الغرفة يُفتحُ ببطءٍ ثم يُغلقُ بسرعة وبقوةٍ شديدة.. جفل حاتم لحظاتٍ، ولكنه

تصنَّع القوة، ولم يتحرك من مكانه .. ثم فجأةً وجد 4 ظلال ترتفع عن الأرض بكل بطء، وبهم عيون حمراء تنظر إليه وهي ترتفع أمامه.. انخلع قلبه من مكانه وكاد أن يُغشى عليه من مشاهدتهم، ولكنه تحاشى أعينهم ونظر بالأسفل، وتوقَّف أمامهم، ثم صرخ فيه واحدٌ منهم ..

– إنت خايف؟؟

دقَّ قلبُ حاتم بشدة وبسرعة شديدة .. ثم هزَّ رأسه نافيًا ..

فجأةً وجد وجه واحدٍ منهم أمامه وهو ينظر إليه بعينيه المُرعبتين.. كاد حاتم أن يصرخ، ولكنه أغمض عينيه وحدّثه ..

– مش خايف.

لحظات قليلة لم يسمع من خلالها شيئًا، ففتح عينيه فوجد نفسه في غرفة بيضاء واسعة والرجال الأربعة يرتدون العباءات السوداء التي رآهم سابقًا يقفون أمامه وجميعهم ينحنون إليه ويشيرون بيدهم إلى الأمام.. فوجد كرسي عرشٍ كبيرًا أمامه، وشخص يجلس عليه.. فنظر حاتم إلى الأرض وهو يتقدَّمُ ببطء ليقف أمامه.. فسمع صوتًا قويًّا، ولكن غير مُخيفٍ يُحدِّثُه ..

– ارفع راسك يا حاتم .. متخافش"

رَفَعَ حاتم نظرَه فوجَدَ شخصًا يرتدي ملابس مُزركشة ومُنمقة ومُحلاة بالذهب والجواهر هو وكرسيه المصنوع بشكلٍ غريبٍ على

هيئة كائنات غريبة يتصارع بعضها مع بعضٍ .. وملامحه وسيمة، عيناه زرقاوان، وشعره يميل إلى الصُّفرة، ويرتدي تاجًا على رأسه .. ينظر إليه ويبتسم ..

– إنت عارف أنا مين؟ يا حاتم؟

– أيوه .. إنت الأمير.

ابتسم الأمير ..

– أيوه أنا الأمير،وبنفس الوقت صديقك..بس برضو مجاوبتنيش.. إنت عارف أنا مين؟

هزَّ حاتم رأسه بالإيجاب .. أمسك الأمير بسكين في يده اليسرى:

– طالما عارف أنا مين أمال كنت حاطط دي في هدومك ليه ؟

ارتبك حاتم وهو يبحث داخل ملابسه.. ونظر إلى الأمير بقلق..

فابتسم له الأمير ..

– إنت لو عارف كويس أنا مين.. تبقى عارف إنه عمرك ما تقدر تخبي حاجة عليَّ .. ولا عمرك تقدر تإذيني ..

نظر حاتم له بضيق..

– إنت عايز مني إيه؟

– زي ماقلتلك نبقي صحاب.

- واللي عايز يصاحب حد يخوّفه؟!

ابتسم بسخرية :

- يخوّفه.. إنت فاكر إني كده بخوّفك.. أنا كنت بجهّزك نفسيًّا لمقابلتي.. أنا لو عايز أخوّفك. ولاّ بلاش أقولك علشان متخافش، وعمومًا أنا هاعوّضك عن كل اللي فات.. زيّ مانت شفت أنا أقدر أحقق لك أي حاجة إنت عايزها.. تحبك أي بنت إنت عايزها.. أجبلك أي حاجة نفسك فيها .. أي شيء تتمناه يتحقق فورًا.

- اشمعنى اخترتني أنا يا أمير ؟

- تقدر تناديلي بإسمي..سيسيل..إحنا صحاب دلوقتي.. واخترتك ليه إنت بالذات.. هبسطلك الموضوع وهقوله لك بالتفصيل.. إحنا غيركم.. أنا عايش بقالي كتير.. كتير قوي.. أكثر مما تتخيل ونتيجة لكده جسمنا يبدأ يضعف ومبنقدرش نبقى عندكم في العالم بتاعكم .. علشان كده لازم يبقى ليك صاحب تعمل معاه عهد.. العهد ده بيخليني أقدر اساعدك.. أنفذلك كل اللي إنت عايزه في مقابل إن إحنا نعيش مع بعض، وطبعًا مش أي حد يقدر عندنا يقدر يعمل كده.. لازم يكون في شروط معينه.. والشروط دي لحظك الحلو .. تناسبني أنا وبس .. فهمت؟؟

حاتم بحدة ..

- أيوه ..

- طيب نفسك في إيه وأنا أحققهولك حالًا.

- نفسي تسيبوني في حالي.. أنا مش عايز أبقى صاحبكم.

نظر سيسيل له بغضب ..

- أنا قولتلك يا حاتم قبل كده.. إن الأمير سيسيل مايتقالوش لأ

ووقف فجأةً من مكانه.. فذعر حاتم، وسقط على الأرض نظر إليه سيسيل قليلًا ثم جلس في مكانه:

- إنت لسه صغير يا حاتم، ومش فاهم الدنيا دي إيه، وأنا أقدر أفيدك فيها إزاي.. عامةً العهد ما بينا لازم يكون برضاك مش غصب عنك أنا هاسيبك براحتك، ومش هعملك حاجه تاني، وكده كده.. أنا واثق إنك هتجيلي بس إعمل حسابك أنا عرضت عليك العهد بشروطك .. بعد كده العهد اللي ما بينا هايبقى بشروطي أنا .

يفرك سيسيل إصبعيه ليختفى من أمامه حاتم في الحال ..

تحدث كبير الشيوخ بوقار:

- مولاي الأمير .. هاتسيب حاتم.. هتتخلى عنه بسهوله كده؟؟

نظر سيسيل إليه بحدةٍ ..

- أنا عايزه يعمل العهد اللي ما بينا برضاه مش غصب عنه.. أنا مش عايزه يكرهني.. أنا عايزه يكره البشر، والسنين الطويلة اللي

عشتها علمتني.. إن أفضل شيء يخليك تكره البشر.. إنك تعيش بينهم.."

***

استيقظ حاتم ليجد نفسه بغرفته.. نظر حوله بحذرٍ باحثًا عن أي شيءٍ غريب، وغير طبيعي فلم يجد.. جلس على سريره مُرتقبًا يفكر في الحديث الذي دار بينه وبين الأمير سيسيل، ويتساءل: هل سيتركه فعلًا يعيش بسلام أم أنه كان يكذب عليه؟ .. ظَلّ يفكر طويلًا، ثم بدأ يشعر بالنُّعاس، فنام بعُمقٍ وبراحة بال.

مضت عدة أيام منذ أن قابل حاتم سيسل ولم يحدث شيءٌ يُعكِّرُ صفوَ باله.. فحياته أصبحت عادية للغاية، وبدأ ينفتح على أهله مرةً وهو فرح بأن سيسيل يحافظُ على وعده معه.. كانت أمه تُراقب التحسُّن الذي ظهر على حاتم بقلقٍ وارتياب، وتتمنّى أن يكون قد شُفيَ مما قد حَلّ به من قبل .. وأصبح أخوه الصغير ينام في غرفته مع حاتم مرة أخرى، وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها .. وظلت الأمور كذلك حتى ذات يوم حَلَّ المساءُ، وبدأ الجميع يذهب إلى غرف نومهم .. وذهبت أميرة وأختها حنان للنوم في غرفتهما .. فخلدت أميرة للنوم سريعًا، ولكنها شعرت بشيءٍ يسحب الغطاء عن جسدها، وهي نائمة .. فسحبت الغطاء مرة أخرى عليها .. ظل ذلك الأمر طُولَ الليل حتى استيقظت في ضيقٍ، ونظرت حولها فلم تجد شيئًا .. اتجهت إلى أختها حنان وأيقظتها.

فاستيقظت حنان بضيق ..

- سيبيني يا أميرة عايزه أنام.

فحدثتها أميرة بحدةٍ ..

- بتشدي من عليَّ البطانية ليه وأنا نايمة ..؟

فنامت حنان على جانبها وهي تتجاهل أميرة ..

- بطانية إيه بقى سيبني أنام..

نظرت إليها أميرة متشكّكة ثم عادت إلى نومها مرة أخرى وأحكمت الغطاء عليها..استيقظت بالصباح وقامت بإحضار ملابسها من خزانتها استعدادًا لاستحمامها اليومي .. نظرت في خزانتها طويلًا ثم أخذت تبحث عن شيءٍ بالخزانة ولم تجده .. فذهبت مسرعة إلى غرفة أمها ..

- ماما .. يا ماما.

نظرت أمُّها إليها بضيق ..

- أيوه يا ست أميرة .. عايزه إيه على الصبح .. ؟

- في حاجات من هدومي مش لاقياها..؟

- دوّري عليها كويس .. يكون هنا ولا هنا.

- دوّرت يا ماما، ومش لاقياها، والموضوع ده مش أول مرة يحصل .. كل شوية حاجة من عندي تختفي.

– يا بنتي دوري كويس .. يعني هايكونو فين .. أختك الصغيرة مبتلبسش مقاسك.

تركتها أميرة وذهبت إلى غرفتها بضيق ..

في مساء تلك الليلة نامت أميرة بعمق.. لتفاجأ بشيءٍ يرفع ملابسها ويتكشَّفها..استيقظت بفزعٍ وبحثت عمَّن يفعل ذلك، فوجدت باب غرفتها قد أُغلِقَ بسرعة.

قفزت أميرة من مكانها وذهبت إلى خارج غُرفتها، وظلت تبحث عن وجود أي شخص فلم تجد ..توجَّهت إلى المطبخ والحمام وغرفة أمها، ووجدتها نائمة .. فدخلت إلى غرفة الصِّبية وفتحتها لتجد حاتم مستيقظًا يقرأ في إحدى المجلات ..فنظرت إليه بريبةٍ وحدثته ..

– إنت صاحي ليه لغايه دلوقتي يا حاتم؟

حاتم نظر إليها بضيق:

– وإنتي مالك .. إقفلي الباب وامشي.

أغلقت الباب وهي تشعر بشعور غريب، ولكنها ذهبت إلى غرفتها واستكملت نومها .. فشعرت بشخصٍ يُراقِبُها فتحت عينيها ببطءٍ، ونظرت إلى مَنْ يُراقِبُها فوجدت حاتم يقف على باب الغرفة ينظر إليها .. فاستيقظت سريعًا وخرجت بسرعة تبحث عنه خارج غرفتها، فلم تجده، ثم اتجهت إلى غرفته وفتحتها .. فوجدت حاتم نائمًا

بعمقٍ والمجلة بجواره على السرير.. نظرت إليه مُتحيرةً، ثم أغلقت الباب، ودلفت إلى غرفتها وجلست على سريرها تفكر بقلق..

في اليوم التالي ظَلَّت تُراقِبُ حاتم وأفعالَه، فلم تجده يفعل أي شيءٍ غريبٍ عمَّا كان يفعله من قبل، وتحاشت الحديث إليه وسؤاله عمَّا حَدَثَ مساء أمس ذلك اليوم .. نامت أميرة بسريرها ولكنها شعرت أن هناك مَنْ يتكشف ملابسها، فلم تتحرك وتصنَّعت أنها نائمة.. ولكن فجأةً بدأ شخص يتحسَّس جسدها فاستيقظت على الفور.. فلم تجد أحدًا، فجلست على سريرها وهي تُعدِّلُ ملابسها، واحتضنت قدميها وبدأت تبكي ..

***

استيقظ حاتم وجهز ملابسه، وجلس يتناول هو، وإخوته طعام الإفطار، ولكنه لاحظ انفراد أخته أميرة بأمه أمام المائدة، وظلت همس لها في أذنها وفجأةً نظرت إليه أمُّه وهي مصدومةً.. نظر إليها حاتم مندهشًا من فعلهما،وتركهما وخرج إلى مدرسته، وهو يشاهدهما ترمقانه بنظراتٍ غريبةٍ عند مغادرته ..

عندما غادر ذهبت أمه وأميرة إلى غرفته، وفتَّشتا غرفته، ونظرت أمه أسفل سريره فوجدت قطعةً من ملابس أميرة الداخلية، فنظرت إليها ولم تتحدث ..

الصَّدمة

جلس حاتم في غرفته فدخلت عليه أمه.. فحدثها بابتسامة:

- إيه يا ماما.. إنتي كنتي فين؟.. أنا جيت ملقتكيش!

فابتسمت له بحزنٍ

- كنت في مشوار مهم يا حبيبي.

وظلت تنظر له لحظاتٍ وعيناها مغرورقتان بالدموع ..

- أنا عايزاك تعرف يا حاتم إن مهما حصل أنا بحبك.

ثم تركت الغرفة وركضت مسرعةً.

شعر حاتم بالاندهاش من فعلها، ولكنَّ تفكيره لم يهدِهِ إلى شيءٍ..

***

في اليوم التالي عاد من مدرسته فوجد أمه تجهِّز الغداء على المائدة، ووضعت عليها جميع الأصناف التي يُحبُّها، فشعر بالفرح الشديد .. وشكرها وقبَّلها وهو يشعر بالسعادة.. جلس الجميع يأكل في نهمٍ وانتهوا من الغداء، ثم أحضرت أمهم بعض الحلوى التي أكلها حاتم بسرور.. ظل حاتم يأكل في نهم وهو مستعجبًا من فعل أمه.. لقد قامت بإعداد جميع الطعام والحلوى المحببة إليه فجأة، وهذا شيء غريب.. مرّت لحظات، وسمع جرس الباب يرنُّ..ذهبت أميرة مسرعة لتفتح، وجلست أمها تشاهدها.. فدخل من الباب رجل يرتدي بدله أنيقةً سوداء، وبجواره شخصان يرتديان معطفين أبيضين، وقبعتين بيضاوين، وتقف أمامهما أميرة.. نظر حاتم إلى الموقف مندهشًا، ثم نظر إلى أمه، وحدَّثها باندهاش..

– مين دول يا ماما؟

تقدّم أحدهم، وأشار إلى الرجلين خلفه جهة حاتم فذهبا مُسرعَين إلى حاتم، وأمسكاه بقوةٍ، فصرخ حاتم في أمه مُندهشًا ..

– مين دول يا ماما؟.. في إيه ؟

فبكت أمه وهي تنظر إليه وأميرة احتضنت أخويها الصغيرين.. فصرخ حاتم وهما يلبسانه قميصًا أبيض بكمين كبيرين، ويُقيِّدان حركته بذلك القميص، وحاتم يصرخ ..

– ماما.. ردي عليَّ يا ماما .. ماما .. إلحقيني يا ماما.

ظلت أمه تبكي وهي تراقبهم يسحبونه بعيدًا وهو يرتدي القميص الأبيض الفضفاض.

- أنا آسفة يا حبيبي.. أنا آسفة .. كل ده علشان خاطرك.

صرخ حاتم بحرقةٍ شديدة، وهم يسحبونه على درجات السلم، وأمه تبكي خلفه، وهي تتبعهم، والجيران بدؤوا يفتحون أبوابهم وينظرون إلى الموقف مندهشين

***

قام الممرضون بسحب حاتم في ممرات مستشفى الأمراض العقلية، وأمه تركض وراءه، وهي تبكي، وحاتم يصرخ لها مستغيثًا ..

- ماما.. متسبنيش.. أنا عملت إيه يا ماما.. خلاص يا ماما، والله ماهعمل حاجة تضايقك.

أدخلوه إحدى الغرف ودخل الممرضون إليها، ومَنَعَ الطبيب هناء من أن تدخل معه، وظلت هناء تراقبه من خلف الغرفة وتسمعه وهو يصرخ ويستنجد بها.. فبكت وتوسلت للطبيب:

- أرجوك يا دكتور ما ينفعش نعالجه في البيت؟!

رد الطبيب في ضيق ..

- يا مدام.. كل الأعراض اللي حكتيلي عنها امبارح دي أعراض فصام، والحالة اللي وصلها حاتم دلوقتي أصبحت خطر عليه وعلى

اللي حواليه، انتي نسيتي عمل إيه لأخوه وابن خالته وآخر حاجة الموضوع المشين بتاع أخته.. هنا في المستشفى هيلاقي كل الرعاية اللازمة له..حضرتك تقدري تتفضلي دلوقتي وتسيبي الولد في رعايتنا.

نظرت إليه بحزن ثم قطعت الممر إلى خارج المشفى وهي تنظر خلفها كثيرًا باكية، وعادت إلى منزلها واحتضنت أطفالها وهي تبكي بحزن ..

***

المَجنون

مستشفى المجانين.. لا تدع الاسم يخدعك.. لن تجد هنا إسماعيل يس.. أو نابليون معه الأرنب، والبطة أو نيرون وهو يبحث عن ولاعته..لا.. لن تجد ضحكات هنا مثلما كانت تصوِّر لك السينما ذلك.. فهذا المكان لا تجرؤ أن تقتربِ منه الضحكات.. أو تنسلُّ إليه السعادة.. فالكآبة جاثمةٌ فوقه .. منتشرةٌ بأرجائه ..

هنا لن تجد بشرًا.. بل أشباهَ بَشَرٍ.. أمواتًا سائرين.. نعم يأكلون، ويشربون، ولكن لا يجب أن تكونَ لديك روحٌ لكي تكون حيًّا.. فكم من أمواتٍ يحيون بين قلوبنا وعقولنا دائمًا! وكم من أحياء لا نتذكر وجودهم .. وُلدوا وفنوا مثل كثيرٍ غيرهم .. لكنهم لم يبرزوا ما بين المئة مليار شخص الذين عمروا هذه الأرض منذ بَدْءِ الخليقة .. نعم جميع من عاشوا قد ماتوا.. ولكن ليس جميع من مات قد عاش ..

وهذا حال جميع المرضى الموجودين بالمشفى هنا الآن وبالمستقبل أيضًا.. فهنا تجد جميع فئات المجتمع من الأمير إلى الغفير.. لا شيء يجمعهم في التعليم أو المستوى الاجتماعي غير شيءٍ واحد، إنه ذهاب عقولهم، ولكن ذلك من وجهة نظرنا فقط.. فمن وجهة نظرهم نحن من فقدوا عقولهم، ولهم في ذلك وجهة نظر عندما تنظر إليه من نظرة موضوعية غير متحيزة.. فنحن ننعت بالجنون كل من لديه تفكير مختلف عنا.. رأي مخالف لجماعتنا.. رؤية جديدة لحياتنا..ماذا لو قابلك شخص وقال لك.. نابليون ليس قائدًا عسكريًّا عظيمًا بل هو حرامي غسيل؟.. ماذا سيكون رأيك؟.. ستقول: إنه مجنون.. إن نابليون هو قائد عظيم بالفعل وتوجد له تكتيكات عسكرية كثيرة ومنها ما وُضِعَ بالشطرنج.. حسنًا من قالك لك ذلك؟.. مَنْ؟.. الأهل؟.. المدرسة؟.. أم التلفاز؟.. حسنًا جميعهم.. لكن من قال لهم؟.. من أخبرهم؟.. هل عايشوا نابليون هذا؟.. بالطبع لا.. إذًا مِن أين لهم بتلك الأخبار؟.. الإجابة واضحة.. مِن التاريخ بالطبع.. جيد.. من وضع هذا التاريخ؟ أليسوا أناسًا مثلنا.. نعم مثلنا.. إذًا يأكلون ويشربون ويخطئون مثلنا..نعم..هم مثلنا،ولكنهم لا يخطئون.. لماذا لا يخطئون؟.. فلنضع مثالًا لك أنت.. هل أخطأ شخص من قبل بك وفسر سلوكك تفسيرًا غير صحيح؟

نعم حدث معي، وفسّرت أنت سلوكك لمن حولك وأقنعتهم أنهم مخطئون.. إذًا سيصدقونك لأنهم يعلمون من أنت، وما هي طباعك،

وأن من نَشَرَ هذه الأخبار الخاطئة، والإشاعات تلك حاقد عليك.. حسنًا ما الحال إذا نشر أحفاد هذا الحاقد هذه المعلومات الخاطئة عنك؟.. من سيدافع عنك حينها؟

لم اقتنع بكلامك.. حسنًا.. من هو محمد علي باشا؟.. إنه حسب كتب تاريخنا مؤسس مصر الحديثة.. هل تعلم أنه انقلب على من ساعدوه على الوصول إلى حُكْم مصر؟.. هل تعلم أنه وعد المماليك بالأمان ثم خانهم وقتلهم جميعًا في مذبحة كبيرة؟.. هل تعلم أنه منع تقوية الجيش المصري وخفَّض عدد جنوده لكي يستمر في حكم مصر هو وأولاده؟.. هل تعلم أنه أُصيب بالجنون، وأولاده قد خلعوه من الحكم ليحكموا هم من بعده؟

حسنًا هذه الأشياء لن تجدها في الكتب الدراسية..لا لم أقتنع بكلامك.. مَنْ يُدوِّنُ التاريخ هم علماء، والعلماء لايخطئون .

نعم فعلًا.. العلماء لايخطئون..حسنًا.. ما أخبار نظرية تفسير الأحلام لسيجموند فرويد؟..نظرية النسبية لأينشتاين؟..نظرية التطور لدارون التي يؤمن بها معظم علماء العالم ويفسرون معظم النظريات من خلالها؟.. فلتنظر إلى كم النظريات العلمية التي يُكتشف أخطاؤها كل يومٍ.. حسنًا.. أتريد أن تشككني في العلم نفسه؟.. إذًا أنت مجنون..

نعم.. هذا هو الجنون، ولكن ليس هذا ما حدث لمعظم زوار هذا المكان .. فمنهم من كان مجنونًا بسبب حُبِّه، ومنهم من كان مجنونًا بسبب طموحه .. ومنهم من كان مجنونًا بسبب ثروته .. ومنهم من

كان مجنونًا بسبب آرائه السياسية.. ومنهم مَنْ ليس لديه مكان آخر ليذهب إليه .. اختلفت الأسباب لوجودهم، ولكنهم جَمَعَهم الحزن والنسيان..

لم يخضع حاتم لأوامر الأطباء ولا لتهديدهم له بالويل. والوعيد، وظل يصرخ ويقاوم حتى بعد أن حقنوه بالمهديء الذي لم يفعل أي شيءٍ لإيقاف هياج حاتم الشديد الذي عبّر عنه بضربة من قدمه في صدر الطبيب الذي أخذ يتألم بشدة.. ثم نظر له نظرةً غاضبةً ثم هَزَّ رأسه للممرض الذي هز رأسه هو الآخر، وتركهم الطبيب وغادر، وسحبَ المُمَرِّض حاتم بمساعدة زملائه وتوجهوا إلى ممرٍّ كبيرٍ وطويلٍ به غرفٌ كثيرةٌ وأدخلوه إحدى هذه الغرف، فوجد الطبيب يقف أمامه وينظر له بحقد.."أنا هاعلمك الأدب، وإزاي تحترمني كويس. ثم أمر الممرضين بأن يخلعوا ملابس حاتم، فخلعوا الجزء العلوي من ملابسه وهو يصرخ، ثم وضعوه على منضدة في وسط الغرفة بجوارها جهاز إلكتروني كبير، وقيَّدوه على المنضدة بقيود جلدية قوية لم يستطع حاتم منها الحركة.. ثم سحبوا حذاءه من قدمه، ووضعوا شيئًا بلاستيكيًّا في فمه وهو يحاول أن يقاوم ولا يستطيع، ثم وضعوا مادة سائلة على جانبي جبهته من أعلى، ثم وضعوا جهازًا كبيرًا أشبه بسماعات الأذن على جانبي جبهته، ونظر إليه الطبيب، ثم ابتسم وأدار مفتاحًا بجواره على الجهاز الإلكتروني، ثم أدار مفتاحًا آخر بجواره على جهاز أشبه ببطارية السيارة فأخرجَ قوةً كهربائيةً شديدة مرت من خلال رأس حاتم الذي انتفض بقوةٍ وهو يعضُّ على المادة البلاستيكية بفمه.. حاول أن يصرخ فلم يستطيع.. ثم فجأةً دلفت

ذكريات غريبة في رأسه.. ذكريات لم يكن يتذكرها قط في حياته.. صور وأحلام ومواقف مختلطة بذاكرته.. جميعها ظهرت في رأسه في تلك اللحظة .. أغلق الطبيب المفتاح بجواره فتوقفت الكهرباء، ولكن لم يتوقف الألم الذي شعر به حاتم، وظل يصرخ بداخل نفسه من الألم.. لحظات ثم أدار الطبيب المفتاح مرة أخرى.. فمرت في مُخيِّلة حاتم الكثير من الذكريات مرة أخرى.. صورة له وهو يرسم قوس قزح على الحائط ووالده وأمه يضحكان أمامه، ثم صورة للدُّمية وهي تقف أمام رأسه وتتمايل برأسها يمينًا ويسارًا..نظرة أمه له والممرضون يسحبونه أمامها وهو يصرخ أن تنقذه وهي تكتفي بأن تراقبه وهي تبكي.. صابر وهو يقف بجوار حقل القصب يرمقه بالظلام، وهو يبتسم هو وأولاد خالته عندما يهربون ويطاردهم صاحب شجر التوت، وهو صغير ووالده يصنع مع أمه القطار ويصرخ توت توت.. والده يضربه وهو يسبه وينعته بالفشل.. سيسيل يقف أمامه وينظر له بغضب .. أميرة أخته تنظر له بشفقة وهي تحتضن حسام، وحنان.. يمر الألم في جميع جسده.. يشعر بأعصابه تنفجر.. يموت في اللحظة مئة مرة.. يضحك.. يبكي.. يثور.. يشعر بالحنان.. آلاف الذكريات تصحبها آلاف المشاعر المتضاربة. آلام جسده متشابكة مع آلام عقله.. ثم هدوووء ..

***

أسبوع مرَّ على حاتم في هذا المستشفى يعاني الجحيم كل يوم أثناء جلساته الكهربائية، والتي إن حاول أن يرفضها وقاوم.. يجعله الطبيب يمر بها 3 مرات يوميًا .. تعلَّم هنا.. أن يكون مُطيعًا، ويتغاضى عن

أي شيءٍ يقولونه أو يفعلونه له.. أن يتحمل الألم والإيذاء ويصبر عليه فترة أفضل من أن يُغْضِبَ الطبيب والممرضين الذين لهم اليد العليا هنا.. فهم الأناس الوحيدون بهذا المكان الذين ما زالوا محافظين على عقولهم، ولكن بالفعل لا يوجد أحد سيظل بعقله في هذا المكان.. فإنك إذا حدقت بالجحيم فسوف يحدق بك الجحيم.. فماذا سيحدث إذا صاحبت الجنون؟، وأصبح لديك سلطة على أشخاص تفعل بهم ما تشاء دون أن يحاسبك أحد؟، ولماذا؟ لأنه مجنون.. من سيُصدّق مجنونًا؟.. رأى حاتم بعينه عشرات الانتهاكات اليومية التي تحدث له وللمجانين أمثاله،ولم ينطق ببنت شفة.. رأى ذات يوم أحد الممرضين وهو يتبول على أحد المرضى ويطلب إليه بعد ذلك أن ينظف الأرض بلسانه، ورأى إحدى الممرضات البدينات القبيحات تمارس الجنس مع شاب صغير في السرير الذي بجواره، ورأى ثلاث جثث تخرج من غرفة جهاز الصدمات الكهربائية قبل أن يدخل واحد من الممرضين ويساومَ الحانوتيَ الذي سيأخذ الجثث، ويطالبه بأن يعطيه نسبةً أكبر من أرباحه التي سيحققها من الأطباء ومشتري الجثث من ذلك المستشفى، وإلا سوف يجعل حانوتيًّا آخر.. من له الحق الحصري لمصادرة جثث المستشفى..كانوا يتفاوضون على السعر أمام حاتم، ولم يخفوا شيئًا .. لماذا؟ .. لأنهم مجانين ..

رأى حاتم كل ذلك خلال أسبوع واحد .. فما بالك بمن يعيشون هنا سنوات؟ أصبح لديه خبرة كبيرة في كل المجالات.. أصبح يرى البشر على حقيقتهم.. لماذا؟ لأنهم مجانين.. مهما تحاول أن تجول بخيالك فيما يحدث هناك فلن تستطيع أن تأتي بجزء من الحقيقة.. تخيّل

أن لكِ حقًّا إلهيًّا بأن تفعل ما تشاء بأي شخص داخل أسوار هذا المشفى بشرط ألَّا تتعدَّى مكانك ومستواك.. كاد حاتم أن يُجنَّ فعلًا.. كان عمره يُقاربُ الثلاثة عشر عامًا ولكنه يحمل عقلَ من رأى أشياء لم تخطر على بال مَن تعدَّى المئة عام..

جلس حاتم في عنبره الواسع الذي يحتوي على عشرين سريرًا من الحديد المغطى باللون الأبيض والصدأ الأحمر ينهش في جسده كما ينهش السرطان في البشر.. رائحة أكسدة الحديد تملأ رائحة الغرفة التي تتداخل مع رائحة العطن الصادرة من المراتب القديمة الممزقة التي يرتع عليها القُراد ومختلف أنواع حشرات الفراش المعروفة وغير المعروفة، والتي ترتكن على بلاط أبيض قذر لم يمسه الماء إلا كلما رحم ربي وأتت زيارة من مفتش هنا أو مراقب هناك. والحائط ملتفٌّ نصفه بسيراميك أبيض أيضًا وتظهر عليه علامات الإهمال والنسيان.. نظر حاتم حوله إلى المرضى المحيطين به .. فرأى ذلك الشاب الواجم الساكن الذي كانت تمارس معه الجنس الممرضة العجوز القبيحة منذ أيام وهو يقف أمام شباك زجاجه مكسورٌ ومُغطًّى بالقضبان الصدئة المهترئة ينظر إلى أشعة الشمس المنسابة إليه عسى أن تشعره بجزءٍ من آدميته المنسية، وعجوز آخر يجلس في زاوية الغرفة على الأرض، يضمُّ يديه وقدميه وهو يهزُّ رأسه ويتمتم لنفسه ببعض الكلام غير المفهوم لنا، ولكنها له تمثل أعظم القصائد أو المعلقات المنسية، ورجلان آخران يقفان فوق السرير، ولا يتحدثان.. فجأةً وجد حاتم

شخصًا يضع يده على كتفه.. فنظر خلفه بسرعة.. ليرى أمامه سيسيل يرتدي ملابس الأطباء ويضع سماعة على رقبته ويرتدي نظارة.



حاتم متفاجئ..

- سيسيل؟!

جلس سيسيل على سرير أمامه وابتسم له..

- إزيك يا بطل.. ها.. إيه رأيك في مستشفى المجانين؟

نظر له حاتم بدهشة ثم نظر حوله بقلقٍ.. فحدّثه سيسيل بابتسام..

- متقلقش.. محدّش شايفني غيرك.. أنا لبست بالطو بس علشان الجو بتاع المستشفى.

نظر حاتم له ولم يتحدث.. فربّت سيسيل على كتفه ..

– متقلقش.. متقلقش اتكلم براحتك كده كده هما معتبرينك مجنون.

– إيه اللي جابك هنا ..؟ انت مش قلت مش هتتدخّل في حياتي تاني؟"

– إيه؟ أنا جاي أزورك مش احنا أصحاب.. دي أمك معملتهاش وجت تشوفك .."

– إحنا مش أصحاب، وأمي كده كده لو جت مش هتعرف تشوفني هيمنعوها من زيارتي لمدة أسبوع.

– مالك بتدافع عنها كده؟.. مش أمك دي اللي جابتك هنا؟

– هي عملت كده بسببك.. من بعد ما أقنعتهم بإني بعمل الحاجات القذرة دي لأختي أميرة.

– إيه ده انت عرفت؟

– أيوه.. التمرجيه هنا.. مبيفوتوش فرصة إلا لما يشتموني، ويعايروني بالموضع ده كل شويه.

– بس متنساش إن أمك مبتثقش فيك.. مصدقتكش لما حكتلها عني، وصدقت إنك إنت اللي بتعمل كده في أختك هي اللي جابتك هنا مش أنا من حقك تكرها هي مش أنا.

– مهما عملت مش هكره أمي.. أنا بكرهك إنت.. إنت السبب في كل اللي بيحصلّي ده.. أنا عمري ماهتعبرك صاحبي أو صديقي، ولا عمري هاعمل معاك عهد زي ما إنت عايز.. هتعذبني.. عذبني.. هيحصل فيّا إيه أكتر من إني دخلت مستشفى المجانين.. هتموتني؟.. موتني.. على الأقل هرتاح منك، ومش هتعرف برضو تعمل معايا عهد.

بدت على سيسيل علامات الغضب.. ابتسم بسخرية..

– واضح إن عقلك نضج قوي في الفترة اللي قعدتها هنا.. يا حاتم أنا عايزك تعرف حاجة.. أنا مفيش مخلوق يقدر يقولي لأ في حاجة أنا عايزها.. بس أنا مراعي إنك صغير لسه.. أنا ممكن أخرّجك من هنا في لحظة.. أدمّرلك المستشفى دي على اللي فيها لو حبيت.. أخليك تنتقم من الدكتور، والممرضين اللي بيعذبوك.. أخلّي أمك وإخواتك يعيشو في قصور.. أخليك عايش طول عمرك في سعادة وراحة للأبد.. أو.. فجأةً تبدّلت ملامح سيسيل بغضب شديد وارتفعت جميع الأسرة التي بالغرفة ففزع المرضى وصرخوا بهيستريا.. ابتلع حاتم ريقه بصعوبة خوفًا من سيسيل.. مرّت لحظات قبل أن تستقرُّ الأسرة في مكانها في الحال.

وقف سيسيل وترك حاتم وانصرف وهو يحدثه:

– أنا هاخرّجك من هنا، ومش هدخل في حياتك زي ما اتفقنا..
ثم وقف أمام باب الغرفة، ونظر إلى حاتم ..

– بس اتفقنا مكنش يشمل أمك، وإخواتك.

شعر حاتم بالفزع وجري مُسرعًا جهة سيسيل ..

– سيسيل..استنى..استنى..أمي،وإخواتي ملهمش دعوة.. ملهمش دعوة.

لحظات ودخل الممرض الغرفة إلى حاتم ..

– تعالى يلاّ كلّم الدكتور.

***

دخل حاتم غرفة الطبيب ليجده جالسًا إلى مكتبه، ووالدته تجلس أمامه.. صرخ بفرح لرؤيتها فقامت باحتضانه بحنان..

– ماما .. خرّجيني من هنا.. بيعذّبوني وبيكهربوني.

نظرت إلى الطبيب مستنكرة.. فأجابها سريعًا ..

– ده جزء من علاج الفصام اللي عنده.. العلاج بالصدمات الكهربائية، وده أشهر وأأمن علاج مكتشف في عصرنا ده.. ثم أنا شارح لحضرتك خطوات العلاج كلها زي ماقلتلك.

نظرت هناء إلى حاتم بترجٍّ:

– معلش يا حاتم.. استحمل شويه.. إنت عيان، وده الحل الوحيد اللي هيخيلك تخرج من هنا .

حاتم بخوف ..

– يا ماما.. إنتِ مش عارفة بيعملوا إيه هنا؟!

نظر إلى الطبيب فيجده ينظر له نظرات حادةٍ، فابتلع ريقه بخوف..

– لازم تخرجيني من هنا يا ماما.. سيسيل مش هيسيبكم.. هيأذيكم إنتِ وإخواتي.

الطبيب:

– زي مانتي شايفه أهه يا مدام.. رجع للهلاوس، والأوهام بتاعته تاني أهه..معلش أستاذنك لازم ناخده للجلسة حالًا.

ضغط على زِرِّ جرس بالمكتب ليدخل ممرض سريعًا ويبدأ يسحب حاتم من أمه.. فصرخ بها ..

– متخلهمش ياخدوني.. متسبنيش هنا يا ماما.. هيأذيكم.. مش هيسيبكم يا ماما .. خرجيني من هنا.

بكت هناء، وهي تشاهدهم يسحبونه من أمامها وتتركه وهي حزينة:

– معلش يا حاتم.. استحمل يا حبيبي.. كله علشان مصلحتك.

ترك الطبيب هناء بعد أن ودَّعها خارج مكتبه واتَّجه إلى غرفة العلاج بالصدمات، وأجرى جلسة طويلة ومؤلمة لحاتم عقابًا له على ما صدر منه أمام أمه ..

***

في مساء تلك الليلة خلدت أميرة إلى النوم بغرفتها، ونامت بعمق، ولكنها شعرت فجأةً بشيء يسحب ملابسها.. فاستيقظت فزعةً تنظر حولها وهي تصرخ..

– مين؟.. مين هنا؟

شعرت ببرودة بالغرفة فجأةً، وشعرت بوجود حضور قوي معها بالغرفة.. دقت ضربات قلبها بسرعة وقوة، ولكنها حاولت طرد مخاوفها، فسحبت غطاء السرير عليها، وحاولت أن تنام مرة أخرى، ولكن الغطاء انتُزع من بين يديها بقوةٍ شديدة.. فصرخت خائفةً. فجأةً وقف أمامها غطاء السرير مفرودًا ومشدودًا بقوةٍ عدة لحظات ثم سقط على الأرض.. قفزت من سريرها إلى جهة أختها حنان، وأيقظتها بقوةٍ وذهبت إلى غرفة أمها، وأيقظتها.. أفاقت هناء سريعًا واستيقظ معها حسام الصغير النائم بجوارها.. فرأت أميرة مرتاعة فهدّأتها ..

– مالك يا أميرة؟ في إيه؟ مفزوعة كده ليه؟

فحدثتها أميرة بفزع..

- حصل تاني يا ماما.. حد شدّني من هدومي وشد الكوفرتة من على جسمي.

نظرت لها هناء مستنكرة حديثها ..

- بتقولي إيه يا أميرة؟.. إزاي الكلام ده؟.. ده حتى حاتم مش هنا أصلًا!.

فنظرت إليها أميرة بحزن:

كده يبقى مش حاتم اللي كان بيعمل معايا كده يا ماما.

نظرت هناء إلى أميرة مستنكرة حديثها، ورفضت تصديقها بقوة. كانت في صراع داخلي بأن ترفض هذا الأمر لكيلا تكون قد رمت ابنها في مشفى المجانين، وهو بريء وكانت في نفس اللحظة تتمنّى أن يكون كلام أميرة صادقًا حتى يخرج حاتم من محبسه الاضطراري..

- فين الكلام ده حصل؟ فين يا أميرة؟

- حصل في أوضتي يا ماما.

- طيب نامي إنتِ، وإخواتك هنا، وأنا هاروح أوضتك أشوف الكلام ده بنفسي.

تركت هناء أولادها، وجلست بالغرفة بمفردها تقاوم خوفها من أن يكون كلام أميرة صحيحًا، وتتمنّى بنفس الوقت أن تكون مخطئة بشأن حاتم .. جلست ساعة بمفردها ولم يحدث شيءٌ .. ثم ساعتين ..

ثم ثلاثًا ولم يحدث أي شيءٍ.. تركت غرفة أميرة وذهبت إلى غرفتها فوجدت أطفالها نائمين على سريرها، فتركتهم نائمين، وظَلّت هي تنظر إليهم وتحاول تبرير فعل أميرة ذلك لشعورها بالذنب، وتريد أن تُعيد أخاها إلى المنزل مرةً أخرى، ولا تتركه بالمستشفى، وهذا هو التفكير الوحيد المنطقي الذي خرجت به هناء.

حَلّ الصباحُ، وذهب الجميع إلى مدارسهم.. أصبحت هناء بالمنزل بمفردها.. فذهبت إلى غرفة حاتم، وظلت تُقلّبُ بها، وتتذكّر حاتم وجلوسه بالغرفة وهو يقرأ مجلدات ميكي، وتبتسم ثم تشعُرُ بالذّنب تجاهَهُ، ولكنها تُنحّي حُزنَها في سبيل عقلها، وأن من مصلحة حاتم ما فعلته حمايةً له ولإخوته خوفًا أن يؤذيهم.

عاد الجميع إلى المنزل، ومَرَّ اليوم طبيعيًّا للغاية حتى جاء الليل، وجلست هناء على رأس المائدة تتناول العشاء، وعلى يمينها أميرة وحنان وعلى يسارها حسام.. فجأةً تحدثت أميرة حدثتها:

في حاجة ظهرتلك في أوضتي امبارح؟

نظرت أمها إليها بجدةٍ:

– مفيش حاجة متخافيش، وتخوّفي إخواتك..أنا عارفة إنت عايزه تعملي إيه؟

– يعني إيه؟.. إنتِ فكراني بضحك عليكي؟!

- أيوه إنتِ بتكدبي علشان نطلّع أخوكي حاتم.. يا أميرة أخوكي عيّان.. مريض.. لو متعالجش مش هيخف وهيأذي نفسه، ويأذيكم معاه.

- يا ماما.. أنا بقلك مش حاتم اللي بيعمل كده.. من اللي حصل إمبارح معايا مش من حاتم.

صرخت أمها بها ..

- قولتلك ماتكدبيش عليّا.

صرخت أميرة بها وهي تضرب المائدة بيدها:

- أنا مش كدّابة، والله العظيم حصل معايا كده امبارح.

وقفت أمها غاضبة ..

- قولتلك مفيش حاجة.. أنا شفت بنفسي.

قاطعها صوت حسام الصغير:

- في يا ماما!!

نظر الجميع له مندهشين..

سألته أميرة بسرعة:

- إيه يا حسام؟.. شفت حاجة؟.. احكي لماما.

نظرت أمها إليه مستنكرة..

– في إيه يا حسام؟

حسام بصوتٍ ضعيف ..

– شفت واحد قالي أأقول لحاتم إنه عايز يبقي صديقه.

نظرت إليه هناء مستنكرة ..

– أنا مش سألتك قبل كده قولتلي الكلام ده ماحصلش.

– آه همّا قالوليلي ماقولكييش، وهيجيبولي هدية.

هناء إلى أميرة بضيق ..

– شفتي مليتي دماغ أخوكي الصغير بكلام فارغ إزاي؟!

صرخت أميرة بها غاضبةً:

– إنتِ ليه مش راضية تصدّقينا، ولاّ انتي عجبك اللي حاتم فيه ولّما صدقتي رمتيه في مستشفى المجانين، وخلصتي منه، وهتخلصي مننا إحنا كمان زيّه!.

صفعتها هناء بقوةٍ.. فمسكت أميرة وجهها متألمة وتركت المائدة غاضبه إلى غرفتها، وصفقت الباب بقوةٍ.. وقفت هناء أمام المائدة وهي تنظر لأولادها بغضب، وتصرخ بهم.."بتلوموني علشان بحميكم.. فاكرين انكم بتحبو أخوكم أكثر مني.. أنا قلبي بيتقطع في اليوم مية مره علشانه .. أنا أمكم وعارفة مصلحتكم كويس.

تعالى صوت صراخ أميرة من غرفتها..

- ماما ... ماما.

فترد عليها هناء غاضبةً:

- عايزه إيه ؟

زاد صراخها:

- إلحقيني يا ماما.

ركضت هناء مسرعة إلى الغرفة فاتحة باها بقوة لتجد مشهدًا غريبًا للغاية أمامها.. أميرة تقف في منتصف الغرفة، وفجأةً ترتفع سلسلتها الذهبية أمامها إلى أعلى.. تنظر أميرة إلى أمها بخوف، وهناء تنظر إليها مصدومة فاغرة فمها ممَّا رأت، التفت في بطء حول أميرة غير مصدقة لما تراه، وضعت يديها أعلى السلسلة المرتفعة بالهواء وأسفلها فلم تجد شيئًا، فنظرت إلى أميرة مُرتابةً ..

- إنتِ عملتي إيه؟

صرخت أميرة بغضب:

- معملتش حاجة..أنا واقفة قدامك معملتش حاجة.

لم تكمل جملتها حتى ارتفع غطاء السرير ببطء أمامهما، وأصبح على شكل رجل يختبئ تحته.. فصرخت أميرة مرعوبة، وهي تطلب النجدة من أمها التي وقفت مندهشةً فارغه فمها أفقدتها الصدمةُ قُدرتَها على التحرك أو الكلام.. فهزّتها أميرة من يدها، وهي تصرخ بها أن تفعل شيئًا.

أفاقت هناء من غفلتها بسرعة، وذهبت بسرعة وأمسكت ملاءة السرير وسحبتها بقوةٍ لترى من يقف تحتها، ولكنها لم تجد شيئًا غير اندفاع آلاف القطع من ريش الطيور الأبيض، وظَلَّ الريش يتشكل على أشكالٍ مختلفة يهاجمهم، وأميرة مستسلمة تصرخ في يأسٍ والريش الأبيض يُهاجِمُها، وهناء تحاول أن تبعد هذا الريش عنها هي، وابنتها لحظات وانتهى كل شيء واختفى الريش بأكمله فسقطت أميرة على الأرض منهارة فاحتضنتها هناء وحاولت التخفيف من روعها.. فجأةً سمعت صوت حنان وحسام يصرخان بالخارج.. فخرجت مسرعة ساحبة أميرة من يدها، وخرجتا إلى غرفة المعيشة ليجدوا التلفاز يطير في الهواء وهو يعمل وبصورة جيدة.. احتضنت هناء أولادها جميعًا وهي تشاهد التلفاز يحلق في أنحاء الغرفة ويغير القنوات بمفرده، ثم بدأ المسجل يعمل هو الآخر ويغير المحطات بسرعة شديدة.. رأت هناء ذلك فاحتضنت أولادها بقوةٍ وصرخت بشدة:

– عايزين إيه مننا ؟.. سيبونا في حالنا.

فجأةً توقّف التلفاز في الهواء ثم بكل قوة اصطدم بالأرض.. وسمعوا صراخًا شديدًا جدًّا، واهتزت جميع الأواني المعدنية بالمطبخ، ظل الأطفال، وهناء يصرخون، وتلاعبت أضواء المنزل، وأصبح هناك طرق قوي على باب المنزل.. ثم سُحب غطاء المائدة عن المائدةِ والتفَّ حول هناء بقوةٍ شديدة، وقيَّدَ جسدَها، وتجمَّع عند رأسها.. بدأت

تشعر بالاختناق.. فصرخ أولادها، وحاولوا أن يساعدوها.. فسُحِبَت حنان بسرعة جهة اليمين، وسُحب حسام جهة اليسار وارتفعا في الهواء وهما يصرخان.. نظرت أميرة إليهما بخوف وهما يطيران في الهواء، أخذت أمها تسعل بقوةٍ غير قادرة على التنفس، فقررت أن تساعد أمها بسرعة.

ما زالت الإضاءة تتراقَصُ والأواني تضرب بشدةٍ وصوت الصُّراخ بالمنزل أعلى من صُراخ العائلة وباب المنزل يطرق بقوةٍ .. نجحت أميرة أن تسحب الغطاء عن وجه أمِّها للتنفس بقوةٍ بعد أن كادت تخرج روحها من جسدها..جرت مسرعة تحاول إمساك حنان وحسام فسقطت على الأرض وسُحبت من قدميها إلى داخل غرفة أخرى، وهي تصرخ مستنجدة بأمها.. ثم سُحبت حنان إلى المطبخ وهي مذعورة وتصرخ على أمها .

وقفت هناء في منتصف غرفة المعيشة وهي تلطم خدَّيها، وتصرخ وتشدُّ شعرها لا تدري ماذا تفعل؟ أو أين تذهب لإنقاذ أيٍّ من أولادها أولًا.. نظرت إلى ابنها الصغير فترى الفزع على وجهه، فلم تتحمَّل رؤيته هكذا. ركضت مسرعة جهته لكي تقوم بإنقاذه وأمسكت به.. فبدأ يُسحب بشدة، وهو يطير إلى آخر الغرفة بقوةٍ كأن هناك من يحمله. ثم قُذِفَ بسرعةٍ وقوةٍ كبيرة جدًّا جهة الحائط.. ففزعت بشدة.. لتسمع صوت ارتطامٍ، وتحطّم بالحائط فتنظر مسرعة، وهي تنتظر الأسوأ.. فتجد ابنها مغشيًّا عليه وهو ما زال بالهواء، وأن

ما ارتطم هو كرسي طار بسرعة وارتطم بدلًا من ابنها حسام .. لم تتحمَّل أعصابها ما ألَّمَ بها من هذه الصدمة، فسقطت على الأرض مغشيًّا عليها.

أفاقت لتجد نفسها نائمة على الأرض والجيران ملتفون حولها، وباب منزلها مُحطَّم.. فصرخت:

- ولادِي..ولادي فين؟

أحضر الجيران أولادها إليها فتحتضنهم جميعًا وهي تبكي ..

***

باب المنزل مُحطَّم، والأنوار ما زالت تتراقص بالمنزل.

ذهبت هناء، وأولادها عند جيرانهم وهم في حالة فزع شديد، حاول الجيران تهدئتهم.. فحكت لهم ما مرت به..اندهش الجيران من حديثها، ولكنهم صدقوها لأنهم سمعوا أصواتًا غريبة داخل الشقة حينها..قامت هناء بالاتصال بأختها وقصت الحكاية كاملة على حامد.

وصل حامد صباحًا مصطحبًا معه الشيخ محروس أشهر معالج بالقرآن، وفكِّ السحر في جميع أنحاء القرية الذي لم يستعصِ عليه أيُّ ماردٍ أو جنٍّ من قبل.. بالرغم من أجره باهظ بعض الشيء، ولكن أهل القرية يقبلوا عليه.

أوصلهتما سيارة أجرة سريعًا إلى البناية التي تسكن بها هناء.. صعدا الأدراج سريعًا فوجدا هناء تنتظرهما عند الجيران.. شعر حامد بالشفقة على هناء عندما رآها أمامه مرتاعة خائفة.. لكنه طمأنها سريعًا لأنه في حضرة الشيخ محروس الذي طلب منهما أن ينتهي بسرعة من عمله لأن لديه طلبات عمل أخرى في أماكن أخرى.

لحظات وكان الثلاثة بالمنزل فاندهشوا بأن كل شيءٍ في قد عاد إلى طبيعته، فالتلفاز عاد كما كان، والمقاعد ومائدة السفرة مُرتَّبة، ولا يوجد أيُّ شيءٍ غير عادي.. نظرت هناء مذهولة.. وحاولت أن تتكلم فمنعها الشيخ محروس بحدةٍ ..

– مفيش بني آدم يتكلم .. اللي هيتكلم هيتئذي.

ثم أخرج المبخرة من حقيبته، ووضع بها بعض البخور، وأخذ يعزم عليه بكلام غير مفهوم .. ثم بدأ يتلو بعض آيات القرآن، وهو يلف في أرجاء المنزل، ويدخل الغرفة تلو الأخرى.. ويراقبه حامد وهناء في وجوم .. ظل يعزم بكلامه غير المفهوم ويقرأ الفاتحة، ويلف بالبخور مدة ربع ساعة، ثم نظر إلى حامد وهو يبتسم ..

– الحمد لله.. البيت اتطهّر، وكل اللي في مشيوا لازم تشغلو كل يوم الفاتحة وسورة البقرة.

ثم أخرجَ شيئًا ملفوفًا على شكل مُثلثٍ مصنوعٍ من جلد الماعز، وأعطى حامد إياه ..

- تحطوا الحجاب ده في مايه بملح لمدة يومين، وبعدين تاخدوا المايه دي ويستحمي بيها أهل البيت في مكان مفهوش نجاسة، وباقي المايه ترشوها في أرجاء البيت وترشوا شويه منها على عتبة العمارة من تحت وقدام الشقة.

نظرت إليه هناء وهي فرحة ..

- بجد يا شيخ.. يعني مفيش حاجة في البيت دلوقتي؟

نظر محروس إلى الأرض وهو يحدثها ..

- أيوه يا ست .. بإذن الرحمن البيت اتطهّر ومفهوش حاجة.. بس أوصيكم وإياي بترك المعاصي والاستغفار من الذنوب، والبعد عن أي فعل يغضب الله.

وتوجَّه إلى باب المنزل ليغادر وتبعه حامد الذي تهلّل وجهُه وهو ينظر إلى هناء بفرح..

- الحمد لله يا أم حاتم.. غُمه، وانزاحت، والبركة في الشيخ محروس.

ابتسمت هناء بفرح:

"الحمد لله .. الحمد لله .. ربنا يكرمك يا شيخ والله."

فجأةً أُغْلِقَ البابُ أمامهم وهم يهمُّون بالخروج، فنظر حامد إلى محروس بفزعٍ.. ثم نظرت إليه هناء:

– إيه يا شيخ؟ .. مش إنت قلت إنك طردهم؟!

نظر إليها محروس مُضطربًا ثم التف خلفه بسرعة، وأمسك مبخرته وظلّ يجول في غرفة المعيشة..

– بسم الله الحنّان المنّان خالق الإنس والمردّة والشياطين والجان.. أقسمتُ عليك يا مَنْ تسكن في هذا المكان أن تظهر في التوِّ والحال .. أو تنصرف وعليك الأمان والمنّة من الرحمن.

فجأةً ظهر أمامهم على مائدة السفرة فَهْدٌ أسود، له عينان زرقاوان، يتكيء على المائدة وينظر لهم بحدةٍ .. شعر الجميع بالخوف وعقدت الصدمة ألسنتهم .. أخرجَ الفهدُ لسانَه، وبدأ يلحس جسده وهو ينظر إليهم بعينيه الزرقاوين المُخيفتين .. هَزَّ حامد محروس بكتفه وهو يصرخ فيه ..

– يا شيخ.. إعمل حاجه يا شيخ.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

فوقف الفهد على المائدة فجأةً ونظر إليه بحدةٍ.. ثم قفز بسرعة جهة حامد واخترق جسده واختفى بداخله.. فقفز محروس فزعًا، وابتعدت هناء وهي تصرخ.. سقط حامد أرضًا بجوار باب المنزل.. ثم هبَّ واقفا فجأةً، وهو يضحك بشدة، ويقترب من محروس.. الذي بدا عليه الخوف الشديد، وبدأ يقرأُ آيات من القرآن.. فوقف بالقرب من حامد وهو يحدّثه بصوت أشبه بفحيح الأفاعي ..

– عامل فيها شيخ يا محروس.. أخبار بديعة مرات متولي إيه؟ لسه بتتقابلو في الغيط بالليل؟

نظر إليه بخوف شديدٍ ولم يتحدث..

– يالّا يا شيخ.. مش قولتلي اظهر، واديني ظهرتلك.. وريني هتعمل إيه؟

صرخ محروس:

– أعوذ بالله من ال..

فرفع حامد يده بقوةٍ.. فامتنع محروس عن فتح فمه، ونظر له حامد بغضبٍ شديد، وتحولت عيناه إلى اللون الأزرق وصرخ به:

– أنا مش فاضي ألعب معاك.

فأشار بيده، فارتفع مقعد المائدة في الهواء، ثم هوى بسرعة على جسد محروس الذي صرخ من الألم.. وظل المقعد يضرب محروس إلى أن حُطِّم تمامًا، ومحروس يصرخ متألمًا.. ثم حاول الهروب من مكانه بسرعة .. رفع حامد يده لترتفع قدم المقعد المحطم في الهواء سريعًا ثم هوت بقوةٍ شديدة على فخذ محروس الأيمن، سقط محروس على الأرض صارخًا.. شاهدت هناء ما حدث لمحروس فصرخت بشدة ملتصقة بالحائط وراءها.

فيبتسم حامد ثم يشير بأصبعيه السبابة والوسطى جهة محروس الذي ارتفع بالهواء مع بدء إشارته وهو يصرخ من الخوف والألم .. ثم هوى حامد بيده بقوةٍ .. جهة الأرض، فهوى محروس بقوةٍ على مائدة الطعام في منتصف الغرفة فحطَّمها بجسده.. فسقط على الأرض، ولم يصدر أيَّ صوتٍ.. ركضت هناء بخوفٍ وذُعرٍ شديد جهة باب المنزل، وحاولت أن تفتحه فلم تستطع.. فنظر حامد خلفه إليها بعينيه الزرقاوين نظرةً أذابتها في مكانها، ولم تقوَ قدماها على احتمالها.. فسقطت على الأرض مرعوبة.. فجأةً وجدت حامد أمامها ينظر إليها بعينيه الزرقاوين في عينيها ويحملها من رقبتها بيدٍ واحدة من على الأرض.. لم تحتمل هناء ذلك وفقدت الوعي أمامه.. فقام حامد بوضع يده على بعض خصلات من شعرها ومزَّقها من رأسها بقوةٍ فشعرت بالألم بشدة فأفاقت، ونظرت إليه تصرخ في وجهه.. فرفع حامد يده ببطء بسبابته ووضعها أمام فمه وهمس لها:

– صوووصص.. اسمعيني ومتفتحيش بقك.

فهزّت رأسها بخوف ورضوخ.. فأشار إلى الحائط على يساره:

– بصي هنا.

نظرت هناء إلى الحائط الذي أشار إليه، فوجدت عليه صورة لأبنائها.. يصرخون في منزل الجيران والنيران منتشرة حولهم والجيران يحاولون أن يطفئوها بصعوبة شديدة.. فصرخت مفزوعة:

- ولادي.. ولادي.

فبكت أمام حامد وهي تترجاه بذعرٍ:

- أرجوك.. أرجوك..ولادي متإذهمش.. أرجوك هعمل أي حاجة تطلبوها مني.

نظر إليها حامد ثم نظر إلى الحائط.. فرأى النيران تنطفيء فجأةً بعد أن كادت تحرق الجميع .. ثم اختفت الصورة من على الحائط .. فصرخت به هناء ..

- أرجوك.. متإذيش ولادي.. أنا هعمل كل اللي إنت عايزه أرجوك.

تركها حامد فجأةً فسقطت على الأرض.. فوقف أمامها حامد وحدَّثها بعنف:

- قدامك حل واحد.. تتخلّي عن حاتم.. تروحي بكرة المستشفى وتطلعيه من هناك.. قولي إنك هتعالجيه بره مصر، وتطرديه وتطلعيه بره حياتك وتنسيه للأبد.

فصرخت به هناء:

- إنت بتقول إيه؟.. أتخلى عنه إزاي ده ابني؟

رفعها بيده ثانيةً وهو يحدثُها بغضبٍ:

– يا إما تنسي حاتم للأبد برضاكي.. يا إما.. هنموّت ولادك قدامك واحد واحد، ونفضل نعذّبك لحد ما تتمنى الموت، ومتطوليهوش وبرده هناخد حاتم.. الأمير سيسيل ما يطلبش حاجة ومتتنفذش .. فاهمه؟!.

نظرت إليه هناء قليلًا.. ثم هزَّت رأسها باكية:

– فاهمة؟!

تركها حامد ثم حدَّثها بنبرةٍ خافتةٍ:

– متخافيش على حاتم.. إنتِ شفتي إحنا نقدر نعمل إيه؟! الأمير هيعيّش حاتم في سعادة للأبد.. كل اللي نفسه فيه الأمير هينفذهوله، والأمير هيساعدكم تعيشوا للأبد مبسوطين..حاولت أن تستعطفه بكلامها:

– أرجوك سيبنا في حالنا.. إحنا معملنالكش حاجة يا سمو الأمير.. أرجوك إعطف عليَّ أنا وولادي..ضحك حامد بقوةٍ:

– إنتِ فاكره إني أنا الأمير.. أنا مجرد جندي من جنوده. إنتِ متعرفيش الأمير ممكن يعمل فيكي إنتِ، وعيلتك كلها إيه.. إنتِ متعرفيش إنه لو عنده الرغبة يدمر الدنيا دي كلها.. بإشارة من إيده هيدمرها في الحال.. آخر حاجة بقولهالك لمصلحتك.. اسمعي الكلام، ونفذي رغبه الأمير.. محدّش يقدر يقول للأمير لأ.

ثم تركها، واتجه إلى الحائط وضَرَبَ رأسه بالحائط بشدة أكثر من مرة وسط صراخ هناء، وبكائها.. لحظات، وسقط حامد على الأرض، والدماء تغطي وجهه، وملابسه.. وقفت هناء في منتصف الغرفة، وهي ترى محروس في وسط المائدة المحطّمة غارقًا في دمائه، وحامد بجوار الحائط تملأ الدماء وجهه، وملابسه.. إنهارت هناء، وسقطت على الأرض لا تدري ماذا تفعل؟ وكيف ستتصرف؟

الممرض يتأبط ذراع حاتم، وهو يسحبه من خلال ممرات المشفى الكبيرة، وحاتم مستسلمٌ له كليًّا.. عدة دقائق، ودلف بداخل مكتب الطبيب، وكانت سعادته لا توصف حينما رأى أمه جالسة على المكتب، فاقترب منها ليحتضنها فأبعدته عنها بيدها.. فنظر لها مندهشًا، ولكن ابتسامته لم تُمْحَ من على وجهه وهو يراها أمامه.. ظل الطبيب يحثُّها على التراجُع عن موقفها:

– يا مدام أنا عايزك تراجعي قرارك تاني.. العلاج هنا زي العلاج بالخارج بالظبط بنستخدم نفس التقنيات والأدوية

فابتسم حاتم ساخرًا.. فنظر إليه الطبيب، وتجاهله، واستكمل حديثه:

– حضرتك بس هتغرّمي نفسك على الفاضي.

هناء بحدةٍ :

- لو سمحت خلّص الإجراءات بسرعة.. أنا هاخده معايا، وأنا خارجه.

فرح حاتم بكلامها:

- بجد يا ماما.. هخرج من هنا.. هروّح معاكي بجد؟!

نظرت هناء إلى الأرض، وتحاشت النظر إلى حاتم الذي وقف يتراقص فرحًا لخروجه.. أنهى الطبيب إجراءات الخروج، وبالفعل خرج حاتم مع أمه التي حينما حاول الحديث معها تجاهلته، وبدأت تسبقه بخطواتها مبتعدة عنه.. شعور الاندهاش غالَبَ شُعور الفرح لديه، وبدأ ينادي عليها:

- ماما.. ماما.. استني.. إنتِ بتمدي ليه كده؟.. يا ماما؟

تجاهلته هناء حتى خرجو من باب المشفى.. ثم ركض وراءها وأمسكها من ملابسها:

- إنتِ مبترديش عليَّ ليه يا ماما؟

فصرخت به بشدة وهي تبكي:

- علشان إخواتك.. خيّروني ما بينك، وما بين إخواتك، وأنا مش عارفة أعمل إيه؟

حاتم متعجبًا:

– مين يا ماما اللي خيّروكي .. سيسيل .. هو جالكو؟!!!

هزّت رأسه بحزنٍ:

– أيوه.

– صدّقتيني دلوقتي؟!

نظرت إليه ثم حضنته، وهي تبكي:

– كل ده كان بيحصلّك، وأنا مش عارفه؟ استحملت كل ده لوحدك.. همّا هدّدوني بيك، وجوز خالتك في المستشفى، وإخواتك مرعوبين، والجيران عايزين يمشّونا من العمارة يا حاتم.. أنا مش عارفه أعمل إيه؟!

أبعدها حاتم عنه بيده:

– خلاص يا ماما.. مش هيسبوني، ويسيبوكو في حالنا.. أنا هامشي علشان خاطرك إنتِ، وإخواتي.

نظرت هناء له وانهارت من البكاء واحتضنته بشدة.. فسمعت صوتًا هامسًا في أذنها:

– ولادك تحت رحمتنا دلوقتي.. اختاري كويس.

بكت هناء بشدة، وهي تحتضن حاتم ثم وضعت شيئًا في جيبه .. ثم تركته سريعًا، وركضت بعيدًا عنه .. ظلّ حاتم يُراقبُها وهي تبتعد من أمامه في أسًى .. ثم نظر خلفه ومشى في طريقه لا يعلم له سبيلًا ..

***

الشَّماس

هائمًا على وجهه لا يدري أين يذهب؟ وأين يستقر؟.. حياته القديمة قد أصبحت من الماضي.. كيف سيعيش؟ وأين يسكن؟.. مَدَّ يدَه إلى جيبه، فوجد ظرفًا صغيرًا وضعت أمه بداخله مبلغًا نقديًّا كبيرًا.. ظل عقله يلتهب بمرارة، كيف لأمه أن تُضحّي به، وتتركه وحيدًا في مواجهة صعاب هذه الدنيا؟ إن ماقالته لها كان مجرد كلام، ولم يتوقّع أنها بالفعل سوف تتخلّى عنه، وتتركه..لكنه فكّر في إخوته، وأنها فعلت ذلك من أجل مصلحتهم.. وأن السبب في ذلك يرجع لسيسيل.. هذا الأمير البغيض، وأن كل ما يحدث له هو بسببه، ومن تدبيره، ولكن عدم ظهور سيسيل له أو محاولته الاتصال به بعد أن تركته أمه لشيءٌ غريب.. لماذا لا يساعدني؟ لا يُوجِّهُني إلى أين أذهب؟ وكيف أعيش؟.. ألم يرغب بذلك؟ أنا أحتاجُ مساعدته الآن، ولكني لن أطلبها منه.. فكلٌّ ما أنا به بسببه.. هذا ما استقرَّ عليه تفكيره، وهداه عقله له:

سائحًا في أنحاء القاهرة الكبيرة له مطلق الحرية أن يفعل ما يشاء، وأن يذهب أنّى يشاء.. دون تدخُّلٍ من أمه مثل السابق لتحديد مواعيد خَطِّ سيرِه اليومية، وطُرقها.. هذه الحرية التي كان يتوق إليها دائمًا، ولكنه كسائر البشر يبحث عن الحرية وحين ينالها لا يدري ماذا يفعل بها؟! .. نظر يتأمل شوارع القاهرة الكبيرة التي قلّما تمر بها سيارات الميكروباص البيضاء، وبعض سيارات الفولكس موديل الخمسينيات وخليط من سيارات البيجو 504 والفيات 128 التي صُنعت في تلك الفترة ثورة علمية في عالم السيارات، وبعض الأنواع الشهيرة الأخرى، والأتوبيس الأحمر الكبير الذي يكتظ براكبيه نظرًا لرخص سعر تذكرته..

لفت انتباهه الترماي الأزرق الذي يشبه القطار وهو يتحرك في وسط شوارع القاهرة ويحمل لافتةً مكتوبًا عليها عباسيه (1) أبو الريش.. فصعد إليه، وجلس يشاهِد مَعالِم المدينة من خلاله، فرأى قطعة أرضٍ كبيرة فارغة ومحاطة بسور صفيح ملون بالأزرق وعليه إعلانات كثيرة، شَدَّ انتباهه رسمة لزجاجة خضراء كبيرة ومكتوب عليها (سفن أب انطلق إلى عالم المرح وسفن أب)، وملصقات أخرى لبعض الأفلام المصرية، والأجنبية مثل ملصق لفيلم أجنبي أعجبه للغاية، الملصق مليءٌ بالطائرات الهليكوبتر والانفجارات ومكتوب عليه مارلين براندو.. روبين دوفال في فيلم نهاية العالم، حاليًا بسينما أوديون.. ملصق آخر عليه فريد شوقي وصلاح السعدني والممثلة بوسي اسمه الموظفون في الأرض، وآخر لمحمود عبد العزيز، وفريد

شوقي أيضًا.. يُسمَّى إعدام ميت، وآخر لأحمد زكي ويسرا وجميل راتب وصورة لطائرة تسقط اسمه البداية، جميعها تُعرَضُ بسينما بيجال.. عدة إعلانات لمنتجات أخرى تنوَّعت ما بين المبيدات الحشرية، والمشروبات الغازية، ثم صورة كبيرة للملصق فيلم يحمل اسم عادل إمام ويسرا وعزت العلايلي باسم (الإنس والجن).. فابتسم ساخرًا لرؤيته عادل إمام وهو يقف ويطلع عليهم بنظرات غاضبة من خلال الملصق ..

ترجَّل سريعًا من الترماي، وهو ينوي أن يعود لمشاهدة أحد تلك الأفلام.. قرّر أن يشاهد فيلم البداية لأحمد زكي، لكنه عندما اقترب من السينما وجد فيلمًا آخر لمحمود عبد العزيز ويحيى الفخراني اسمه الكيف.. فدخله، وشاهده باستمتاع شديد، وأخذ يُقَهْقِه كلما سمع محمود عبد العزيز وهو يطلق كلماته العجيبة مثل:

"الشكرامون طاااخ فى التراااولي- أنا اللي دوبت اللباري جووه الشباري بالدهلكة- ده أنا بدهبِزه و أدهرِزُه عشان يبرعش ويحنكش ويبقى أخِر طعطعااه".

أخذ يقهقه، ويضحك من كل قلبه،وحاول أن يعيد تلك الكلمات فلم يستطع ..

نجح فيلم الكيف بأن يُخرج حاتم من الحالة الحزينة التي كان بها.. فأخذ يجول بالنهار في شوارع القاهرة ويتفقّد المحلات الكبيرة مثل

عمر أفندي، وصيدناوي، وليلًا يذهب ليشاهد الأفلام بالسينما، وبالأخص فيلم "الكيف" الذي دخله أكثر من مرة.. لم يحرم نفسه شيئًا.. جميع ما أراد القيام به فعله .. جميع ما أراد اقتناءه اقتناه، وبالطبع نفدت النقود التي معه في أيام قليلة، وبدأ يُحرم من المتع القليلة التي كان يمارسها، وبدأ ينام في الحدائق العامة، والمنازل المهجورة، والمساجد، ونهارًا كان يجوب الشوارع بلا هدى أو سبيل.. رأى بائع جرائد يفترش الأرض، ويضع المجلات، والمجلدات أمامه.. أخذه الفضول، وأخذ منه آخر ما يملك من نقود في سبيل عددين من السلسلة الجديدة التي سمع أنها صدرت حديثًا لكاتب جديد يُدعى نبيل فاروق، والسلسلة تحمل اسم "رجل المستحيل".. اشترى أول عددين صدرا، وهما "الاختباء الغامض، سباق الموت"، ولم ينس أن يقتني 5 أعداد جديدة من مجلة ميكي المحببة لديه، وهام في بحر العشق يلتهم كلماته، وصور ما يقتنيه من مجلات.. حتى انتهت جميعها، وبدأ التهام معدته يصرفه عن عقله.. يريد أن يأكل أي شيء الآن، ولا يوجد معه أي نقود.. لم يتعوَّد أن يحتاط للنقود أو أن يحرص عليها أو أن يقتنيها.. وظيفته كانت أن يصرفها فقط.. كانت تعجبه حياة الحرية التي كان يمارسها.. ينام في أي مكان، يأكل أي يشيء، يذهب إلى أي مكان يريد.. لم يكن يعلم أن تلك حياة المشردين.. وبدأ يدرك الآن أنه أصبح مُشردٌ بالفعل.. وعلم لماذا لم يتوجَّه الجميع للعيش بحرية ليعيشوا معيشة المشردين؟ اتّسخت ملابسه الجديدة التي كان

اشتراها، وأصبحت رائحته قذرة، وحذاؤه بدأ يبلى من كثرة المشي، والتجوال بدأ يضيق من وضعه.. أيعود إلى أمه وإخوته، ويعيش معهم مرة أخرى؟ هل سيسمح سيسيل بذلك؟.. لن يرضى بالتأكيد.. إذًا لماذا لم يتَّصِل به أو يظهر له مثل السابق؟.. أيريده أن يعيش هكذا للأبد؟ لغز يُحيِّر عاقل حاتم الصغير الذي لم يجد له مبررًا حتى الآن.. لفت انتباهه شيءٌ غريب، أول مرة يراه بحياته.. رأى بعض الشباب يحملون صورة للسيدة مريم العذراء، ويلفّون بها الشوارع ووراءهم جمع غفير من النساء والرجال، والشيوخ يتبعونهم وهم يُهلّلون، ويصيحون، والنساء تزغرد بصوتٍ صاخب.. لم يفهم المشهد الذي رآه، ولكنه فرح لفرح هؤلاء الأشخاص، فقرّر أن يتبعهم، ويرى ما يفعلونه، ومشى وسط هذه الجموع، وشاهد الناس يخرجون من منازلهم، وشرفاتهم وهم يتتبعونهم ويضحكون ويلوحون لهم بأيديهم ووجد الجموع يغنون تارة بالعربية وتارة بلغة أخرى لم يفهمها، ولكنه أخذ يُردِّدُ معهم كلامهم الذي بالعربية، وأخذ يشدو بكلمات مثل: "يا عدرا يا أمي والدنيا مش همي"، و "بركاتك يا أم النور"، "جاي ليك يا عدرا" ظلّوا يجولون بالشوارع وهم يحملون صورًا للعذراء وللمسيح حتى حَلَّ المساء، وما زال يتبعهم حاتم ثم اتجهوا إلى منطقةٍ بها حشد كبير للغاية ومليء بالناس، ويظهر بالأعلى كنيسة كبيرة معلق فوقها صليب كبير.

توقّف حاتم عن متابعتهم وبدأ يجول في هذا المكان الكبير المليء بحشد البشر من كل مكان، ويملأ الصخب والضجيج في كل مكان، أول شيء لفت انتباهه، وجود ملاهي صغيرة يلهو بها الأطفال في مثل سنه، وأصغر قليلًا عليها رسومات مرسومة باليد لشخصيات ميكي، وبطوط، وغيرها من الشخصيات الكرتونية، والكثير من الخيم القماشية الكبيرة يجلس بها بعض الشباب، وكبار السن يبيعون بها جميع الأنواع من المأكولات، والمشروبات، وصورًا للمسيح، وللسيدة مريم، وبعض القديسين، ورجال الدين المشهورين في المسيحية، وتعجّب بشدة عندما رأى بعض البائعين وهم يبيعون السمسمية، والحمصية، والحلوى الخاصة بالمولد النبوي الشريف.. فتوقّف متعجّبًا أمامه. فأشار إليه البائع بأن يأتِ إليه وسوف يبيع له الحلوى.. تهلّلَ وجه حاتم، وذهب مُسرعًا، لكنه تذكّر أنه لا يحمل نقودًا فهزَّ رأسه بالرفض، وابتسم وهو يشكر البائع، وينصرف، واكتفى بأن يشاهد من بعيد الزبائن وهم يشترون الحلوى.. شعر بعدة نكزات في كتفه فنظر خلفه مسرعًا فوجد رجلًا في أواخر الأربعينيات يرتدي نظارة طبية على وجهه، ولونه أبيض، وله ملامح وسيمة، ويرتدي قميصًا أبيض به خطوط زرقاء بالطول، وبنطال أسود واسع من أسفل عند قدميه، يحمل بعضًا من قطع السمسمية بيده اليسرى، ويربط يده اليمنى برباط شاش طبي، ويُقدِّم إحدى قطع الحلوى لحاتم وهو يبتسم.. شكره حاتم، وهز رأسَه بالرفض.. فابتسم له الرجل وهو ما زال يمسك قطعة الحلوى بيده:

- دي مش ليك إمسكهالي علشان إيدي بتوجعني وعايز أجيب حاجة من الشنطة!.

شعر حاتم بالإحراج فتأسّف وأمسك الحلوى بيده مسرعًا.. فأخرج الرجل من جيبه قطعة مغلّفة من الحلوى، وفَكَّ كيسها بأسنانه، وبدأ يتناولها وهو يبتسم لحاتم:

- خلاص.. معايا واحدة تانيه اللي معاك من نصيبك.

رفض حاتم بشدة وحاول أن يعيدها له.. فرفض الرجل وأصرَّ أن يأكلها..

- هاكلها إزاي.. أنا ماسك في إيدي وحدة أهه، وإيدي التانيه متعوّرة.. أرميها.. مش حرام؟.. هترمي نعمة ربنا؟!

فهزَّ حاتم رأسه بخجلٍ على مضض، وبدأ يتناول قطعة الحلوى..

فراقبه الرجل، وهو يبتسم:

- إنت اسمك إيه يا حبيبي؟

- اسمي حاتم.

- إنت لوحدك يا حاتم ولا معاك حد هنا؟

نظر له لحظات..

- لأ معايا حد.

فابتسم له الرجل..

– إيه رأيك في المكان هنا؟

فنظر حاتم حوله بتعجب.

هو ده فرح ولا إيه؟ إحنا فين هنا؟

جاوبه بسرعة..

– إحنا هنا في مولد العدراء.. بيتعمل كل سنة قدام الكنيسة دي.

وأشار إلى الكنيسة التي تبعد عنه.

بتعجب شديد..

– هو المسيحيين عندهم موالد زينا؟

فجاوبه الرجل مسرعًا..

– أمال أيه!..إنت أول مرة تعرف.. لينا موالد، وسبوع، وأفراح، وكل حاجه.

بدا الاندهاش على وجه حاتم .

– إنت أول مرة بقى تحضر مولد لمسيحيين يا عم حاتم صح..؟

حاتم سريعًا

– أنا عمري ما حضرت موالد أصلًا.

فسحبه الرجل من كتفه وتوجَّه به إلى منتصف المولد..

- خلاص بقى إنت ضيفنا في المولد النهاردة.. أي حاجة نفسك فيها خُدها، أي لعبة تشدّك إلعبها.

فهز رأسه وهو يبتسم ..

- لا شكرًا.. مش عايز.

فابتسمَ له الرَّجلُ ..

- لا مفيش حاجة هنا اسمها مش عايز.. عندنا في المولد أي حد يجي أول مرة يجرب كل حاجة هنا مجانًا.

نظر حاتم إليه متعجبًا.

- بجد والله؟!

الرجل مُبتسمًا:

- أمال إيه!.. تعالى شوف بنفسك.. بتعرف تنشّن؟

هز حاتم رأسه بالنفي.

سحبه الرجل من كتفه وأوقفه أمام رجل يضع منضدة أمامه، وبندقية، وبعض الصور، والهدايا التذكارية، وبعض الصبية يصوِّبون على أهداف.. اتجه الرجل إلى البائع وحيّاه..

- إزيك يا عم جرجس؟

هلّل جرجس عندما رآه..

– إزيك يا دكتور فوزي؟.. أنا قلت إنك مش هتيجي السنة دي.. أخبار دراعك إيه؟

نظر فوزي إلى ذراعه المربوطة وابتسم..

– نحمد ربنا.. كويس إنها جت على كده.. المهم عايزين نعلّم حاتم النشان.. عايزينه يبقى بريمو ده ضيفنا النهارده.

– تؤمرني يا دكتور.. تعالى يا عم حاتم.. إمسك البندقية على كتفك كده، وتنشن على البومبايه دي كده وتضرب يلاّ.

أخذ حاتم البندقية، وبدأ يحاول أن يصيب الهدف أكثر من مرة ثم رأى الصبية بجواره ينظرون له بضيقٍ يريدونه أن ينتهي.. فوضع البندقية وشكر البائع، وانصرف مع فوزي.

– تعالى بقى يا عم حاتم لما ناكل أنا وإنت حاجة خفيفة كده علشان نعرف نلف في المولد.

– شكرًا.. شكرًا. أنا لسه واكل.

– مانا كمان لسه واكل.. إيه يعني ناكل تاني.. يا عم تعالى أنا ما صدقت حد يجي يفتح نفسي.

فتوجها إلى بائع مأكولات شعبية بالمولد، وطلب له بعض الشطائر فألهاها حاتم بسرعة شديدة.. نظرًا لجوعه فترةً طويلةً فلاحظ ذلك فوزي، فطلب شطائر أخرى وأعطى حاتم إياها الذي رفضها ثم تناولها على مَضَضٍ بعد أن أصر فوزي .. انتهى من طعامه فطلب منه فوزي

أن يذهب ويشتري له بعض العصير فأعطاه بعض الأموال، فذهب حاتم للبائع، واشتري العصير، فأخرج فوزي نقوده، وأعطاها لبائع الشطائر بسرعة حتي لا يراه حاتم .. ثم أخذ العصير من يد حاتم وبدأ يرتشف منه، وطلب إلى حاتم أن يشاركه العصير وبدآ يترددان على الباعة فردًا فردًا.. ففوجيء حاتم بأن معظمهم يعرف فوزي وجميعهم يسألون عن إصابته.. فسأله حاتم..

– إنت دكتور؟

– آه أنا دكتور جرّاح.. أو كنت دكتور جرّاح.. بس خلاص بقى.

– ليه.. إيه اللي حصل؟

فرفع فوزي يده المصابة،وهو يتألّم.. إيدي اليمين اتصابت، وحصل تلف في الأوتار.. فصعب إني أرجع أمارس الطب تاني.

– طيب ودي مالهاش علاج؟ مينفعش ترجع إيدك تاني زي ما كانت؟

فوزي هز رأسه بأسًى:

– صعب يا حاتم.. صعب الأمل ضعيف.. لو عرفت أمسك بيها كوباية تاني يبقى أحمد ربنا .!

فجأةً أوقفته سيدةٌ تحمل طفلتها الصغيرة على كتفها، وقَبّلت يده وظلّت تشكره:

– بشكرك يا سيدنا.. لولا إنك شفيت بنتي كانت مات.

فنظر لها فوزي وهو يبتسم:

– مش أنا اللي شفيت بنتك، ولكن إيمانك هو اللي شفاها.. أنا كنت مجرد أداة بنفذ حكمة يسوع.

هلّل وجه السيدة له وترجته بشدة:

– صلي لبنتي يا سيدنا.. صلي لها إنت معروف عنك إن بركتك وصلاتك مسموعة من الله.

ابتسم لها فوزي..

– بمشيئة يسوع هنصلي كلنا مع بعض في الكنيسة النهارده.

تركته السيدة، وهي تشكره وانصرفت ثم تكرّر ذلك الأمر مع عدد كبير من الأشخاص الذين ظلوا يلتفون حوله ويطلبون إليه بركاته، وصلاته.. ثم انصرفوا من حوله فتعجَّب حاتم من فعلهم..

– هو إنت عالجت كل دوول يا دكتور؟

– لأ طبعًا.. أنا معرفش معظمهم، وأول مره أشوف ناس كتير فيهم.

– أمال عمالين يطلبو منك تدعيلهم ليه؟ هو إنت شيخ؟.. قصدي قسيس؟

ضحك فوزي بشدة ..

– لأ .. لأ .. أنا مش شيخ ولا قسيس .. أنا مجرد شمّاس.

نظر حاتم له مندهشًا..

– شمّاس؟ إيه شمّاس ده؟ أول مره أسمع عنه!.

هرش حاتم في رأسه ..

– امم.. ده الشماس ده موضوع كبير قوي.. بس يعني تقدر تقول إني خادم في الكنيسة بساعد الكهنة في عملهم في.. زي.. زي.. خادم المسجد عندكم تقريبًا.. مش بيساعد الشيخ .. أهو أنا يعني .. قريب من كده شويه.

اقترب فوزي وحاتم من بعض الشباب الذين يقفون أمام شخص يحمل ماكينة كهربائية كبيرة، ويرسم الوشوم والنقوش والقديسين على أجساد بعض الشباب الصغير. فنهرهم فوزي بشدة..

– مش قولتلكم يا شباب إن غلط إنكم ترسمو وشوم على جسمك علشان لو حد عيان هتتعدوا كلكم والآلات دي مش متعقمة.

نظر إليه مَنْ يرسم الوشوم ..

– في إيه يا أستاذنا؟.. الشباب عايزه تتبرك بصور القديسين، والصلبان.. وأنا واخد موافقة من أبونا في الكنيسة.

فوزي بضيق:

– منع الكتاب المقدس الوشم على الجسد، حيث ذكر الكتاب المقدس ذلك في اللاويين ١٩:٢٨ الآية التي تقول:

«لا تجعلوا فيكم علامة وشم»، وربنا إدى الوصية دي بس لبني اسرائيل ليميزهم عن الشعوب المجاورة .."الذين وشموا أجسادهم بأسماء آلهتهم ورموزها. (تثنية ١٤ : ٢).

واحنا مش مطالبين كشعب الكنيسة إن نبقى ملزمين بإطاعة الشريعة اللي ربنا إداها للإسرائيليين."

فصرخ به البائع :

– امشي من هنا يا عم .. امشي من هنا بدل ما أقل ادبي عليك.

تدخّل بعض المارة وقاموا بإبعاد فوزي عن البائع الذي شعر بالغضب.. فحاول أحد الأشخاص أن يهدئه ..

– انت زعلان ليه بس يا دكتور .. هو مش قالك الكنيسة موافقه على اللي بيعمله؟

فوزي بغضب:

– ما هو الكنيسة عايزه تزوّد ميزانتها وخلاص ومش مهم صحة الشباب الصغير ده.. أنا بتكلم بصفتي طبيب.. أي تجمع كبير لناس في مكان زي كده زي الموالد عامةً بيبقى مكان لتكاثر البكتريا والفيروسات.

الرجل وهو يبتسم له:

- يا دكتور .. كل سنة وإنت طيب ده احتفال بنستناه من السنة للسنة علشان نرزق .. وأهي فرصة العيال والستات يخرجو ويتفسحو.. صلي على النبي إنت كده واهدا..

- عليه الصلاة والسلام .. هدينا يا عم حسن.

ثم نظر إلى حاتم وابتسم ..

- شفت يا عم حاتم .. أهو عمك حسن ده كل سنة يجي هنا يبيع البسبوسة بتاعته للمسيحين ويمشي.

ضحك حسن..

- لأ طبعًا يا دكتور .. أنا باجي هنا أنا وعيالي علشان ناخد بركة السيدة العذراء .. دي مش بتاعتكم إنتم وبس .. دي بتاعتنا كلنا .. وإنت اهدا بقى مش كل سنة تعملك مشكلة مع حد من الكنيسة وتزعله منك.

فوزي مبتسمًا ..

- هما كده كده زعلانين مني على طول .. متحطش في دماغك.. هاتلي بقى أنا، وحاتم بسبوسة بالقشطة بقى من عندك كده من الحلوه مش من السَكّه اللي بتبعها للناس.

- عيني يا دكتور.. أحلى بسبوسة ليك إنت وسي حاتم.

حاتم نظر له وابتسم ..

أحد القساوسة رأى فوزي فذهب إليه سريعًا واحتضنه وأخذا يتحدثان معًا.. استغل حاتم تلك اللحظة وقترب من حسن وحدثه:

– بقولك إيه يا عم حسن.. هو دكتور فوزي بيحاسبك على الحاجات اللي بياخدها دي؟!

– طبعًا بيحاسبني أمال إحنا شغالين لله.. محنا واقفين علشان نُرزق من فوزي وغيره.

– يعني الحاجات اللي هنا كلها مش على حساب المولد؟

حسن نظر له مندهشًا ..

– إيه يا بني الكلام ده؟ حساب مولد إيه؟ آااه.. هو عملها فيك؟ أصل دكتور فوزي ده راجل غني وربنا رزقه بيجيب كل سنة الولاد اليتيمة وبتوع الشوارع بيأكّلهم ويفرّحهم.

شعر حاتم بكرامته تتمزق وغضب بشدة وجرى مسرعًا من أمام حسن الذي تعجَّب من فعله.. انتهى سريعًا فوزي من حديثه مع القسيس وعاد إلى حسين بائع البسبوسة، فلم يرَ حاتم، فسأله عنه فأخبره بأنه ركض مُسرعًا، وأخبره بما قال له .. فأخذ منه البسبوسة وتركه ليبحث عن حاتم الذي وجده يجلس وحيدًا حزينًا.. فاقترب منه، ووضع أمامه البسبوسة، وحدّثه بابتسامة..

– كده برضو في حد يسيب صحابه ويمشي كده من غير ما يقول حاجة؟!

فنظر له حاتم بضيق:

– إنت ضحكت عليَّ .. لو سمحت قول لي تمن اللي إنت صرفته كام وأنا هدفعهملك.

– ماشي.. أنا موافق.. بس الأول ناكل مع بعض بقى البسبوسة الجامدة دي، ومتقلقش هضيف حسابها مع اللي قبيلهم.

نظر إليه حاتم ولم يتحدث ..

– يلا بقى يا حاتم ..سمّي ومد إيدك.

وأعطاه قطعةً التهمها بتردُّدٍ.. فابتسم له فوزي وحدثه بجديةٍ :

– إنت سيبت البيت بتاعك من فترة قليلة يا حاتم صح؟

نظر حاتم له مندهشًا .. ثم نظر بوجهه في الأرض ..

– إنت شكلك ابن ناس ولسه متبهدلتش .. مهما كان السبب اللي خلاك تسيب البيت علشانه .. ميستهلش ..إنت متعرفش والدك ووالدتك قلقانين عليك قد إيه؟ .. اسألني أنا"

حاتم يبتسم بسخرية ..

- قلقانين عليَّ؟. أنا أبويا ساب البيت من 3 سنين ومعرفش عنه حاجة، وأمي دخّلتني مستشفى المجانين، وبعد كده طردتني في الشارع.

ظهرت الصدمة على وجه فوزي وهو يسمع كلام حاتم.. حاول أن يتحدث إليه عدة مرات .. لكن لسانه وقف عن الحديث ..

- أه.. أص.. إمم .

أدرك حاتم حيرته فضحك بشدة ..

- مكنتش متوقع إني مجنون صح؟

نظر فوزي إليه:

- لأ طبعًا .. إنت مش مجنون .. أو مجنون بس زي الناس كلها .. علميًّا كل البشر فيهم نسبة من الجنون.. فيه المجنون اللي بيحب نفسه، والمجنون اللي بيحب الشهوات، والمعاصي، والمجنون اللي بيحب المال.. كلنا مجانين في حاجة معينة .. مجانين بشرطة.

حاتم ابتسم.. فاقترب منه فوزي:

- قولي بقى يا حاتم.. مامتك دخّلتك المستشفى ليه.. أكيد في سبب ..

نظر حاتم إلى الأرض بأسًى:

- مش هتصدقني لو قلتلك!.

- قول .. متقلقش.

تنهّد حاتم بشدة.. ثم بدأ يسرد ما حدث له بشكل سريع لفوزي.. الذي بدت على وجهه الدهشة، والحيرة.. من كلام حاتم .. ثم هرش في رقبته لحظات.. فابتسم حاتم له..

- مش قلتلك مش هتصدّقني.

نظر له فوزي ..

- مش حكاية مش مصدّقك.. أنا شفت حالات زي كده عندنا في الكنيسة بس عمرها موصلت للدرجة اللي إنتَ حكيت عليها كده.

ظل يداعب ذقنه بيده، وهو ينظر إلى الأرض، وأخذ حاتم يراقب ملامحه لعله يستشف منه هل صَدَّقه أم لا؟.. فلم يستطع أن يتفرس وجهه.. نظر له فوزي فجأةً..

- بس إنت من بعد ما خرجت من المستشفى.. الأمير.. اللي اسمه إيه ده؟

جاوبه حاتم سريعًا:

- سيسبيل.

– آه، الأمير سيسيل ده مشفتوش من ساعة لما خرجت من المستشفى .. صح كده؟

حاتم..

– آه.. من ساعتها مبيظهرليش خالص.

فنظر فوزي أمامه..

– تمام .. تمام .. كده كويس قوي.

ثم نظر إلى حاتم :

– إنت طبعًا في مدرسة يا حاتم..

– آه .. في 3 إعدادي.

ابتسم فوزي له:

– بجد.. إنت كلامك وعقلك.. يبان إن إنت أكبر من كده.. طبعًا ومعندكش مكان تبات فيه.. كنت بتنام فين الأيام اللي فاتت دي؟

– في أي حتة .. أي مكان أعرف أنام فيه.

فوزي مدّ يده لحاتم ليصافحه..

– متعرّفناش رسمي.. أنا اسمي ثلاثي فوزي بيشوي غطاس، وإنت اسمك إيه بالكامل؟

- حاتم محمود إبراهيم .

ردّد فوزي اسمه أكثر من مرة..اسم حلو.. حاتم محمود إبراهيم .. حاتم محمود إبراهيم.. أنا متهيّألي عدًّا عليَّ الاسم ده قبل كده.. إنت كنت ساكن فين يا حاتم؟"

- كنت ساكن في الترهة.

- آه في الترهة.. لأ يبقى مش إنت.. هو كان ساكن في مكان تاني.. قولي بقى إنت أكبر إخواتك ولا في أكبر منك؟

- لأ أنا التاني.. أختي الكبيرة أميرة، وفي حنان، وحسام أصغر مني.

- تمام.. تمام.. أميرة، وحسام،وحنان.. اسمهم سهل، وميتنسيش.. تعالى نروح مع بعض بقي الكنيسة نحضر الاحتفال جوه.

نظر له حاتم متعجبًا:

- هو ينفع أحضر الاحتفال جوه الكنيسة؟

فسحبه فوزي من يده وتأبط ذراعه..

- يوووه.. ده إنت هتلاقي نص اللي جوه مسلمين أصلًا.. تعالى يلاّ.

توجَّه حاتم، وفوزي إلى داخل كنيسة العذراء مريم الموجودة بالزيتون، ووجد حاتم أمامها حشدًا كبيرًا وبعض الرجال يذبحون الخِراف ويحملون الشموع وصور المسيح والسيدة مريم ..فسأله حاتم متعجبًا:

– إنتم بتدبحو خِرفان ليه؟

– علشان ندّي جزء منها للكنيسة توزّعه على الفقراء، والغلابة، والباقي يوزعها على أهل بيته وجيرانه.

– زي عندنا في العيد الكبير.

– بالظبط .. زي العيد الكبير، والشموع اللي هناك دي.. دي نذور بيقدمها المسيحيين، والمسلمين علشان ربنا يستجيب لصلاتهم، ودي هتلاقيها عندك بردو في الحسين والأولياء والحاجات دي.

– طيب وفعلًا الشموع دي بتخلي ربنا يتقبل الدعاء والصلاة؟

– ربنا اللي خلق الدنيا دي كلها يا حاتم .. هيستنى مننا شوية شمع ونذر نوفيه علشان يستجيب لولاده .. ده كله كلام مش حقيقي ومش مقتنع بيه .. بس في غيري مقتنع بيه.

نظر حاتم له مبتمسًا:

– أنا مقتنع بكلامك.

ابتسم له فوزي:

- تمام بقينا اتنين مقتنعين أهه .. عقبال الباقي .. هههههه.

دخلوا من باب الكنيسة التي أصبحت مزدحمة للغاية، وممتلئة عن آخرها .. نظر حاتم بتعجُّبٍ لأنه لأول مرة بحياته يرى كنيسة حقيقية من الداخل.. مقاعد خشبية كبيرة على هيئة أربعة صفوف ونجفة كبيرة للغاية معلقة في وسط سقف الكنيسة وبجوارها 8 نجفاتٍ أصغر قليلًا منها معلقة بسقف الكنيسة المُغطى بصورةٍ كبيرة لأطفال مجنحين يمسكون بيد المسيح في السماء وصليب كبير عليه تمثال المسيح وهو مصلوب، وبالخلف عدد من القساوسة يرتدون ملابس بيضاء موشومة بصلبان ذهبية، وأحدهم يحمل صليبًا ذهبيًّا كبيرًا بيده اليُمنى ويضع تاجًا على رأسه.. ارتدى فوزي فوق ملابسه ملابس بيضاء مثل الجلباب، ووضع وشاحًا أحمر طويلًا على كتفه اليُسرى وربطه على وسطه بشكل جيد وبديع، فسأله حاتم عن اسم هذه الملابس فضحك وهو يشير إلى لبسه الأبيض:

- دي اسمها التونية.

ثم أشار إلى الوشاح الأحمر:

- وده اسمه بطرشيل وده لبس الشماسين بيلبسوه على طول بس ساعات بيتغير في بعض التفاصيل بس.

ثم ترك حاتم في وسط الجموع، وبدأ بالطقوس وقِراءة نصوص من الإنجيل وبعض الترنيمات الجميلة .. أحيانًا يتحدثون بالعربية وأحيانًا

بالقبطية..مذهول بالجوِّ الجديد الذي رآه، وبالتفاصيل التي لم يكن يعلم عنها شيئًا أو تشغل تفكيره .. انتقل إليه شعور الفرح والسرور الذي كان يملأ الجو من حوله، فينثر على وجوه الجميع الابتسامات والضحكات الصافية الجميلة في لحظات اختُطِفت من الزمن بهمومه وصعابه..السعادة لم تكن تفرق بين مسلم أو مسيحي..الجميع يحتفل.. يغني .. يأكل ويركض .. الصغير والكبير .. الغني والفقير .. توقف العالم عن قواعده المملة وإملاءاته المجحفة عدة لحظات.. مرت كالأعوام.. في ذاكرة جميع الحاضرين.. هذا الحدث اليوم إن دل على شيءٍ .. فإنما يدلُّ على أن العالم ليس هو ما يفرض شروطه علينا.. ولكننا نستطع أن نجعله يخضع لنا.. إن تكاتفنا وتجمعنا.. وأردنا بصدقٍ أن نكون سُعداء ..

***

الآلام

ظَلَّت الاحتفالية حتى صباح اليوم التالي.. ثم بدأ الجميع بالانصراف لشعورهم بالإرهاق والحاجة إلى الراحة.. وبالطبع حاتم كان مثلهم جميعًا.. إن لم يكن أكثر منهم .. ظلّ يترنَّحُ من الشعور بالنعاس، ولاحَظَ فوزي ذلك فعرض عليه أن يمكُثَ عنده بالمنزل، ولم يتردد حاتم لحظةً في قبول تلك الدعوة.. وظل نائمًا حتى نهاية اليوم .. ليستيقظ في غرفة غريبة مليئة بلعب الأطفال ورسوماتهم، وبها سريران ينام هو على أحدهما..ويوجد صورة كبيرة للعذراء وهي تحمل المسيح على يديها، وبعض الصُّلبان الصغيرة المعلقة على الحائط .. خرج حاتم من الغرفة فوجد فوزي يجلس بهدوءٍ يُشاهِدُ نشرة الأخبار على التلفاز.. وهبَّ واقفًا عندما رآه وهو يبتسم له ..

– أهلًا بالبطل.. إيه نمت كويس؟

- آه الحمد لله.. كنت تعبان قوي.

- آه شكلك كنت مُرهق فعلًا .. بقلك إيه .. خش خدلك دش في الحمام .. وغير هدومك جبتلك طقمين .. بس على الله مايكونوش كُبار عليك.. الحمام علي إيدك اليمين.

شعر بالخجل وهو ينظر إلى ملابسه المتسخة وبها بعض التمزُّق .. فذهب جهة الحمام بصمتٍ .. انتهى من حمَّامه سريعًا وارتدى الملابس التي كانت مناسبة له، وخرج مُسرعًا وهو يشعر بالسُّرور.. لارتدائه ملابس جديدة.. وتوجَّهَ إلى فوزي مُبتسمًا:

- أنا بشكر حضرتك يا دكتور علشان إنت ساعدتني.. قولي بقي دفعت فلوس قد إيه علشان إن شاء الله أسددهم لك؟

- ماشي.. ماشي.. بس إنت مستعجل ليه.. لسه شويه مش يمكن تحتاج حاجة تاني.. وبعدين الحساب يجمع.. ثم إنت معاك فلوس دلوقتي؟

نظر حاتم إلى الأرض بخجلٍ:

- لأ.. مش معايا .. بس انا هاشتغل واسددهم لك كلهم.

- طيب عقبال لما تشتغل هاتعيش فين؟، وهتاكل منين؟

نظر إليه حاتم ولم يستطيعُ أن يردَّ عليه ..

– اصبر شويه معايا هنا، وإن شاء الله هنوصل لحل نقدر نساعدك بيه.

فجأةً رنَّ جرس الباب

– إستنى كده أشوف مين.

توجَّه إلى الباب وفتحه فيجد أمامه شخصًا في نفس عمرِه فرحَّبُ به بشدة:

– أهلًا .. أهلًا.. يا جو .. اتفضل.

دخل جوزيف من الباب ونظر إلى حاتم:

– هو ده حاتم يا فوزي؟

ابتسم فوزي لحاتم ..

– آه.. هو .. تعالى سلم على عمك جوزيف يا حاتم.

اتجه حاتم إليه وصافحه بابتسامةٍ.. ثم جلس جوزيف وفوزي على الأريكة في غرفة المعيشة يتحدثان ..

– لسه جاي من المشوار اللي قولتلي عليه .

فابتسم فوزي ..

– طيب إيه؟.. احكيلي.

فنظر جوزيف إلى حاتم.. فنظر فوزي إلى حاتم هو الآخر ..

- معلش يا حاتم ممكن تستنانا جوه شويه؟

- آه طبعًا .. عن إذنكم.

دخل حاتم إلى الغرفة، وهو يشعر بالخجل.

فوزي بلهفة:

- إيه طلع العنوان مظبوط؟

- آه العنوان لقّيت عليه شويه علشان إنت مدهونيش بالتفصيل بس الاسم وبقيت البيانات اللي إدهالي صح.. الولد طلع فعلًا مابيكدبش .. عملت إني بسأل على شقة في العمارة فلقيت الشقة اللي كان ساكن فيها الولد وعائلته فاضيّة ..فسألت الجيران قالولي .. فعلًا إن أمه دخلته مستشفى المجانين، وإن في مشاكل ما بينها وما بين جوزها، وانهم قعدو يسمعو صريخ، وحاجات غريبة بتحصل في العمارة بسببهم، وانهم اشتكو لصاحب العمارة فطردهم من الشقة.. ومحدش عارف قاعدين فين دلوقتي.

- طيب يعني في حاجات فعلًا ظهرت للولد ولا تهيؤات وهو مريض؟

- ماقدرش أحدد.. في جيران كانو مصدقين، وفي ناس منهم بتقول إن العائلة دي مش طبيعية وهما اللي كانو بيعملو كده.. بدليل إن الأم دخّلت ابنها المستشفى.

اعتدل فوزي في جلسته وهو يشعر بالضيق ..

– ده أنا كنت ناوي أخليه يرجع لأهله تاني وأحاول أساعدهم في حل المشاكل اللي مابينهم لو في مشاكل.

– منتا عارف يا فوزي مش كل الأطفال اللي كنت بتساعدهم يرجعو لأهلهم.. بيعيشوا كويس .. كانو بيهربو تاني من أهاليهم، وفي الآخر كنا بنلجأ إن احنا نخليهم تحت رعاية الكنيسة.. لكن حالة حاتم مختلفة.. أول حاجة إنه كبير.. تاني حاجة إنه مسلم.. مش هينفع نحطه تحت رعاية الكنيسة هتحصل مشاكل كتير إحنا في غنى عنها.. أنا شايف إن أسلم حل نرجّعه المستشفى تاني يكمل علاجه هناك.

– لا يا جو.. الولد شكله، وطريقة كلامه مش واحد مجنون.. حتى لو كان مجنون، واتعالج مش معناه إنه إحنا منساعدوش حتى لو مسلم، ولنا هذه الوصية منه : أن من يحب الله يحب أخاه أيضًا.يوحنا الأولى 4 : 21 ، "طهروا نفوسكم في طاعة الحق بالروح للمحبة الأخوية العديمة الرياء، فأحبوا بعضكم بعضًا من قلب طاهر بشدة". بطرس الأولى 1 : 22 ..

– أنا ناوي أساعد الولد ده .. بأي طريقة.

– طيب والمشاكل اللي بينك، وبين مراتك، والمشاكل التانية اللي كل شويه عمال تحط نفسك فيها.. إنت ناقص مشكلة جديدة على المشاكل دي كلها؟!

"فِي سِتِّ شَدَائِدَ يُنَجِّيكَ، وَفِي سَبْعٍ لاَ يَمَسُّكَ سُوء."

المزامير ٩: ٩

"وَيَكُونُ الرَّبُّ مَلْجَأً لِلْمُنْسَحِقِ. مَلْجَأً فِي أَزْمِنَةِ الضِّيق."

المزامير ١٣٨: ٧

يقف جوزيف من مكانه وهو يتنهد ..

– عمومًا.. إنت حر يا فوزي.. أنا قمت بمهمتي زي مانت طلبت مني.. قضيت نفسي اليوم كله علشان خطرك.

مُبتسمًا:

– أنا بشكرك جدًّا ياجو .. معلش عطلتك يا حبيبي ..

– ولا يهمك يا فوزي.

ثم صافحه واتجه إلى الباب منصرفًا ورافقه فوزي مُودِّعًا..

– مع السلامة ياجو.. سلّملي على ماري والأولاد.

أغلق الباب، وعاد لغرفة المعيشة ليجد حاتم يقف أمامه وعلى ملامحه الحزن ..

– أنا سمعت كلامكم من جوه ..

نظر فوزي له بأسفٍ:

– إنت سمعت .. شكل كان صوتنا عالي..

– أنا بشكرك إنك عايز تساعدني، وترجّعني لأهلي.. بس أحب أقولك إن أمي لو كانت بتحبني مكنتش سابتني بالساهل .. مكنتش ضحت بي كده .. وسابتني في الشارع ومدورتش عليَّ ..

اقترب فوزي منه ونظر له..

– يا حاتم.. إنت لسه شاب صغير.. عالم الكبار ده.. عالم معقّد جدًّا.. مفيهوش أبيض واسود زي منتا فاكر.. عمل كده يبقى بيحبني.. عمل كده يبقي مابيحبنيش.. أكيد في أسباب قويه خلّت والدتك تعمل معاك اللي عملته ده.

– إنت ممكن تتخلى عن ولادك؟

ابتسم فوزي بحزن ..

– أنا للأسف معنديش أولاد .. ربنا له حكمة في إني مبخلفش.

نظر حاتم إليه وشعر بالاضطراب من قوله .. فابتسم له فوزي ..

– بس أقولك بالرغم إني مابخلفش.. بس عارف إن مفيش أم مبتحبش أولادها .. أنا مش عايزك تكره أمك يا حاتم .. مهما كان السبب وأيًّا كان اللي بيدور في عقلك .. متحكمش على الأمور من منظورك إنت دلوقتي .. لأن مع الوقت منظورك ده هيتغيّر ..

نظر حاتم له بعينين مُغرورقتين بالدموع.. فاحتضنه فوزي:

- متقلقش يا حاتم .. أنا مش هسيبك وهاسعدك لحد ماتستقر في حياتك.

بكى حاتم بشدة في حضن فوزي ..

***

مرت 7 أشهر على مكوث حاتم في مترل فوزي، وبدأ يتأقلم على نمط حياته.. كان يلازمه في المترل ويلازمه داخل الكنيسة، وفي زيارته للمرضى، ومساعدته للفقراء بصفته شماسًا بالكنيسة، ويساعده على أداء العلاج الطبيعي ليده المصابة كل أسبوع.. حتى اقتنع الكثيرون بأن حاتم هو ابن فوزي أو أحد أقربائه .. فكان أحدهما لا يفترقُ عن الآخر، وقد تعلّق حاتم بفوزي، وفوزي تعلّق بحاتم بشدة، وأصبح ينادي فوزي "بابا" بعد أن طلب إليه فوزي ذلك؛ لأنه شعر بأن حاتم أصبح ابنه، وأن الله قد بعث حاتم له تعويضًا عن عدم إنجابه.

في إحدى المرات التي كان يعالج فوزي بها يده علاجًا طبيعيًّا.. بدأ يتألم بشدة في المترل، والطبيب يُراقِبه وهو يؤدِّي التدريبات والعلاج ليده، وظَلَّ يُشاهِدُه حاتم وهو يتألم، وينظر إليه بشفقةٍ شديدة..

انصرف الطبيب وطلب إلى حاتم أن يكرر هذه التدريبات الأسبوعية مع فوزي حتى تستطيع يده أن تعود إلى طبيعتها .. خرج الطبيب وما زال فوزي يتألم بشدة من الجرح الذي في يده اليمنى.. فنظر إليه حاتم بشفقةٍ..

– إنت لسه إيدك بتوجعك .. أجيبلك مسكّنات؟

فحدّثه وهو يتألم ..

– لأ.. لأ يا حاتم.. أنا عايز أشعر بالألم.. لازم أحس بيه.. لما أشعر بالآلام يبقى في أمل لإيدي.. الأعصاب بتبتدي تتصل ببعض تاني .. يعني في أمل.. إني أرجع تاني لمهنتي.. الألم هو الأمل يا حاتم.. الآلام هي اللي بتحقق الأحلام.

عَلِقَت هذه الكلمات في ذهنه.. لم يستطع الربط ما بين الآمال، والأحلام، وما بين الآلام.. فالآلام شيءٌ بغيض.. مكروه يدعو للحزن وليس لشيءٍ آخر.. لكنه لم يطلب إلى فوزي إيضاح كلامه.. نظرًا للحالة التي كان عليها.. بدأ فوزي يشعر بالتحسُّن في نهاية هذا اليوم، وجلس هو وحاتم يتسامران أمام التلفاز .. فلفت انتباهه مجموعة من الأوراق موضوعة على المنضدة في وسط غرفة المعيشة مكتوب عليها "ترانيم أسبوع البصخة ".. فلفتت انتباهه.. فسأل فوزي عنها .."

– إيه البصخة دي يا بابا.. أنا بسمع عنها كثير.. بس مش عارف معناها؟

– آه، بص بقي يا سيدي .. كلمة "بصخة" أو "البسخة" هي الصورة اليونانية لنفس كلمة "فصح" العبرية "بيسح **Pesah**، ومعناها "العبور" وتُطلَقُ على فترة أسبوع الآلام. وانتقلت بلفظها تقريبًا إلى معظم اللغات. فهي في القبطية واليونانية "بصخة

Pascha"، وفي العربية "فصح".. وبيطلق على الأسبوع ده أسبوع الآلام.. مع إن البصخة ملهاش علاقة خالص بمعنى كلمة الآلام، فالكلمة اليونانية التي تعني الآلام هي "بصخو"، وتختلف عن معنى كلمة البصخة .. لكن جرت العادة إنه يبقى اسمه أسبوع الآلام.. والكنيسة بتحتفل بيه كل سنة لتذكيرنا برحمة الله العظيمة وذلك بواسطة القراءات التي تتكلم عن آلام الرب يسوع من أجل خلاص البشر.

– انا عايزك تفهمني بقي إيه موضوع الألم ده.. إزاي إنت شايف إن الألم شيء كويس.. مع أن مفيش بني آدم بيحب إنه يتألم .. ولا إنت بتحب تتألم؟

فوزي اعتدل في جلسته وهرش في رأسه..

– إمم.. ده إنت دخلت في موضوع عميق قوي.. لدرجة إن أعظم الفلاسفة.. معرفوش يوصلوا لرأي موحد عنه.. بس أنا هحاول أبسّطهالك..أنا من مؤيدي إن الآلام هي نعمة من الله للبشر، وليست نقمة.

رَمَقَه حاتم بنظرات متعجبة ومتشككة ..

– إزاي يعني نعمة مش نقمة .. فهماهالي بقي دي.

– بص يا سيدي.. في وجهات نظر كتير بتقول إن الألم ده شيء مرعب وسيئ .. لدرجة إن في فيلسوف مشهور اسمه أبيجور.. لخص

السعادة في إنها هي غياب الآلام.. ولكن أنا شايف عكس كده.. لأن السعادة هي المكمل للألم.. أو الألم هو المكمل للسعادة.. لأنك عمرك مكنت هتعرف يعني إيه سعادة إلا في ظل وجود الآلام.

– مش فاهم برضه.

– بص.. أنا هابسطلك الموضوع على الآخر.. أول حاجه إيه هو الألم .. الألم هو شعور سلبي بيحس بيه الإنسان نتيجة التنبيه بوجود مرض معين أو خلل في الجسم، وده تفسيره العلمي، والألم له نوعين: ألم ناتج عن سبب عضوي أو جسدي، وألم ناتج عن سبب نفسي، والألم النفسي بيبقى غالبًا أقوى من الألم العضوي.. اتفقنا إن إحساس الشعور بالآلام شعور سيئ وسلبي لكن ليه فوائد كتير.. أولها إنه بينبهك لحدوث ضرر في جسمك أو مرض يجب الانتباه ليه إنك تعالجه، ولولا الألم ده كنت مهتمش بعلاج الضرر اللي في جسمك، وأدى ده لهلاكك، والألم مرحلة لازم تمر بيها علشان تحقق حلمك أو هدفك.. كل الرياضيين المشهورين، وكل العلماء، كل الفنانين كل اللي حققو نجاحات في حياتهم.. كلهم مرو بالألم.. الألم اللي وقف في وشهم كتير ومنعهم يحققو أهدافهم.. دايمًا كان مانعهم عن آمالهم.. ولّما تخطو الآلام دي حققو الأحلام.. زي منا بشعر بالألم دلوقتي، وشايف إن الألم ده أمل.. إن إيدي ترجع تاني زي ما كانت وأرجع أحقق حلمي في مزاولة مهنة الطب اللي اتحرمت منها، وفي الأديان

برضه.. في المسيحية الألم بيمثّلنا شيء عظيم جدًّا.. إن المسيح اختار إنه يحس بآلام البشر وحياهم علشان يضحي بنفسه، ويتخلص من خطاياهم، ومحدّش يقدر من البشر يتحجج إنه اتظلم في الدنيا وشعر بالألم لأن المسيح نفسه شعر بالألم زيهم، وفي الإسلام.. الآلام بتشيل عن المرضى ذنوبهم عند الله.. الألم شيء مهم جدًّا في حياتنا يا حاتم .. أنا عايزك تعرف إن لولا الألم ده مكنتش هتعرف معنى السعادة.. أيوه هتقابل في المستقبل مشاكل كتير، وهتقابل ألم أكتر، ولكن افتكر دايمًا.. إن الآلام هي الآمال.. هي الأحلام.. أي صعاب تقابلك.. ردّدها دايمًا في قلبك .. الآلام.. هي الآمال .. هي الأحلام.

ابتسم حاتم له بشدة ..

– أنا فعلًا حسّيت بالألم كتير قبل ما أقابلك، ودلوقتي عرفت معنى السعادة، وأنا معاك عرفت إن الواحد ممكن يساعد حد مايعرفوش .. عرفت إن في خير .. في ناس كويسه في الدنيا دي.. بعد اللي شفته في مستشفى المجانين من البشر وظلمهم لبعض.. أنا يمكن فعلًا مكنتش هعرف معنى السعادة إلا لما أكون مريت بالآلام دي.. أنا فعلًا اقتنعت بكلامك .. أوعدك مهما هقابل في حياتي من الألم.. هصبر عليها لأني عارف إن بعديها همر بسعادة.. لأن زي ماهيكون في الألم .. لازم هيكون في سعادة .

نظر له فوزي وهو يشعر بالفخر من كلام حاتم..

– أنا اللي سعيد إني بقى ليه ابن زيك يا حاتم، وهاكون أسعد لو قبلت إني أتبناك، وتبقي ابني رسمي.

عَقَدَت المفاجأةُ لسانَ حاتم، ولكنه شعر بالسعادة الشديدة لأن يصبح ابن فوزي رسميًّا، ولكنه تذكّر وضعه ووضع فوزي، وكيف أن له أعداء كثيرين سيستغلون هذا الأمر في الهجوم على فوزي ..

– بس.. بس.. مش كده هعملك مشاكل يا بابا.. خلّينا كده أحسن.. زي ماحنا.

– مشاكل إيه يا حاتم.. طول منتا عايش في الدنيا دي هتقابل مشاكل وأعداء دايمًا .. أهم حاجه إنك تعمل الصح واللي مقتنع بيه وسيبك من أي شخص تاني.. ولا إنت مش عايز موضوع التبني ده.. متقلقش مش هغصبك على حاجه.. إنت هتعيش زي منتا عايز، وتعتنق الفكر اللي إنت عايزه.

– لا أنا مش معترض على التبني.. بس مراتك ممكن تعترض على الموضوع ده.

– قصدك على يوستينا.. لأ متقلقش إحنا نعتبر فعلًا شبه منفصلين عن بعض، ولو كان في طلاق عندنا.. كان زماني طلقتها من زمان.

– ليه إنتم مكنتوش بتحبو بعض؟

- بالعكس.. ده علشان إحنا بنحب بعض.. أنا كنت بحب يوستينا من زمان أيام ماكنا طلاب، وهي كانت بتبادلني نفس الشعور.. بس أنا حالتي المادية مكنتش تسمح إننا نرتبط.. اشتغلت، واجتهدت واتجهت للتجارة مع بعض الأقارب أثناء دراستي.. تعبت كثير واتبهدلت كثير.. بس قدرت أنجح في الدراسة وفي التجارة وأصبحت وأنا متخرج عندي ثروة معقولة إني أعيش منها، وإتقدمت ليوستنيا واتجوزنا .. وعشنا في سعادة لمدة سنة واتنين وثلاثة، وبعد كده ظهرت مشكلة تأخر الخلفه.. أهلي يلوموها شويه، وأهلها يلوميوني شويه، ولّما الموضع إتاخر زيادة عن حده.. ابتدينا نلجأ للدكاتره، واكتشفت إن عيب الخلفه مني أنا.. يوستينا وقفت جنبي وابتدينا نروح كل حتة بره مصر وجوه مصر.. عملنا نذور واتبركنا بالقديسين وفي كل كنايس مصر، وضاع جزء كبير من ثروتي في الموضع ده.. قررت إني أتوقف واحمد ربنا على اللي هو مقدّره لينا.. لكن يوستينا رفضت إن إحنا نفقد الأمل.. كان نفسها تبقى أم زيها زي صحابها وإخوتها.. أنا كنت شايف من وجهة نظر التاجر اللي جوايا.. إن الموضوع خسران، ومفيش أمل وحرام أضيّع باقي فلوسي في شيء مستحيل حدوثه، ومن هنا ابتدينا نختلف مع بعض، والاختلاف ابتدا يكبر كل يوم ما بينا أكتر وأكتر.. ابتدا شعورها لي يتحول من شعور الحب للكره شويه بشويه.. كنت بقرأ في عينيها كل يوم إني أنا السبب في اللي هي في، وإني واخد موضوع إن مفيش

طلاق في المسيحية مبرر إني أتحكم فيها زي مانا عايز .حبي ليها خلاّني مستحملش النظرة دي في عينيها، وخيرتها إنها تغير ملتها أو أنا أغير ملتي علشان تقدر تطلّق مني مرضتيش لأنها مسيحية مؤمنة بشدة، وشايفه أن ده تحايُل على الدين، ومن هنا ابتديت أسعى إن قوانين الطلاق تتغير في الكنيسة، ولقيت ناس كتير حالاتهم زي حالتي، واتجمّعنا، وحاولنا إن إحنا نغيّر وجهة نظر الكنيسة في الطلاق وأسبابه لأنه لا طلاق في المسيحية إلا لعلة الزنى، ومن هنا ابتدا يظهر ناس تعارضني وتخوني وتتهمني بالكفر بتعاليم المسيحية لمجرد إني تبنيت وجهة نظر مختلفة عن وجهة نظرهم.

– طيب إزاي إنت شماس في الكنيسة،وبينك وما بينها مشاكل..؟

– مش بقول لك يا حاتم إن عالم الكبار مُعقّد .. مش كل شيء أبيض ياسود .. المهم إن نقط الخلاف ما بينا ابتدت توسع أكتر . بعد موضحتلها إني رافض لفكرة الموالد والنذور زي ماقلتلك.. لأني شايف إنها مجرد وسيلة لاستتراف الأموال، وفي نفس الوقت لانتشار الأمراض، والخرافات.. يعني واحد فقير.. ابنه مريض بدل ما يحافظ على أمواله لعلاج ابنه.. يروح يشتري شمع ويحرقه لنذر نذره لأحد القديسين .. ربنا هيستفيد إيه من شوية شمع محروق، ودخان.. اتهمتني هي كمان إني بكفر بتعاليم المسيح والمسيحية.

ولكن كنا لسه عايشين مع بعض.. لكن الموضوع تطوّر جدًّا .. لما أنا اكتشفت مخالفات قام بيها أحد القساوسة، وبلّغت بيها الكنيسة، واكتشفو فعلًا الواقعة دي، وشلحوه من الكنيسة.. يعني سقطت عنه الصفة الكهنوتية، والقس ده كان للأسف أخو يوستنيا الكبير، وهنا كانت القشة اللي قصمت ضهر البعير.. سابتني، وقعدت مع أهلها، ومن ساعتها مشفتهاش.. يعني مش إنت السبب في اللي أنا فيه.. تفكيري واقتناعي بأفعالي هو اللي وصلّني للي أنا في حاليًا.. ها.. قولت إيه؟ موافق .. إني أبقى أبوك؟

– موافق طبعًا .. أنا هلاقي أب زيك تاني فين؟

– خلاص بعد أسبوعين هنبتدي في الكنيسة احتفالات أسبوع الآلام، وبعديها هابتدي في الإجراءات رسميًّا،وهدخّلك مدرسة تكمل تعليمك تاني .. اتفقنا؟

– اتفقنا.

كان هذا ماتَّفَقَ عليه كُلٌّ من فوزي، وحاتم، ولكن كان للقدر تدابير أخرى.. في مساء اليوم السابق لأسبوع الآلام.. اجتمع فوزي، وحاتم وبدآ في تدريب فوزي على إلقاء الترانيم الخاصة بالاحتفالية خلال ذلك الأسبوع ليدق جرس الباب فجأةً.. فتوقفا عمّا يفعلانه، وذهب فوزي إلى الباب ليرى من خلال العين السحرية شخصًا يرتدي ملابس قساوسة، يقف خلف الباب، فنظر إليه بغضب ثم اتجه إلى حاتم وحدّثه بصوتٍ منخفضٍ ..

– خُش أوضتك يا حاتم، ومتطلعش منها أبدًا.. مش عايزهم يشوفوك.

هزَّ رأسه بالإيجاب، وأختبأ سريعًا.. دلف من الباب القسيس بعد أن فتح له فوزي وهو ينظر له بغضبٍ.

– جاي ليه يا رضا.. عايز إيه؟

تركه رضا ودخل المترل وجلس على الأريكة ..

– إيه يا فوزي مش هتكرم ضيفك .. دي من تعاليم الرب إكرام الضيف.

أغلق فوزي الباب وحدثه بضيق ..

– إنت بالذات متكلمش عن تعاليم الرب، وإنت بتستغلّها لمصلحتك، ثم انت لابس لبس القساوسة ليه.. إنت كده لسه بتخدع الناس؟.

– أنا مش بخدع حد.. إنت ناسي إني أنا أب من آباء الكنيسة.

– إنت هتجمع نفسك مع آباء الكنيسة العظام.. إنت مجرد قسيس مشلوح.

نظر رضا له بغضب ..

– ومين كان السبب إني اتشلحت.. مش إنت يا فوزي.. مش إنت السبب؟

– إنت لسه ليك عين تتكلم وإنت لص بتختلس من أموال الكنيسة.. بتسحب من جيوب الفقراء وتحط في جيبك؟

قفز حاتم فزعًا من مكانه لعلو صراخهما، واقترب من الباب وفتحه ونظر من خلاله إلى رضا الذي يقف أمام فوزي بملابس القساوسة السوداء ولحيته الكثة .. وهو يتراشق الكلمات الغاضبة مع فوزي ..

ابتسم رضا:

– من كان مَنكم بلا خطيئةٍ فليرمها بحجر..كلنا بنخطأ يا فوزي.

– أيوه كلنا بنخطأ.. بس مش كلنا رجال دين يا رضا، واشكر ربنا.. إن الكنيسة ما بلغتش عنك وسجنتك.

– كمان عايزني أتسجن يا فوزي.. يا جوز أختي.. مش كفايه إنك كنت السبب في إنك تدمر حياتي وتبعد عني أصدقائي وأقاربي.. أنا مبقتش عارف أعيش من نظرات الناس ليه بعد مكانو بيبصولي بوقار واحترام.. دلوقتي بِيقابلوني بنظرات كلها كره واستحقار.. وكل ده بسببك .

– إنت اللي تتحمّل نتيجة أخطاءك مش أنا..

– مكنتش عارف تخبي يا أخي؟ ده الكتاب المقدس بيقول..

" فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء، ولا نرضي أنفسنا فليرض كل واحد منا قريبه للخير، لأجل البنيان.

رومية 15 : 1 – 2

" وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات. فإنه تشرق شمسه على الشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين.

متى 5: 44 و 45

وظَلّ يسترسل رضا في آيات الغفران والمساعدة بالكتاب المقدس..فشعر فوزي بالضيق من كلامه، فصرخ بآيات من الكتاب المقدس هو الآخر:

" لاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَكْذِبُوا، وَلاَ تَغْدُرُوا أَحَدُكُمْ بِصَاحِبِهِ."

اللاويين ١٩: ١١

" السَّالِكُ بِالْحَقِّ وَالْمُتَكَلِّمُ بِالاسْتِقَامَةِ، الرَّاذِلُ مَكْسَبَ الْمَظَالِمِ، النَّافِضُ يَدَيْهِ مِنْ قَبْضِ الرَّشْوَةِ، الَّذِي يَسُدُّ أُذُنَيْهِ عَنْ سَمْعِ الدِّمَاءِ، وَيُغَمِّضُ عَيْنَيْهِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الشَّرِّ ١٦ هُوَ فِي الأَعَالِي يَسْكُنُ. حُصُونُ الصُّخُورِ مَلْجَؤُهُ. يُعْطَى خُبْزَهُ، وَمِيَاهُهُ مَأْمُونَةٌ."

أشعياء ٣٣: ١٥– ١٦

– أنا كمان حافظ الكتاب المقدس.

نظر له رضا بغضبٍ وهو يجز على أسنانه..

– ماشي يا فوزي..ماشي يا جوز أختي.. بقى أنت حافظ الكتاب المقدس.. إنت بقيت قدّيس.. شعب الكنيسة مبقاش عاجبك، ولا الكنيسة نفسها عاجباك، وكمان ماشي مع عيّل مسلم عمّال تقول للرايح واللي جي إنه ابنك، ومش سائل في يوستنيا أختي، ولا مراعي مشاعرها.. متعرفش إن لما وصلها الكلام ده أتألمت قد إيه؟ ..إنت دمّرت حياتها، ودمرتلي حياتي.

قاطعه فوزي بغضبٍ شديد ..

– عايز إيه يا رضا؟.. إنت جاي هنا ليه؟.. يا إما تقول إنت جي ليه؟ يا إما تمشي من بيتي فورًا.

جزّ رضا على أسنانه ..

– ماشي .. ماشي يا فوزي .. أنا عايز تعويض.

فوزي مُندهشًا ..

– تعويض .. تعويض عن إيه؟

– تعويض عن حياتي، وحياة أختي اللي دمرتها.. أنا وصلّي إنك صفّيت أعمالك مع شركاءك، ومحتفظ بالفلوس.. أنا عايزك تدّيني حقي، وحق أختي في الفلوس دي.

نظر له مُندهشًا لحظات.. ثم ضحك بسخريةٍ شديدة.. فشعر رضا بالإهانة من ضحكه فصرخ غاضبًا:

– بتضحك على إيه؟

– بضحك على كلامك الفارغ ده.. بقى وصلت بيك البجاحه إنك جايلي بيتي، وبتساومني على فلوسي.. عايز تاخد مني فلوس علشان عرفت الناس إنك حرامي.. يابجاحتك يا أخي.. لو سمحت اتفضل إطلع برّه بيتي حالًا.

ابتسم رضا له وهو يقف وينظر حوله:

– ماشي.. ماشي يا فوزي.. هو صحيح الولد اللي معاك فين؟.. مشفتوش يعني!

– مش موجود هنا دلوقتي، ولو سمحت اتفضل بره بيتي يلاّ.

تركه فوزي واتجه ليفتح باب الشقة ليخرج رضا منها فتفاجأ بوجود شابين واقفين على باب الشقة أمامه.. فنظر إلى رضا فوجده يبتسم له بخُبث..حاول أن يغلق الباب سريعًا في وجه الشابين.. فوضع أحدُ الشَّابين يدَه ما بين الباب حتى لا يُغلِقَه، وانقضَّ رضا على فوزي وأزاحه عن الباب بسرعة.. فدخل الشابَّان من الباب مُسرعين وأغلقاه خلفهما ثم انقضا على فوزي بشدةٍ وقيَّدا حركتَه، وظَلَّ رضا يراقبهما في سرور.. فنظر له فوزي غاضبًا ..

- إيه اللي إنت بتعمله ده يا رضا؟ .. إنت اتجننت؟

- إنت اللي اتجننت يوم مفكرت إنك تبلّغ عني، وتسوّأ صورتي قدّام شعب الكنيسة، أنا مش هسيبك النهارده إلا لما آخد حقي منك، ومن الذُّل اللي ساقيتهولي.. بقى حتة شمّاس زيّك يشلحني أنا؟!

رأى حاتم ما يحدث من خلف باب الغرفة وهو يشعر بالاضطراب الشديد، لا يدري ماذا يفعل.. أيتدخَلُ لمحاولةِ حِماية فوزي أم ينتظر قليلًا حتى يَطلب إليه فوزي ذلك.. ارتعَبَ أكثر عندما رأى الشابين يُخرِجان مِطواةً من بين ملابسهما ويضعانِها على رقبة فوزي.. الذي ظَلَّ يصرخ في رضا..

- إيه يا رضا.. هتعمل إيه يا مجنون؟.. هتعمل إيه؟.. أنا جوز أختك.

- ههههه.. دلوقتي بقيت جوز أختي.. أنا على العموم مش هعملك حاجة طول مانت مهاود، وبتسمع الكلام.. شايل الفلوس فين؟ الرجالة قاطرينك من 3 أيام من ساعة لما رحت خدت الفلوس من عند شركاءك، وموديتهمش البنك من ساعتها.. يعني إنت لسه شايلها هنا.. قولي الفلوس فين؟ .. وأنا هاسيبك حالًا.

نظر فوزي إلى وجه رضا المبتسم المتشفي، وتفرّس وجهه المَقيت فوجده يتحدَّثُ بالحقيقة، فهو لن يتركه إلا بعد أن يأخذ منهَ الأموال،

ولكنه لحسن حظه قد قام بتخبئة أمواله بأكثر من مكان بالمترل، ففكّر أن يخبره بمكان منها ليتخلّص من الموقف الذي تورَّط به ..

– ماشي يا رضا.. الفلوس موجودة في الأوضه اللي جنبك تحت مرتبة السرير بتاعي خدها، ومش عايز أشوف وشك هنا تاني.

هَزَّ رضا رأسه مبتسمًا:

– ماشي يا فوزي.. ماشي.

ثم تركه، ودخل إلى الغرفة التي بجواره، ورفع المرتبة فوجد كيسًا ورقيًّا ملفوفًا به النقود فسحبه، وخرج يحملها أمامه..

– إيه دوول يا فوزي؟

– الفلوس اللي شايلها.

– لأ الفلوس دي قليلة.. شعبان اللي ماسكك ده شغّال عند شريكك، وشافك واخد فلوس أكتر من كده.

وضع شعبان المطواة أكثر على رقبة فوزي..

– إيه يا دكتره.. إنت نسيتني ولا إيه؟ فين الفلوس؟ انطق بدل مخلّص عليك!!

ابتلع فوزي ريقه بخوف لأن باقي النقود في غرفة حاتم التي يختبئ بها، وإن رأوا حاتم فلن يَسْلَمَ منهم، فظَلَّ يفكِّرُ ماذا يفعل بصمتٍ .. توجَّه رضا إليه سريعًا:

– مش عايز تقول فين الفلوس .. أنا هاخليك تنطق.

فضربه بشدة على يده المصابة فصرخ فوزي من الألم .. سمع حاتم صُراخه فلم يستطع أن يتركه، فأمسك مِطفأة سجائر زجاجية كانت موضوعة للزينة في غرفته، وخرج وهو يصرخ وضرب الشاب شعبان على رأسه، وهو يرفع سكينه على رقبة فوزي.. فتألَّم بشدة، ووضع يده على رأسه فوجَدَ يدَه بها دماء فنظر إلى حاتم بحنق، وصرخ به وهو يحمل مِطواته ويتوجَّه إلى حاتم ..

– بطحتني يا ابن دين ...

فتراجع حاتم إلى الوراء خائفًا، وشعبان ينقضُّ عليه بمطواته فوقف فوزي مسرعًا أمام حاتم ليحميه، لتنغرز المطواة في أسفل مَعِدَته ليصرخ من الألم ويسقط على الأرض ويصرخ بحاتم:

– اهرَب.. اهرب يا حاتم منّ هنا.

ركض حاتم مُرتعدًا، ودخل غُرفته وأغلق الباب خلفه بقوةٍ.. فصرخ رضا فيهما:

– إنتم مستنين إيه؟ ده شاف كل حاجه متسبهوش خلّصوا عليه.

ضرب الشابَّان باب غرفة حاتم بكل قوةٍ، واستطاعوا فتحه ليندفع حاتم من بينهما فجأةً ويخرج خارج الغرفة.. فيلحق به رضا ويمسكه بقوةٍ ...

- تعالى رايح فين؟

وصرخ في الشابين ..

- خلّصوا عليه بسرعة.. خلّصوا عليه.

هبَّ فوزي بقوةٍ، وهو مُصابٌ، وغارِقٌ بدمائه وأمسك بالشابين وهو يصرخ في حاتم ..

- اهرب يا حاتم.. اهرب يا حاتم.

قام حاتم بضرب رضا بمرفقه في فُمِّ معدته فتركه متألّمًا بشدة وهو يصرخ في شعبان، ورفيقه بألا يتركا حاتم:

- متيسبهوش.. متسيبوهش.. آآآآآآه.

فتح حاتم باب المنزل بسرعة وهمَّ بالخروج ثم دخل مرةً أخرى مُسرعًا محاولًا نَجْدَة فوزي الذي كان ما زال ممسكًا بشعبان، ورفيقه بشدة ولا يريد تركهما.. أمسك رضا بحاتم مرةً أخرى عندما عاد من جديد فقاومه حاتم بشدة، وصرخ به فوزي ..

- رجعت ليه يا حاتم ؟؟.. اهرب .. اهرب يا حاتم .

شعر شعبان بالغضب من فوزي فقام بطعنه أكثر من مرة بشدة وهو يصرخ فيه:

- هموّتك يا ابن الكلب.. هموّتكم كلكم ..

رأى حاتم شعبان يطعن فوزي بشدة فجُنَّ جُنونه، فدفَعَ رضا جهة شعبان الذي سقط عليه وأوقعه أرضًا، فقام شعبان ونَظَرَ إلى رضا بغضب وطعنه هو الآخر بشدة في قلبه وهو يصرخ فيهم:

- هموّتكم كلكم .. هموّتكم كلكم.. واخد الفلوس لوحدي.

نظر له شريكه، وصرخ فيه ..

- إنت بتعمل إيه يا مجنون؟

فطَعنَه شعبان هو الآخر بقوة.. فسحب شريكه مطواته، وطعن بها شعبان في رقبته فأمسَكَ رقبته وهو يحاول أن يصرخ، فلم يستطع والدماء تخرج من رقبته، وفمه بغزارة.. نظر حاتم إلى الجميع وهم مُلقون على الأرض، وهم يغرقون في دمائهم، وفوزي يصرخ فيه:

- اهرب .. اهرب يا حاتم ... اهر....ب.

كانت تلك آخر كلمة قالها فوزي، وهو ينظر إلى حاتم، والدماء تملأُ جسدَه، وملابسَه، وهو ساقط جثة وسط الجثث الأخرى.. كان حاتم ينظر إلى بحر من الدماء يسقط من شلالات عالم الجنون.. مشهد لم يحتمل عقله الصغير رؤيته.. فأطلق ساقيه للريح خارج المنزلِ، وخارج الشارع، وخارج المنطقة بأكملها.

***

هائمًا على وجهه مَصْدومًا مَذْهولًا..حاله أصبح رأسا على عقبٍ..
لا يعلمُ لماذا،وكيف؟.. هل هو السبب فيما حدث لفوزي؟.. هل هو مَنْ تسبَّب بمقتله؟.. فوزي غطّاس.. أطيب، وأذكى شخص قد وجده في هذه الحياةِ، فهو الأبُ الحَنون، وهو المُعلِّم الصبور.. فتح له آفاقًا في الدنيا من جديد، وجعله يطفو على سطحها بعد أن كان غارِقًا مَنسيًّا في أعماقِها.. لماذا؟.. لماذا يحدث له ذلك؟.. لماذا لم يكن مثل أقرانه الآن يشغله مشاهدة الكارتون، والألعابِ، والحديث عن الفتيات؟.. لماذا يجِدُ في طريقه الخوف، الرعب، القتل الجنون؟.. أين سيذهبُ، وكيف سيعيشُ؟.. مَنْ سيحتويه؟، مَنْ سيساعِدُه؟.. هل هناك بَشَرٌ مثل القديسين، والملائكة مثل فوزي؟.. لا.. لا يعتقدُ فممَّا رأي وعايَش أن البشر هم بَشَرٌ، فوزي كان هو الاستثناء الوحيد.. البشر هم البشر.. كائنات وضيعةٌ..أنانيةٌ .. تُحبُّ مصلحتها ومنفعتها الشخصية فقط، ولكنهم يعيشون في مجموعات.. هؤلاء هم البشر.. لا.. لن أستطيع أن أعيش بوسطهم.. ليس بشخصيتي الحالية.. ليس بنفسيتي الهَشَّة الضعيفة.. لن أجِدَ من وسطهم مَنْ يُعوِّضني عن حنان فوزي، وعِلمه الغزير.

أين أنت؟.. أين أنت يا أبي؟.. لا تتركني وحيدًا في هذا العالم القاسي؟ لماذا تركتني؟..لماذا تَوفَّيتَ وأنت تُدافِعُ عني؟.. لماذا ضحّيتَ بنفسك من أجلي؟، ولم أستطع أن أُبادلَك التضحيةَ.. إني حزين.. إني أتألم.. لا يا أبي.. الآلام ليست هي الأحلام.. الآلام هي الأحزان..

أحزان فقط.. أنا لن أستطيع أن أعيش.. يجب أن أموت..أن أموت من أجلك.. هذا هو الحل.. أن موت.. يجب أن أذهب معك.. أَلْحَقَ بك..

نظر حاتم أمامه فوجد سيلًا من السيارات يجوبُ أحد الشوارع، فذهَبَ مُسرعًا إلى أكبر سيارةٍ قادمة، وقَفَزَ أمامها.. لم يشعر بألمٍ.. لم يشعر بشيءٍ..غير شعور الراحة، والاطمئنان..إذًا هذا هو.. هذا هو.. الموت.

هذا ما كان يعتقدُه حاتم في تلك اللحظة.. أنه مات، ولكن لم يحدث ذلك.. فصاحب السيارة توقّف بسرعةٍ شديدةٍ قبل أن يرتطم بحاتم الذي سقط أمام السيارة غائبًا عن وعيه..

فذُعِرَ السائقُ، ومَنْ معه عندما تجمَّع حوله المارَّةُ وأخذوا يصرخون فيه، فحمل حاتم بسرعة ووضعه بسيارته، وأبلغَهم أنه سيوصِّلُه للمشفى بسرعةٍ، وانطلق بسيارته سريعًا، وبداخلها حاتم، وأخذَ يصرخ، ومَنْ معه من أصدقائه أنهم سيذهبون إلى السجن.. سوف يُعدمون، والحل الوحيد هو أن يتخلّصوا من الجثة، وبالفعل ذهبوا إلى إحدى المناطق النائية بشارع فيصل.. نعم شارع فيصل، فهو ليس مزدحمًا مثل الآن، بل كان ترعةً كبيرة بطول 6 كم، وحولها أراضٍ زراعية خضراء، وما به من مبانٍ فقط.. بطول 3 كم أو أكثر بقليل مع حلول ذلك الوقت الذي بدأ العمران يزحف على الأراضي الزراعية التي بدأت تتناقص بشدة الآن.. إن لم تكن قد انتهت بالفعل.. توقّفت السيارة عند أحد المباني الذي لم يكتمل بناؤه، وتحوَّل

إلى مَقْلبٍ للقمامة، والمُخلفات لجميع سكان المنطقة، وألْقَوا بحاتم هناك في سكونِ الليل، وانطلقوا مُسرعينَ وسط زَفَّةٍ أحدثتها الكلاب الضالة، وهي تركض وراءهم ..

لاح الصباح، واستيقظ حاتم ليكتشف أنه لم يَمُتْ.. بل أخذَ غفوةً كبيرة أراحت جسده المُنهك والضعيف، ووجد نفسه يقف في وسط المنزل غير المُكتمل ووسط أقوام القمامة، وحوله بعض الكلاب الضالة ترمُقُه بنظرات ناعسة ثم تتركُه، وتتجوَّل في منطقة نُفوذها.. وقف حاتم مُتعجِّبًا.. كيف أتى إلى هنا؟، وماذا حدث له بعد أن صدمته السيارة؟.. خرج من المنزل غير المكتمل البناء ليجد أمامه مجموعة من الأطفال في سنِّه تقريبًا.. هناك مَنْ أكبر منه وهناك مَنْ أصغر منه، وعندما رأوه التفوا حوله كما يلتف النَّملُ على قطعةٍ من السكر، وبدؤوا يصرخون به بأسئلةٍ من نوعية..إنت مين ياض؟، ومنين؟، وإيه اللي جابك الطالبية.. أرضٍ الرجولية؟، وأشياء من تلك النوعية.. ثم انهالوا عليه بالضرب، والسَّبِّ، واللَّعن دون أي مقدمات أو مبررات.. فأخذ يصرخ، ويطلب النجدة، وأنه لم يفعل شيئًا لهم.. دون مجيب أو معين.. حتى سمعوا صوتًا قويًّا من خلفهم ..

– استنوا يا رجاله.

وقف الأطفال ينظرون خلفهم بإجلال.. فاخترق المجموعةَ طفل في سن حاتم تقريبًا يرتدي (ترنج) أزرق، وملامحه غير وسيمة، وجسدُه مُمتلئٌ قليلًا.. فصرخ بأحدهم:

– إيه يا رجاله بتضربوه ليه؟

فنظر له أحدهم ..

– ده غريب عن المنطقة ياكوجي .. وأول مرة نشوفه هنا.

– طيب هو أي حد غريب عن المنطقة تضربوه على طول كده؟

فنظر إليه الطفل مُتعجبًا ..:

– مش إنت اللي قايلنا.. أي حد يخش غريب اضربوه؟!

فلكمه كوجي في كتفه وهو يشعر بالإحراج.. ثم ذهب إلى حاتم فوجده يبكي فشعر بالشفقة عليه..

– إنت مين يا كابتن؟، وإيه اللي جابك هنا؟

حدَّثه باكيًا:

– أنا معرفش أنا فين هنا.

جاوبه كوجي سريعًا ..

– إنت في الطالبية.. في الحتة بتاعتنا.. إنت قريب حد هنا؟

– أنا مليش قرايب.. كل أهلي ماتوا.. حتى أبويا لسه ميت امبارح.

شعر كوجي بالأسى عليه فربّت على كتفه برفق ..

– متعيطش يا كابتن.. معلش.. مفيش راجل بيعيّط.. طيب إنت ملكش قرايب تسكن عندهم؟

هز حاتم رأسه نافيًا، وهو يمسح دموعه بملابسه ..نظر كوجي إلى الأطفال خلفه ..

– خلاص يا رجاله.. اسمه إيه؟..

ثم التفت إلى حاتم ..

– هو إنت اسمك إيه؟

– حاتم .. اسمي حاتم

– لا.. مش هينفع اسمك ده هنا.. كل واحد هنا ليه اسم من الكارتون اللي بيحبه..أنا كوجي دووك فليد..من كارتون جريندايزر.

ثم إشار إلى طفلٍ بجواره:

– وده بسّام، وده ماجد، وده عدنان، وده الليث الأبيض.. كل واحد فينا مسمّي نفسه باسم الكارتون اللي بيحبه.. إنت بتحب كارتون إيه؟

بحيرةٍ:

– بحب كل الكارتون ده، وبحب قوي السندباد البحري..أنا هابقى السندباد.

كوجي نظر إلى أحد الأطفال قصير القامة، وحافي القدمين، ويسيل مخاطه من أنفه:

– مش هينفع مخيمر واخد اسم سندباد .. اختار اسم تاني.

حاتم مبتسمًا..

– علاء الدين .. كان مع السندباد في مغامراته.

ابتسم كوجي ونظر إلى أصدقائه ..

– خلاص يا رجاله .. علاء الدين هيبقى صاحبنا خلاص، وهيبقى معانا في كل حته محدّش يقربله بعد كده ده في حمايتي خلاص.

ثم مَدَّ يده إلى حاتم وهو يبتسم:

– هات إيدك يا علاء الدين.

ابتسم حاتم، وهو يمسك بيد كوجي.. هذا الفتى الغريبالذي لا يعلم لماذا أحبَّه؟، وأصبح يطيعه في كل شيءٍ، ويلازِمُه في كل مكان.. هل لأنه هو الشخصية الألفا.. شخصية القائد الذي يلتفُّ حوله الجميع يسمعون كلامه، وينفّذون تعليماته.. فهو عندما يريد أن يلعب ينفض الجميعُ ما بيده ويبدؤون اللعب معه، وعندما يريد أن يتعارك.. الجميع يلتف حوله، ويدافعون عنه، ويفتكون بأعدائه.. أو لأنه يهتم بمن حوله.. يحاول أن يحل لهم مشاكلهم ويقف بجوارهم في مصاعبهم دون ان يهتم بتفاصيل حياتهم الشخصية.. فهو لم يسأل حاتم قط: من أين هو؟ أو عن ماضيه؟، وأسكنه في غرفة أسفل منزلهم يتخذها أهله

مخزنًا للأشياء القديمة، ولم يتركه ينام في العراء مثل السابق، وأشركه في عمل عند صاحب ورشة للميكانيكا في منطقتهم.. كان يعمل بها هو بعض الأوقات في إجازته المدرسية.. أُعجِبَ حاتم بشخصية كوجي أشد الإعجاب، وتمنّى أن يكون مثله شابًا قويًا، ومحبوبًا من أصدقائه، ومن أهل المنطقة الذين احتووا حاتم بينهم دون أن يسألوه من أين جاء؟ وإلى أين سيذهب؟ تغيّر وضع حاتم للأفضل أصبح يعمل، وله أصدقاء يفرح، ويمرح معهم.. يشاركهم أفراحهم، وأحزانهم.. يقاتل في معاركهم.. يشاهدُ الكارتون معهم.. يتحدّث عن الفتيات مثلهم.. يعيش سِنَّه.. لم يهتم بذهابه للمدرسة فهو كان لا يحبُّها أصلًا.. أحيانًا قد يشعر بالغيرة من ذهاب كوجي، وبعض أصدقائه إليها، ولكن ليس الجميع كان يذهب للدراسة مثله.

***

مرّت الأيام، وحاتم في وئام، وسعادة.. نسي والدته، وإخوته، وسيسلي، وفوزي، وحياته الماضية بالكامل، وانغمس في نمط حياته الجديدة، وهذا إن دلّ على شيء.. فإنما يدلُّ على قدرة البشر الغريبة على التكيُّف.. في أيِّ مكان، وبأي معيشة، وهكذا استطاع البشر أن يتسيدوا هذا الكوكب لما يقرُبُ من 200 ألف سنةٍ، واستمر حاتم يستمتعُ بحياته الجديدة، والتعوّد عليها ...

***

– أستاذ حاتم.. يا فنان.. يا فنان!!.

صوت أنثوي حادٌّ قطع ذكريات حاتم الذي أفاق من غفلتِه فوجد سحر الصحفية ما زالت تجلس أمامه مبتسمةً ..

– إيه يا فنان .. إنت سرحت بدماغك فين؟

ابتسم حاتم ..

– لأ .. مسرحتش ولا حاجة .. كنا بنقول إيه؟

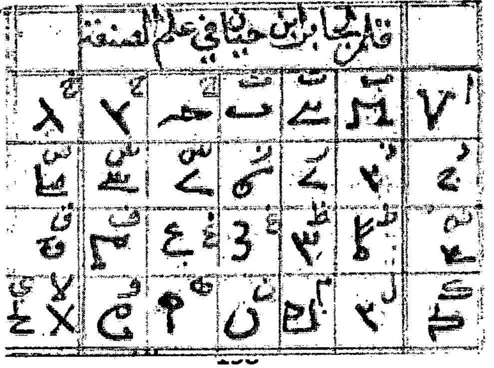
– كنت بسألك على ذكرياتك في الطفولة.. هل حدث شيء مثير أو غريب فيها تحكيهالي علشان أنشرها؟"

– لأ.. مفيش حاجة مثيرة خالص.. طفولة عاديه للغاية.

وابتسم بسخريةٍ ..

– طفولة عادية جدًا.

هزت رأسها مبتسمةً وتابعت أسئلتها ..



عودة إيواس

صَرَخَ عادل بأعلى صوته أمام الكائن الشيطاني الذي كان يفتك بجموع الشباب:

– أنا هنا.. أنا هنا.. أنا الشمّاس تعالى هنا، وأنا أخلص عليك.. أنا الشماس.. تعالى.

نظر الكائن جهة مصدر الصوت ثم قفز سريعًا من على باب إحدى الغرف بالأعلى إلى منتصف غرفة المعيشة بقفزة واحدة..فقام عادل بوضع قطعة من القماش داخل زجاجة الخمر ووضع الشمع بداخلها بعد أن قام بتفتيتها ووضعها فى الزجاجة، وأمسك بيده اليسرى القداحة وهو على أهبة الاستعداد أن يشعل النيران فى زجاجة المولوتوف ويلقيها على هذا الكائن.. الذي وقف فى منتصف غرفة المعيشة، وبدأ يحاول تتبُّع مصدر أي صوت..فصرخ به عادل...

– أنا هنا قدامك.. أنا الشمّاس.

بدأ الكائن يتحرك ببطء جهة عادل.. ربما قد علم بأن عادل أراد أن يتحداه، وقرر أن يقبل تحديه. هذا الكائن الضخم صاحب البشرة البُنِّيَّة؛ الذي يتعدى طوله المترين بكثير، وله قدمان كبيرتان ولديه إصبعان متباعدان فى كل قدم.. إنها لا تبدو مثل الأصابع، ولكن هى أقرب إلى الحوافر.. بمنتصف جسده جلدٌ كثيفٌ مُغطًّى بالشعر الأبيض أو بالأفضل توصيفه إلى فراء حيوان ما منقرض، ولديه يدان غريبتان.. فاليد اليسرى قصيرة نوعًا ما عن يده اليُمنى، وكف يده بها ثقب كبير يبدو كفوهة مدفع أو بركان، ولديه خمس أصابع بعضها بعيد عن بعض بشكل كبير، والثلاث أصابع الأولى مثل مخالب طائر كبير، أما آخر إصبعين فيبدوان مثل أذرع الأخطبوط، وهما أكبر من باقي أصابع يده الأخرى ووجهه ورأسه مُغطًّى بأشواك سوداء تبدو كأشواك الصبار الكبيرة التى حين تراها تشعر من الوهلة الأولى أنها مسمومة، ووجه به تجويفان أبيضان يبدو أنهما عيناه وأنف صغير أفطس فوق فم كبير جدًّا يُقارب 30 سم، وفكه الأعلى مفتوح عن فكه الأسفل بنفس هذه المسافة، وبه أنياب كبيرة. طول الناب قد يصل إلى 8–10 سم .. الكائن بكل هذه الملامح المُرعبة يتقدم بثبات إليه ..



فبدأ عادل فى إشعال فتيل زجاجة المولوتوف فتفاجأ بشيء غريب.. لم يشتعل الفتيل.. بدأ يقترب الكائن أكثر من عادل، وهو يُصدر أصواتًا غريبة، ومرعبة، ألقت الذعر فى قلبه، فأسرع في إشعال قطعة القماش، ولكنها لم تشتعل.. شعر بالارتباك فنَزَعَ فتيل زجاجة المولوتوف بسرعة، ونظر بداخل زجاجة الخمر ثم وضعها على أنفه سريعًا.. فوجد ما لم يتوقعه قط.. فوجد أن زجاجة الخمر لا تحتوي على خمر بل على ماء، وبهذا لن تشتعل أبدًا.. فوجد نفسه يلقي الزجاجة من يده فى يأسٍ، ونَظَرَ أمامه فوجد الكائن يقف أخيرًا أمامه وهو يزمجر بصوتٍ ضخمٍ للغاية، ورفع يده اليُمنى بكل قوة وهوى بها على رأس عادل .

لولا أن أوقفه صوت باب يُفتح فجأةً خلف عادل، وتخرج منه جنا، وهي تركض مسرعة وبيدها زجاجة خمر صنعت منها قنبلة مولتوف مشتعلة، وألقتها بسرعة على جسد الكائن القابع أمام عادل.. فتهشّمت على جسده، واشتعل جسده بالنيران، فأخذ يصرخ مُتألّمًا، وهو يتراجع للخلف، مُبتعدًا، ومحاطًا بالنيران يحاول أن يُطفئها بيديه، وهو يصرخ بصوتٍ مُفْزِعٍ من الألم ..

شعرت جنا بالفرح الشديد، وأخذت تنظر للكائن بسرور شديد، وهو يحترق، ويحاول أن يطفئ النيران من على جسده ولكنه لا يستطيع.. قفز عادل من مكانه، وهو يحدّث جنا بفرح..

– برافو عليكي .. برافو عليكي يا جنا .. أنقذتينا كلنا.

خرج أربعة ناجين من الغرف بالأعلى أثار فضولهم أصوات فرح عادل، وجنا، وصريخ الكائن بالأسفل فصرخوا فرحين عندما رأوه يشتعل، وأيقن الجميع بأنهم قد نَجوا من هذا الكابوس المرعب للأبد، وهذا ما قد حدث.. أو ما كانوا يظنونه قد حدث.

توقّف الكائن عن الصراخ فجأةً، ورفع فمه إلى أعلى ساحبًا الهواء بقوه.. ثم انتفخت معدته فجأةً بشكل غريب، وبدأت ترتفع عن باقي جسده، والنيران ما زالت مشتعلة به.. رأى الجميع ما يحدث في اندهاشٍ كبير.. ارتفعت معدة الكائن أكثر فأكثر ثم هبط على ركبتيه بالأرض، ورفع يديه إلى أعلى، وضمَّ كفيه على جسده، وأخرج هواء بقوةٍ شديدة من الفتحة الكبيرة التي في وسط يديه، وهو يحمل معه مادة سائلة غريبة تميل إلى اللون الأزرق، وفي لحظاتٍ انطفأت النيران من على صدره، وهبط بكفيه على باقي جسده، وعلى معدته التي تناقصت بشكل كبير، وعادت إلى شكلها الطبيعي، وبلحظات قليله أطفأ الكائن النيران جميعها التي على جسده بالهواء، والمادة السائلة التي خرجت من الفتحات التي بيده.. نظرت جنا إلى ذلك، وشعرت باليأس فخرجت منها صرخة، وهي لا تعي.. فنظر الكائن بسرعة جهتها، وأشار إليها بكفه اليمنى.. فخرجت من الفتحة التي بكفه دفعة من الهواء، والمادة الزرقاء بسرعة شديدة.. اخترقت جسد جنا

كطلقة المدفع.. فسقطت جنا، وهي تصرخ على الأرض في وسط ذهول عادل الذي سقطت بجانبه.. حدث هَرَجٌ ومَرَجٌ من الناجين بالأعلى، وهمُّوا بالهروب، فالتفت الكائن خلفه مُسرعًا، وأشار جهة الأصوات الصادرة من خلفه بكفيه، وبسرعة شديدة خرجت منه طلقات الهواء جهتهم فأصابت شخصًا منهم، وابتعد الثلاثة الآخرون فظلَّ يُطْلِق الكائن بعشوائية بكفيه في كل الاتجاهات، وهو يزمجر، وظَلَّ يركُض في أرجاء المكان بأكمله وهو يُطلق الطلقات الهوائية من كفيه، والناجون يحاولون الهروب منه.. جنا تحدّثت بصعوبة إلى عادل، وهي تضع يدها على جراحها.. فانحنى عادل إليها، واقترب منها ونظر إلى الجرح الذي في جسده، فوجد طلقة الهواء التي أطلقها الكائن قد اخترقت جسدها وأذابته من الداخل وتركت دائرة صغيرة في جسدها، وتتساقط منها الدماء بغزارة .. فاقترب منها وحمل رأسها على يديه وقرَّبها من صدره وهي همس له :

- أنا عايزه أسألك سؤال واحد، وتجاوبني عليه بصراحة.

نظر عادل إليها بشفقه ..

- قولي يا جنا.. عايزه إيه.؟

- إنت الشماس .. صح.. ؟

قالتها بصوت متهدِّج ومتقطّع.

شعر عادل بخيبة الأمل من سؤالها، ذلك ولكنه هَزَّ رأسه بالإيجاب:

– أيوه يا جنا .. أنا الشماس.

ابتسمت جنا بفرح شديد، وهي تبصق الدماء من فمها ..

– كنت متأكدة إنك.. الشماس.

ثم صمتت للأبد ..

وضع عادل رأسها على الأرض برفق، ونظر خلفه فوجد الكائن قد قضى على جميع الناجين بطلقاته الهوائية، ولم يتبقَّ بالمنزل غيره.. ظل يطلق الكائن طلقاته في كل مكان، وبشكل عشوائي، وهو يزمجر.. فاستسلم عادل لمصيره، وسقط، وجلس على ركبتيه، ووضع يده على رأسه في يأسٍ وهو يتوقَّع أن يموت بسبب أحد تلك الطلقات الطائشة أو عن طريق الكائن نفسه.. شعر فجأةً ببردٍ شديد يلتفُّ حوله.. ثم بدأت الجراح التي على شكل رموز بجبهته وصدره تشتعل بالألم الشديد، فصرخ وهو يحتضن جسده من الألم وهو يصرخ بشدة.. فلفتَ صُراخُه انتباه الكائن الذي علم بوجوده.. فتغيّر فحيح صوته، وتقدَّم إليه بثبات، وهو ينوي أن يُكمل ما بدأه مع عادل.. ارتسمَ على وجهه المُخيف شيئًا يُشبه الابتسامة المرعبة، وهو يقترب من عادل، ويقف أمامه.. فاصطدمت قدمه بجسد عادل الساقط على الأرض، فارتفعت الابتسامة المُرعبة أكثر على وجهه، ومال بجسده الطويل الضخم، ووضع يده على رقبة عادل، ورفعه أمامه مثل الدُّمية الصغيرة، وقرَّبه من وجهه ببطء وفَتَحَ فمه على مصراعيه ليقضم رأس عادل الذي نَظَرَ في وجه الكائن فجأةً.. ثم ابتسم، وصرخ به:

- ما الذي أتى بك هنا أيها الكلب الأجرب ..؟

ارتسمت ملامحُ الرُّعبِ على وجه الكائن القبيح عندما سمع صوت عادل الذي أمسك يد الكائن اليمنى التي يحمله بها بيده اليسري، ثم سَحَبَها بشدة إلى أسفل، فقَطَعَ ذراع الكائن اليمنى.. الذي صرخ فزعًا، وهو يبتعد خائفًا من عادل الذي يحمل يده الضخمة كخلّة الأسنان ثم نظر حوله فوجد الجثث، والرسومات الحمراء تملأ الغرفة حوله فابتسم ساخرًا ..

- يبدو أنه كان هنا حفل صاخب ..

ثم ألقى يد الكائن بعيدًا عنه دون مبالاة، وهو ينظر إلى جسده ويتحسسه وهو يضحك بشدة.

- يا له من شعور رائع .. أخيرًا قد عدتَ هنا .. أخيرًا.

سمع الكائن صوته وهو يضحك، فقفزُ مُسرِعًا وركض مُبتعدًا عنه وهو يصطدم بكل شيءٍ أمامه.. فنظر إليه عادل..

- إلى أين أيها الكلب الأجرب؟.. الحفل لم ينتهِ بعد، وبقفزةٍ واحدةٍ كان أمام الكائن الذي فزع بشدة والتصق بالحائط خلفه.. فوضع حاتم يده على ذراع الكائن اليُسرى، ونزعه بيدٍ واحدةٍ.. فصرخ الكائن، وهو يبتعد بعيدًا عنه.. فألقى عادل ذراعه الأخرى بجواره.. ثم ضربه بقبضة يدِه في قدمه اليُمنى.. فتألّم الكائن، وهو

يحاول أن يركض بقدمه الأخرى التي سرعان ما حطَّمها عادل هي الأخرى بقبضة يده.. ثم راقبه عادل، وعلى وجهه ابتسامة شديدة، والكائن يزحف، ويحاول أن يتحرك من على الأرض بجسده الضخم الطويل أمامه.. فتوجَّه عادل إلى رأسه، ووضع يده بداخل فكه، وسحب الكائن من فمه وهو يتجول في غرفة المعيشة ..

- إلى أين أنت ذاهب؟ دعنا نأخذ جولة سريعة في هذا المكان.

وأخذ يتطلّع عادل إلى ما حوله، وهو يصعد الدرج إلى الدور العلوي بالفيلا ساحبًا الكائن الشيطاني من فمه الذي لم يصبح لديه حول ولا قوة، وهو يجرُّه على درجات السلم، وذراعاه مقتلعتان من جسده، وقدماه محطمتان، ويجره عادل بإهانة شديدة.. ثم اصطحبه إلى أعلى في إحدى الغرف، ثم مزَّقَ قدميه ووضعه أمامه، ثم بدأ يكتب بإصبعه شيئًا يُشبه الطلاسم، والرموز على جسد الكائن، وهو يبتسم، ويحدثه ..

- حسنًا أيها الكلب الأجرب.. أنا لن أقتلك الآن.. لأنك ستصبح رسالتي إلى نويت.. فلْتُبْلغْها.. إن إيواس قد عاد، ولم ولن تفلح محاولاتك لإيقافه. ثم حَكَّ رأسه:

- حسنًا.. إني لا أحتاجك أن تبلغها شيئًا بفمك.. إذًا فهو ليس له فائدة الآن.

ثم وضع يده في فم الكائن، ونزع الجزء الأسفل من فكّه وهو يصرخ متألّمًا.. فأمسك إيواس فم الكائن، وهو يبتسم..

- لا تترعج، فإنك لن تحتاجه، فرسالتي على جسدك.

ثم ألقى فك الكائن في وجهه..ثم فرد أصابعه بكل قوة، وأخذ يطلق كلمات، ومقاطع صوتية بكلمات غير مفهومة، فارتسمت على كفيه عدة نقوش.. ثم وضع كفيه على الحائط، فارتسمت كلمات، وأشكال سحرية عليه.. فأخذ جسد الكائن، وألقاه في الحائط وسط الكلمات السحرية، فاختفى في الحال، ثم قذَفَ الأعضاء التي مزّقها من جسد الكائن معه، وعندما انتهى هَبَّ واقفًا، وأخذ يتمطى بجسده، وهو سعيد ..

- آاااااه.. إنه إحساس جميل للغاية.. ما أجمل العودة إلى هنا؟

وخرج خارج الغرفة فوجد ثلاثة جنود يقفون أمامه، وعندما رأوه بجسده العاري، وعلى جسده ورأسه طلاسم ورسوم، ومغطًى بالدماء، صرخوا به فجأةً، ورفعوا أسلحتهم أمامه.. فتفاجأ إيواس من أشكال الجنود، وأسلحتهم لحظاتٍ، ثم رآهم مرتعبين منه،فابتسم، ونَطَقَ بعدةٍ كلماتٍ:

- باتون.. كي.. لما استيانو.

فارتفع جنديان بالهواء من أقدامهما، وسقطت أسلحتهما، والثالث اقترب منه إيواس وقذفه إلى أعلى فالتصق بسقف الفيلا.. فبدؤوا يصرخون، وهم مرتعبون. فجأةً سمع إيواس جلبةً بجواره، فنظر سريعًا فوجد ضابطًا يشهر سلاحه في وجهه، وخلفه مجموعة من رجاله، والضابط يصرخ به.. فابتسم إيواس بشدة وتقدَّم جهته بثباتٍ وبطءٍ.

***

استيقظ عادل فزعًا، وهو يتذكَّر ما حدث من قبل في الفيلا.. فوجد نفسه نائمًا على الأرض، فهبَّ واقفًا ليجد نفسه في غرفة صغيرةً مُحاطًا بالظلام من جميع الأنحاء.. ثم يُسلَّط ضوء من مصباح صغير في وسط الغرفة ليظهر إيواس جالسًا على مقعد حديدي، وله نفس ملامح عادل تقريبًا مع بعض الاختلافات الصغيرة.

ابتسم لعادل وهو يضع قدمًا فوق قدم، ويفرد يديه مُرحِّبًا..

– حللت أهلًا ووطأت سهلًا.

مُدقِّقًا مُحملقًا، ومندهشًا ..

– أنا فين، وإنت مين ؟

إيواس مبتسمًا ..

– أنا من كان صَادِقُ الوَعْدِ مُنْصِفًا.

ينظر إليه عادل متعجِّبًا من كلامه، وإيواس مندهش من رد فعله..

– لم تدرك حديثي.. سوف أبسِّطُ لك الأمر.. أنا ثالث المستحيلات .

ما زال عادل مندهشًا من حديثة، وبدا على إيواس الضجر..

– ماذا؟ ألم تفهم؟ .. ثالث المستحيلات.. المستحيلات الثلاثة .. الغول والعنقاء والخِلُّ الوفي .. أنا الخل الوفي ..

رفع عادل يديه، وكتفه متحيرًا ..

– مش فاهم.

ضرب إيواس رأسه مستسلمًا ..

"كيف لا تفهم..إني أخبرك بأني خِلُّك الوفي..صديقك الصدوق.. ألا تفهم حديثي؟.

عادل بحيرة ..

– مش فاهم حاجة.

إيواس ينظر حوله مندهشًا ..

– كيف ذلك؟ سوف أُلقي عليك بعض الأبيات الشعرية.. وأبلغني أنك فهمتها أم لا؟.

عادل هز رأسه بالإيجاب.. فألقي عليه إيواس بعض أبيات، وهو يتقمَّص أداءِ الشعراء، وهم يلقون القصائد.

"وسار بأركان العقيش مقرنصًا .. وهام بكل القارطـــات بشنكـــلِ

يقول وما بال البحاط مقرطمـــًا .. ويسعى دوامًا بين هك وهنكـــلِ

إذا أقبل البعراط طـــاح بهمـــةٍ .. وإن أقرط المحطوش ناء بكلكلِ

يكاد على فرط الحطيف يقبق .. ويضرب ما بين الهماط وكندلِ فيا

أيها البغقوش لست بقاعـــدٍ .. ولا أنت في كل البحيص بطنبل

إنتهى إيواس من الإلقاء، وهو يبتسم لعادل ..

– هل فهمت تلك الأبيات الرائعة؟

حاول عادل أن يكتم ضَحِكَهُ بداخله، ولكنه لم يستطع فانفجر ضاحكًا على أداء إيواس وكلماته ..

– هههههههه .. شنكحا .. وهنكلي .. ده شعر ..هههههههههه.

نظر إيواس إليه غير مبالٍ، وأشيح بيديه بالهواء ..

– حسنًا.. حسنًا.. فهمت.. أنتم لا تتكلمون العربية بعد الآن.. سوف أحاول أن أتحدث معك بلغةٍ بسيطةٍ كي تفهمني.. فلتسألني عمَّا تريد..

ارتسمت الجِدِيَّة على ملامح عادل ..

– إنت مين .. وجايبني هنا ليه؟

إيواس مبتسمًا ..

- كما أخبرتك من قبل أنا صديقك الصدوق.. يمكنك أن تدعوني الآن بإيواس.. أو أي اسم آخر تختاره.. فكل الأسماء لديَّ سواء، وأنت الآن في مكان صنعتُه أنا لكي نستطيع أن نتحدث بحرية كما نريد.

عادل مندهشًا ..

- إنت إيواس اللي ظهرت لالستر كراولي؟! إنت؟!

إيواس رفع حاجبيه مبتسمًا ..

- كلامك ليس دقيقًا تمامًا، ولكن تستطيع أن تقول .. نعم ..أنا.

عادل صرخ به غاضبًا بشدة..

- إنت إيواس.. إنت وكراولي بتاعك ده كنت السبب في كل اللي بيحصلي ده ..

إيواس نظر إلى عادل بغضب شديد، وكاد يتطاير الشَّررُ من عينيه.. فسقط عادل على الأرض فجأةً ولم يستطيع أن يتحركَ من مكانه، وشعر بالذُّعر عندما التقت عيناه بعيني إيواس الغاضبتين.. الذي حدّثه بحدة ..

- فلتهدأ أيها الغلام .. أنت لم تريني سوى الآن.. فكيف أكون أنا السبب فيما يحدث لك؟ أيًّا كان ما حدث.. فلتهدأ، وتقص عليَّ قصتك منذ البداية أولًا.

عادت ملامح إيواس إلى ملامحه العادية، وهو يضع قدمه فوق الأخرى، ويشير إلى عادل بأن يكمل حديثه الذي وجد نفسه يستطيع الحركة مرة أخرى فابتلع ريقه، وأخذ يحدث إيواس عمَّا حدث له من بداية مقابلته بمحمود سالم وزوجته هدير مرورًا بالشماس وما لاقاه بعد ذلك في الفيلا وقصة كراولي وعبد الله .. وما إن انتهى .. حتى ضحك إيواس بشدة .. فاندهش عادل من رد فعله ..

– بتضحك على إيه .. في حاجة في كلامي تضحك؟

إيواس مبتسمًا ..

– الآن علمت لماذا أنت غاضب.. لا تقلق ..

قالها، وهو يقوم من مقعده ويتجه إلى عادل وهو يحدثه ..

– لا تقلق.. أنت الآن معي.. لا تشغل بالك منذ الآن بكراولي، وحكاياته السخيفة.. أو المدعو الشماس هذا أو غيره منذ الآن.. فكل من يقف أمام هدفي سأدمِّرُه، وتعبيرًا لصداقتي سوف أقضي لك على الشماس هذا الذي تكرهه، وأي شخص آخر تريد القضاء عليه.. فقط سَمِّه .. ودعِ الأمر لي .

– بس إنت مقولتليش.. إختارتني أنا ليه بالذات؟، وإنت قوي جدًّا.. أنا شفتك، وإنت بتقضي على الكائن اللي موجود بالفيلا بسهولة قوي .. محتاجني أنا في إيه؟

إيواس يضربه بقبضة يده برفق في كتفه .."هذا السؤال الذي كنت أنتظره منك منذ باكر .."سأشرح لك الأمر بطريقة مُبسطة للغاية .. ما هذا العالم الذي تعيش به؟ ما ماهيته؟"

حاول عادل أن يفكر في سؤاله سريعًا ولكن لم يستطع الإجابة ..

إيواس بدأ بالالتفاف حول عادل وهو يحدثه: "لا تعلم بالطبع ولماذا؟ لأن إدراكك لم يفهم ماهية هذا العالم وطبيعته.. فأنتم لم تكونوا تعلمون بوجود هذه الأشياء الصغيرة التي تسمونها.. بلك.. بكتريا، وفيروسات.. هذه الأشياء لم تكن موجودة في عالمك لأنها لم تكن في متناول إدراككم.. أنا الآن.. حاضر بوجودي أمامك.. لكن لو سألتك من أسابيع عن وجودنا في هذا العالم لأنكرت، وذلك لإن إدراكك لم يفهم طبيعة وجودي.. إدراككم يتوقف على تعاملكم مع العالم من خلال حواسكم، وكلما زادت هذه الحواس زادت رؤيتك لهذا العالم بطريقة مختلفة، وجميع الأشياء التي لا تتعاملون بها عن طريق حواسكم.. لا تدركونها، وتصبح غير موجودة مع أنها موجودةٌ بالفعل،وصدقني هناك أشياء موجودة في العالم الذي نعيش به الآن لم تخطر على بال بشر في يوم من الأيام ..

- السؤال الثاني: هل نحن نسكن هذا العالم.. أم نحن في عالمين مختفلين؟

جاوبه عادل سريعًا:

- إحنا في عوالم مختلفة طبعًا.

هز إيواس رأسه نافيًا، وهو يبتسم ..

- لأ.. نحن في نفس العالم .. بل إن الكون بأكمله موجود ومتصل في هذا العالم الذي تعيش به الآن، ولكنك لا تدركه، وتفهم طبيعة وجوده لأن حواسك لم تلتقطه أو تترجمه إلى أشياء تراها، وتحسها، وتشعر بها .. أصابتك الحيرة .. أليس كذلك؟

عادل هز رأسه سريعًا ..

- آه.

إبتسم له إيواس، ووضع يده على كتفه ..

- صدق أو لا تصدق.. أنا أيضًا لم أكن أعلم بوجود عوالم أخرى غير التي أُدركها بحواسي أيضًا، ومن علّمني ذلك هو بشري مثلك لم يستطع مخلوق في هذا العالم أن يؤثر بحياتي مثل ذلك البشري إنه عربي، وبسببه أحببتُ العربية، وأصبح حديثي كله بها، ويُدعى عبد الله الحافظ."

عادل مندهشًا:

- هو ده .. عبد الله حافظ اللي قتله كراولي.

إيواس عقد حاجبيه مندهشًا ..

– ماذا؟! كراولي يقتل عبد الله؟!

– آه أنا قريت كده في كتابته.. إعترف إنه قتله، وكتب بدمه كتاب القانون.

إيواس يبتسم ساخرًا ..

– كراولي.. هذا المهرج الأحمق.. يَدَّعِي أنه قتل عبد الله الحافظ.. هذا مستحيل.

– لقد أبلغتك أن هذا الرجل هو من غيَّر نظرتي إلى هذا العالم .. مستحيل أن يستطيع قتله هذا المهرج كراولي.. لأني قابلت عبد الله هذا قبل أن أقابل كراولي بسبعمائة عام.

شعر عادل بالاندهاش الشديد من كلام إيواس.. الذي أكمل حديثه ..

– لا تشغل بالك بهذا الأمر، سوف أحدثك عن عبد الله وكراولي باستفاضة، ولكن ليس الآن.. فلنعُدْ لحديثنا.. إن جميع العوالم متصلة مع بعضها البعض بشكل متوازٍ، وبذلك لا يتشابك بعضها مع بعضٍ.. كيف ذلك.. حيث إن كل كائن في هذا العالم له حواس معينة يرى ويعيش بها العالم من خلالها.. فأنتم تستطيعون العيش في عالمكم من حيث إدراكه بحواسكم، ونحن أيضًا نعيش في نفس العالم بحواسِّنا وإدراكنا له، وكذلك الطيور والحيوانات وباقي الكائنات الأخرى ..

هناك بعض الأمور والأماكن التي تتشابك بها حواس جميع الكائنات لحظات فتدرك وجود هذه العوالم.

بدأ إيواس يلمس بيده وجه عادل وكتفيه وذراعه وصدره وهو يكمل حديثه ..

– أنتم تمتلكون أيها البشر أجسادًا خارقة.. لم نمتلك نحن نصفها.. تُمكّنكم من العيش في أي بيئة، والتكيف مع أي مناخ.. أنتم تُشبهون حشرة الصرصور يستطيع أن يتكيّف أيضًا مع أي بيئةٍ أخرى، ويعيش في أي مكان، ولكن الفرق بينكم، وبينه أنكم تملكون إدراكًا وحواسًا أوسع مما لديه .. لذلك نحن نُفضّل أن نكون بداخل أجسادٍكم.

– طيب وليه متعيشوش في العالم بتاعكم اللي بتنتمو ليه؟.. ليه عايزين تعيشو في العالم بتاعنا؟

إيواس نظر له متعجبًا ..

– ولماذا أنتم أيضا لا تعيشون في عالمكم؟.. لماذا تخترقون الغابات، وتغوصون في البحار، والمحيطات؟ تخترعون الطائرات، وتكتشفون الكواكب؟ .. نحن نفعل مثلما تفعلون فقط.

– إحنا مخترقناش العالم بتاعكَم، ولا احتلينا أجسادكم.

– لأنكم لا تعلمون كيف تخترقونها بعد، ولكن لو علمتم.. سوف تتحكمون بنا أسوأ من الحيوانات التي تعيش بينكم.. فلتنظر من أتى

بي إلى هذا المكان هل أنا؟.. لا.. أنتم.. مَنْ مارستم السحر والطلاسم وتقومون باستدعائنا ليلًا ونهارًا.. ولماذا؟.. هل نحن نحب ذلك؟.. هل ليس لدينا عالم يشغلنا، وحياة نعيشها مثلكم؟.. البشر.. هم من يفعلون ذلك، ولكن في حالتك أنت.. أنا مَنْ تحكم في البشر ليستدعوني هنا، وأما عن سؤالك: لماذا اخترتك أنت؟ هل شاهدت هذا الفيلم الذي يرتدي به البطل ملابس زرقاء ويضع ملابسه الداخلية الحمراء فوق بنطاله؟

حرّك إيواس يديه بجانبه وهو يقلّد الطيور، ويطير في الهواء

– قصدك على سوبر مان ..؟

إيواس ايتسم بسخرية ..

– أيوه ذلك السوبر.. مان.. لماذا في هذه الأفلام يستطيع الطيران، وباقي البشر لا يستطيعون؟.. لماذا؟.. لأنه مميز.. ليس من عالمك.. من عالم آخر .. اكتسب قوة خارقة في عالمك، نحن كذلك .. في عالمنا.. جميعنا لديه قدرات متفاوتة، ولكنها محدودة.. في عالمي أنا مَلكٌ، ولكن هناك ملوكًا مثلي كثيرين.. أما في عالمكم هنا.. فأنا إله.. إذًا.. لماذا نحتاج جسدكم؟ .. هل تستطيع أن تعيش في الماء؟

– ممكن.. بس لو عندي إمكانيات تساعدني.

إيواس..

- نعم هذه الملابس الضيقة التي تضعونها عليكم في الماء.. ماذا تُدعى؟

- بدلة غطس.

- نعم.. بدلة غطس نعم.. هذا هو الأمر.. عندما نستطيع العيش في عالمك بمفردنا فهو لفترة صغيرة للغاية.. لأن جسدنا غير مؤهّل لذلك، ولكن عندما نكون بداخلكم.. تصبحون كبدلة الغطس لنا، ونستطيع العيش في هذا العالم بقدراتنا الجديدة التي تمكنّا من التأثير في عالمنا، وفي عالمكم، وأنت من قد اختارك أتباعي لتنال شرف أن تصاحبني في رحلتي الجديدة في هذا العالم.

عادل نظر إلى الأرض، وظل يفكر قليلًا، ويسترجع كلام إيواس ثم نظر له متسائلًا..

- بس إنت مقولتليش لما أتباعك اختاروني.. ليه كان في منهم عايزني أسيب الفيلا، واتعذّب واحد منهم قدامي؟

- كما توقعتُ منك.. لديك نظرات ثاقبة، وتفكير لامع.. نعم هذه المرة عودتي ليست مرحبًا بها.. فهناك من يريدون منعي عن تحقيق ما أهدف إليه، وأن جميع ما حدث لك كان من تخطيط هذه الملعونة لتمنعني من العودة لكنها فشلت.

بفضول ..

– مين دي اللي بتكلّم عنها..؟

إيواس ضاحكًا ..

– إنها محبوبتي، وعدوتي.. نوت.. أو نويت كما كان يدعوها كراولي.. هذه من تقف لي بالمرصاد وتحاول أن تدمر خططي دائمًا.. لكنها تفشل عادةً.. حسنًا ليس دائمًا.. فجعلت عودتي هذه المرة في ظل ظروف صعبة ومعقدة للغاية.. فقد كنتُ دائمًا أعود بشكلٍ خفيٍّ، ودون أن يشعر أحد من البشر بوجودنا، ولكن بفضل نويت هذه المرة فقد عدت مع شخص متهم بالقتل، وفي معاداة مع شرطة البشر، وأصبح الجميع يعلم بوجودك، ومن ثم بوجودي.. وُضعت الأنظار علينا، ولكن لا تقلق.. أنا إيواس.. لم، ولن يستطيع أحد أن يقف في وجه مخططاتي.

عادل ينظر إليه بقلق ..

– إنت، ونويت، وكراولي.. أحرار مع بعض.. يا ريت تخرجني من المعادلة بتاعتكم دي.. أنا مش عايز أي حاجة منكم، ومش عايز أدخل في مشاكلكم.. فيا ريت تسيبوني في حالي، وترجّعوني زي ما كنت.

نظر له إيواس نظرة غريبة أشعرت عادل بالقلق .. ثم ذهب إلى مقعده، وجلس عليه وحدثه بحدة شديدة :

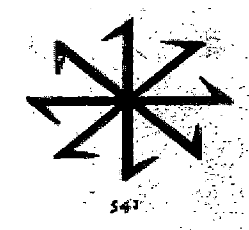
– يبدو أيها الصغير أنك لم تعلم مع من تتكلم بعد؟

فجأةً تنهار الأرض من تحت قدمي عادل، ويهوي بشدة إلى قاع مظلم لا يري شيئًا من حوله أو أمامه ثم يصطدم بشيءٍ حادٍّ للغاية فيشعر بالألم الشديد وهو ما زال يسقط، لا يدري رأسه من قدمه، وأعلاه من أسفله ثم تصطدم يده مرة أخرى بشيءٍ صلب، وحادٍّ للغاية فيجد أصابعه قد بُترت في الحال.. فيصرخ بشدة من الألم، وهو يحاول منع الدماء أن تتدفق من يده.. يصطدم بالقاع فجأةً، ويشعر جسده بصدمة شديدة، يحاول أن يتنفس فلا يستطيع من أثر السقوط.. جميع عظامه مهشمة.. لا يستطيع الحركة.. عينه اليمنى مملوءة بالدماء ولا يرى بها شيئًا.. يحاول أن يفتح فمه بصعوبة ليتنفس فيجده مملوءًا ببعض أسنانه المحطمة.. الدماء تسد أنفه.. يبدأ جسده يتشنج تلقائيًّا لعدم وصول الأكسجين إلى مُخِّه ..

الألم ينتشر في كل جسده، وبدأ يزيد أكثر عندما تشنج جسده لا إراديًا.. ألم شديد ظهر عندما اكتشف أن مفصل قدمه الأيسر مُحطَّم.. لا يستطيع الحركة أو التنفس.. يشعر بالألم، ولا يستطيع الصراخ.. جاثم بالظلام لا يرى ما حدث له أو أين هوى.. شعوره بعد معرفة ما حدث له أقوى من شعور الألم لديه.. يشعر بزحف الموت إلى جسده.. يُضاءُ المكان الذي هو به الآن فتؤذي الإضاءة عينيه.. يرى بعينه اليسري التي ما زالت سليمة نفسه ساقطًا في شيءٍ

يُشبهُ البئر الممتلئة بالنتوء، والكتل الصخرية البارزة مثل الكهوف، ولكنها ليست صخورًا بل قطعًا من الفولاذ المقوّى والمصقل مثل السيوف، وهو ساقط فوق إحدى قطع الفولاذ هذه والتي اخترقت جذعه مثل السكين الضخم ورأى ذراعه اليمنى منفصلة عن جسده، وعلم الآن لماذا لم يكن يشعر بها؟، وركبته اليسرى المحطمة التي جعلت مشط قدمه بجوار فخذيه.. طعم الدماء النحاسي في فمه يملؤه.. شعور العجز مع الألم مع قلة الحيلة، وعلمك باقتراب موتك شعور لا يمكن لكائن حي أن يتخيله.

علم عادل أنه الآن في عداد الأموات، وأنه لن يستطيع أن يغيّر شيئًا في ذلك الأمر.. عندما رأى إيواس يقف أمامه، وينظر له بنظراته الغاضبة، وهو يضع يده بسرعة فتخترق صدر عادل، ويسحب قلبه منه، ويمسكه بيده، ويقضم قطعه منه، ثم يُلقي بقلب عادل في عينه اليسرى التي يرى بها .. ثم ظلام كامل ..



***

مرهقًا ومُتعَبًا، وجسده مليءٌ بالكدمات، ووجهه يعلوه بعض الكدمات باللون الأزرق البنفسجي والأحمر الوردي.. يخترق كريم منطقته الشعبية والجميع ينظرون إليه ويهمسون.. فيقابله أحد المارة فيحييه وهو يضحك ..

- مبرووك عليك الحبس يا عم كريم .. تعيش وتدوّب.

يرمقه كريم بضيق ..

- الله يبارك فيك.. عقبالك .

ويتابع طريقه ويترك الذي يحدثه في صدمةٍ من كلامه.. اقترب من مقهى أمامه وجلس على مقعد بجوار أحد الأشخاص الذي رحَّبَ به..

- ألف حمد لله على السلامة يا كريم.

- الله يسلمك يا سعد.

نظر سعد إلى كريم مُتفرِّسًا في وجهه، وأشار إلى الكدمات التي في وجه كريم ..

- إيه الألوان اللي في وشك دي يا كريم..هما عملو فيك إيه؟

أشار كريم بإصبعه إلى الكدمات التي تعلوه ..

- لأ .. دوول رسمولي علم مصر.

سعد مبتسمًا:

– هما ضربوك؟

– لأ.. كانو واخدني في القسم يلعبوني طاولة.

اقترب منهم صبي القهوة وهو يبتسم في وجه كريم:

– أستاذ كريم .. حمد لله على السلامة.. نوّرت الحتة.

– بنورك يا موزة.. هاتلي واحد قرفه على ينسون ..

نظر موزة له مندهشًا ..

– إيه قرفه على ينسون؟ وهتعرف تشربهم دوول إزاي ؟

أشاح كريم له بيده ..

– يا عم هشربهم.. أنا شربت حاجات في القسم.. طلعت البلا على جتتي.

إبتسم موزة، وتركه منصرفًا إلى الداخل.. يحدّثه سعد مستفسرًا..

– هو اللي بيقولو عن عادل ده حقيقي يا كريم؟

– هو عادل فعلًا الشماس؟

حدّثه كريم بغضب ..

– يا عم شماس مين؟.. ده عادل أغلب من الغُلب.. هو انتم مش عارفينه يا جدعان.. ده كان ليل نهار معانا.

تحدث أحد رواد المقهى معترضًا ..

– يا عم هي الحكومة يعني هتكدب ليه؟ هتتبلّى على الراجل يعني؟ دي الحكومة عارفة كل حاجة، ومدام قالت هو الشماس.. يبقى هو الشماس .. إنت مبتشفش التلفزيون ولا إيه؟

– يعني يا جدعان هتصدقو التلفزيون، والحكومة، وتكدّبوا ابن حتتكم اللي عايش معاكم ووسطيكم؟!

صرخ به الرجل:

– عايش معانا فين؟ هما 10 سنين بس اللي شفناه فيها، وقبل كده محدش فينا كان يعرف عنه أي حاجة.. طلع في وسطينا كده زرع شيطاني.

وقف كريم غاضبًا وهو يصرخ في الرجل ..

– اسكت ياجدع انت.. أحسن كلامك بينرفزني.. متخلنيش أتغابى على أهلك على الصبح.

ألقى الرجل النرجليه التي ينفثها غاضبًا، ويوقف لكريم وهو غاضب ..

– مبقاش إلا أنت ياض إنت.. يا رد السجون اللي هتتغابى عليَّ، ولا أنت، ولا عليلتك كلها تقدر تعملهاّ معايا.

تدخل رواد المقهى، والمارة في المشاجرة بين كريم، والرجل محاولين تهدئتهما، وقاموا بسحب الرجل بعيدًا عن كريم وسعد أمسك كريم من يده وهدئه وجلس معه ..

- اهدا.. اهدا يا عم كريم.. إنت لسه راجع من مشكلة، وجيت بالسلامة .. مش عايزنك تخش في مشاكل تاني.

بغضب..

- للدرجه دي يا سعد.. الناس تكدّب ابن حتتها، وتصدّق التلفزيون.

سعد ابتسم له ..

- يا عم ماحنا كنا بنقول على الإعلام سحرة فرعون مكنتوش بتصدقونا وتضحكو علينا.

- يا عم سعد بقى مش كل ماهتطلع مصيبه هتقولي بقى سحرة، وعبيد، والكلام بتاعك ده .. هتخليني يا أخي أندم إني بتكلم معاك.

- خلاص.. خلاص..إحمد ربنا إنه خرجك من القرية الظالم أهلها، واحمد ربنا أنها جت على قد كده، ده في ناس أهاليها متعرفش عنها حاجة.

- الحمد لله أنا أحسن من غيري.. ده في ناس.. اللهم عافينا.. أنا شفت واد عنده 16 سنه متهم إنه وقع طيّاره الله يكون في عون عادل بقى من اللي هيشوفه.

– هما مسكو عادل بصحيح؟

– أمال يعني خرّجوني كده لله يا عم سعد إنت كمان؟!

قطع حديثهما رجل دخل عليهما فجأةً، وهو مبتسم:

– السلام عليكم .. أستاذ كريم فين؟

فأشير سعد إلى كريم:

– أهه ..

كريم مرتابًا ..

– أيوه أنا .. مين عايزني مباحث؟.. أنا لسه خارج يا باشا والله.

ضحك الرجل:

– لأ أنا مش مباحث.. أنا محمود حسين.. معد في برنامج الأستاذ قاصي.. عرفنا إنك لسه خارج النهارده، وكنا عاملين حلقة عن الشماس، وعايزينك معانا في الحلقة.

كريم غاضبًا ..

– أنا معنديش حاجة أقولها، ولا لقاصي، ولا لغيره.. ثم إنتم كل اللي بيطلع معاكم بيتحبس، وهو مروّح .. لا ياعم شكرًا.

تدخل سعد ملاحقًا:

– استنى بس يا كريم.. عن إذنك بس دقيقة لوحدينا يا أستاذ.

هز المُعدُّ رأسه مبتسمًا، وابتعد عنهما قليلًا، وأخرِج هاتفه ليجري مكالمة.. فاقترب سعد من كريم، وهمس بأذنه:

– يا عم كريم .. متستعجلش.. دي فرصة جاتلك لحد عندك.. اللقاء هيبقى على الهواء، وقاصي آلاف من الناس بتابعه يوميًا دي فرصتك تبيّن للناس إن عادل مش هو الشماس، وإنه مظلوم، وأديك انت شفت الإعلام بيأثّر على الناس إزاي.. إنت عارف إن عادل في شدة دلوقتي، وإنه في أشد الاحتياج لأي حد يقف معاه دلوقتي.

فكّر كريم في كلامه قليلًا..

– فعلًا عندك حق.. أنا هاطلع في التلفزيون علشان خاطر عادل، علشان برضو الواحد يحكي لعياله فيما بعد إنه طلع على الفضائيات.

نظر إلى معد البرنامج وهو بيتسم:

– أنا موافق يا أستاذ إني أطلع في البرنامج.

فأزاح المعد الهاتف من على أذنه، وأخرجَ كارتًا وأعطاه لكريم :

– خلاص يا أستاذ كريم هتبقى الساعة 6 بكره على بوابة 2 في مدينة الإنتاج الإعلامي، واحنا هننتظرك هناك.

ودعهما فراقبه كريم وهو يغادر مبتعدًا عنهما.. ثم وقف يصرخ في رواد المقهى ..

– بكره هاطلع في التلفزيون يا غجر..

ثم جلس أمام مسعد الذي راقبه وهو مبتسم ..

– فرصة .. أحاول أثبت براءة عادل.

***

فتح عينيه صارخًا من الألم وتذكر مشهد إيواس، وهو يعتصر قلبه.. فوجد نفسه في مكتب، وأمامه بعض الأشخاص ينظرون له باندهاش.. لحظات، وبدأ عادل يعود إلى وعيه.. وأدرك أنه ما زال حيًّا حاول أن يقف فوجد قدميه مكبّلتين بالسلاسل الحديدية.. حاول أن يحرك يديه.. فوجدها خلف ظهره مكبلتين بالقيود الحديدية.. صرخ بفرح:

– أنا لسه عايش.. أنا لسه عايش..

فوجد شخصًا يضحك، وهو على مكتبه ..

– أيوه لسه عايش.. إيه؟.. إنت كنت نايم ولا إيه..؟.. صباح الخير يا عم الشماس..

نظر له عادل غاضبًا.. فابتسم شريف مندور ..

– آسف.. آسف.. قصدي يا عم إيواس.

تفاجأ عادل من سماع اسم إيواس من شخص آخر.. فنظر حوله متعجبًا أين هو؟.. فوجد نفسه في مكتب فخم، ويجلس أمامه على أحد المقاعد شريف مندور، وعصام يقف خلفه، وخمسة جنود أمن

مركزي بملابسهم الكاملة يصوِّبون أسلحتهم جهته، وهم يبتلعون ريقهم برعب، ويتحاشون النظر إلى عينه.

حدّث عادل شريف مندور مندهشًا..

– أنا فين، وأنتم مين، ومكتّفني كده ليه؟

شريف مبتسمًا ..

– إنت لحقت تنساني ولا إيه؟.. يا عم إيواس.. أنا المقدّم شريف مندور.. مش قعدنا ندردش مع بعض قبل كده، وقولتلي إنك مش الشماس؟!

نظر عادل له مندهشًا، ثم نظر إلى عصام الذي يقف خلف شريف.. فوجده مرتاعًا يبدو عليه ملامح الخوف الشديدة، وهو يتحاشى النظر إلى عينيه أيضًا.. فكّر قليلًا ثم تحدّث إلى شريف مندور:

– أنا مش إيواس.

شريف ابتسم بسخرية..

– الله.. مش إنت بتزعل لما بقلك الشماس، وقعدت تقولي أنا إيواس.. جاي دلوقتي تقولي أنا مش إيواس؟ حيّرتني معاك.. هو صحيح اسمك الجديد النهارده إيه ؟

– انا اسمي عادل مهران.. لا أنا الشماس، ولا إيواس.. إنتم مكتّفني كده ليه؟

– مش عارف ليه؟! إنت مش موّت 3 في الزنزانة اللي كنت فيها قبل كده، ولّما كنا لوحدينا بنتسجوبك كسرت إيدين أمناء الشرطة.. لازم تتكتّف كده علشان نعرف نتكلم معاك .. إحكيلي بقى.. مين اللي بيساعدك في جرائم القتل اللي إنت عملتها دي كلها، وعددكم كام، وانتم تنظيم سري، ولّا طايفة دينية جديدة؟، ولّا ملّة أهاليكو إيه بالظبط؟

خائفًا ..

– أنا ولا في تنظيم ولا في زفت ولا عملت حاجة.

– عايز تفهّمني إنك قتلت كل دول لوحدك.. أمال العيال اللي لقينا جثثهم في الفيلا معاك، وبقايا طقوس سحرية يعرفوك إزاي ومنين.. انطق يا بني وارحم نفسك ..

عادل منهارًا ..

– أنطق أقول إيه؟ مش هتصدقوني.. محدش هيصدقني.. مش أنا اللي قتلتهم.. أنا مبعرفش أدبح فرخة ..

حدّثه شريف بهدوء ..

– بص يا عادل.. لازم تعرف إني أنا هنا الوحيد اللي حاميك.. إنت عارف أهالي العيال اللي ماتو في الفيلا دوول مين، ولاّ أهالي، وأصحاب رجالة القوات الخاصة اللي موّتهم دول هيعملو فيك إيه لو خطيت خطوة واحدة بره باب القسم ده؟!.. أنا الباب الواقف في وش الموت بالنسبة لك.

عادل صارخًا:

- والله مانا.. أنا معملتش حاجة.. أنا مش عارف كل ده بيحصلّي ليه؟.. أنا عملت إيه في حياتي؟.

كظم شريف غيظه بضيق، وجزَّ على أسنانه.. فتحدّث عصام بهدوء إلى عادل ..

- قول يا عادل..مين اللي معاك علشان نقدر نساعدك.. اشرحلنا كل حاجة بالتفصيل.. علشان متشلش إنت القضية لوحدك.

عادل بضيق ..

- مش هتصدقوني .. والله ماهتصدّقوني.

شريف يلاحقه ..

- هصدّقك.. والله لنصدقك.. بس احكي يا بني قول.

عادل لا يتحدث.. ثم فجأةً ينظر بجواره ثم يهزُّ رأسه.. فيبتسم شريف بسخرية وهو يراه يفعل ذلك:

- إيه ؟.. بتعمل إيه .. ؟

- إيواس كان بيكلمني .. قاللي إني أحكيلكم كل حاجه.

- تاني إيواس.. ماشي.. ماشي.. قول وخلّصني.

بدأ عادل يشرح لهم ما حدث له في الفيلا عند هدير، ومقتلها، وصراعه مع محمود سالم، ثم رحلة هروبه إلى فيلا عائلة صديقه كريم،

وما لقي هناك من أهوال وما شاهده من أحداث حتى التقى بإيواس .. بطريقة شبه مختصرة، وأغفل ذِكْرَ تفاصيل كثيرة، ولكنه حكى معظم ما حدث له، وعندما انتهى نظر إلى من حوله يحاول أن يستشف أثر ما حكاه على وجوههم.. فوجد عصام يبلع ريقه في خوف، وجنود الحراسة ظلّوا ينظر بعضهم إلى بعض، وهم مرتاعون مّما سمعوا.. أما شريف فكان يتكيء على مكتبه، وهو يسند رأسه على يده يستمع إلى عادل في صمت، وعندما انتهى من سرده.. تنهَّد شريف طويلًا ثم قام بصفع عادل على وجهه خمس مرات بكل قوة وسرعة.. فنظر له عادل بغيظٍ شديد، وهو مذهول من رد فعل شريف الذي صرخ به:

– إنت هتستعبطلي بروح امك.. عمّال أحايل في أهلك واقولك يا بني، ويا حبيبي، وساعدتك عاملي فيها مجنون، وعمّال بترطملي بالعربي وتعملي فيها ملبوس مرة ومجنون مرة.. إنت فاكرني فاضي للعب العيال ده يا بن ال ..؟!

أكمل سبابه.. ثم هَبَّ واقفًا، وأمسك برأس عادل وهو يهدّده:

– وحياة أمك لانا منسيك إسمك.. أنا هعلّمك إزّاي لما تسمع اسم شريف مندور تقوم تكلم نفسك.

وظل يحدق في عيني عادل الذي وقف في مكانه فجأةً، وأخذ يبتسم له:

"ماذا ستفعل؟ .. ستصفعني مرة أخرى؟

شريف تفاجأ من قُدرته على أن يقف وهو مُكبَّل، ولكنه حاول منع ما ألَّم به من خوفٍ:

– أيوه.. أنا هعلّقك من رجلك على الفلكة زي العيال، وأعلّمك من جديد إزاي تحترم أسيادك يا بن ال ..

ابتسم عادل أكثر ثم حدّثه بهدوء:

– إذًا لن تحتاج إلى تكبيلي مرة أخرى ..

فسحب يديه المكبلة خلف ظهره فجأةً.. فتمزَّق القيد بسرعة، وفتح رجليه قليلًا إحداهما عن الأخرى فتحطّمت السلاسل الحديدية التي تكبل قدميه، ويديه أمامه، وهو فاتح كفيه أمام شريف الذي تراجَعَ مُتفاجِئًا مّما شهده، وتراجع معه الجنود وعصام خائفين عدة خطوات.. فنظر له إيواس:

– ها أنا جاهز لكَي تعلّمني يا سيدي كيف أحترم أسيادي.

وقف شريف وهو ينظر له مُرتابًا.. فحدّثه إيواس مُبتسمًا:

– ماذا؟.. ابتلعت الهرة لسانك؟

ثم جلس على المقعد مرة أخرى.. فصرخ به شريف..

– قوم يابن ال.. انت هتقعد قدامي، وأنا واقف ؟!

وضع إيواس قدمه على قدم..

– ماذا سوف تفعل؟.. سوف تستدعي ولي أمري؟.

وضحك بشدة.. فصرخ به شريف..

– أمّا خليتك تندم على اليوم اللي اتولدت فيه يا عادل.. مبقاش أنا شريف مندور.

وقف إيواس سريعًا ثم نظر بغضب إلى عين شريف الذي لم يتحرك من مكانه ..

– فلتسمعني أنت أيها الهِرُّ الصغير، ولتحفظ كلامي هذا بأذنيك هاتين.. سوف أقتل الجميع هنا.. إلا أنت سوف أتركك وشأنك الآن، وعندما تشعر بالأمان، وتظن أنك نجوت سوف أنزع قلبك من جسدك، وأعتصره أمامك.

شعر شريف بالإهانة أمام رجاله أكثر ممّا شعر بالخوف.. فأخرجَ مسدسه، ووضع فوّهته فوق رأس عادل:

– متغترّش بنفسك يا شمّاس.. إنت لسه عايش، وبتكلّم علشان لسه عايزك عايش، واعرف إن روحك بإيدي وقت ما هعوزك تموت.. هتموت، ومالكش ديّه إنت، وأهلك كلهم.

فجأةً اختلف سلوك عادل للنقيض فصرخ فجأةً:

– أرجوك متموّتنيش.. مش أنا اللي كلّمتك كده يا باشا، والله مانا.

ثم وضع يده فوق رأسه، وهو خائف، ويترجى شريف للإبقاء على حياته.. شعر الجميع بالاندهاش من أسلوب عادل المُغاير، وشعر شريف بالغرور مرةً أخرى والنشوة عندما رأى عادل يترجاه، وهو خائف، ورأى في ذلك تعويضًا له عن إهانته أمام رجاله، فسحب سلاحه إلى مكانه مرة أخرى، ونفخ صدره بفخر، وهو ينظر إلى رجاله مرة أخرى، وصرخ في جنوده ..

– رجّعوه تاني للزنزانة بتاعته.

فاقترب منه الجنود وهم يصوبون أسلحتهم جهته، وأمسكوه من يده وهم خائفون وانساق معهم عادل، وهو مستسلمٌ لهم، وتبقّى بالمكتب بعد انصرافهم شريف، وعصام الذي جلس على المقعد أمام شريف منهارًا واخذ يحدثه بلهفةٍ ..

– تفتكر يا باشا الواد ده بيتكلم بجد؟، وإن السحر، والحاجات اللي حصلتله دي حقيقي؟!

مستنكرًا :

– إيه اللي بتقوله ده يا عصام؟ ده أنت راجل مثقف.. سحر إيه، وعفاريت إيه اللي بيحكي عليها؟.. الواده ده حاجه من الاتنين.. يا إما يكون مجنون، وعنده شخصيتين.. يا إما يكون بيستعبط ووراه عصابة، والظاهر إنهم بينفذوا مخطّط خطير للغاية في قلب البلد، وده اللي أنا متوقعه لأنه حتى لو مجنون مش هيقدر يخلّص لوحده على 10

رجال مدجّجين بالسلاح من رجالة العمليات الخاصة.. أكيد في حد بيساعد الواد ده.. قوات تانية مدرّبة ومجهّزة بأحدث الأسلحة كانت موجودة في الفيلا ساعة الاقتحام، وهي اللي عملت كده.

– بس يا فندم.. إحنا فتّشنا الفيلا كلها ملقناش أي حد غيره، واللهم احفظنا الميتين اللي هناك .."

شريف ينظر إلى الأرض، وهو يحك ذقنه ..

– أكيد..أكيد..في باب سري في الفيلا دي..يمكنّهم إنهم يدخلوا، ويخرجوا منهم تاني من غير ماحد يحس.. أنا عايزكم تروحو تفتّشو الفيلا دي تاني، وتقلبوها من فوقها لتحتيها.. إن شاء الله حتي تهدوها.. شوفولي المخبأ بتاعهم فين؟.

غادر شريف مكانه، وذهب إلى مكتبه وارتدي جاكت بدلته واستعد للمغادرة:

– بقولك إيه يا عصام.. أنا رايح أستجوب العيّال بتوع الميتال اللي صحابهم ماتوا في الفيلا.. عايزك تتحفّظ على الشماس زي عينيك.. ميخرجش بره زنزانته، ولا في بني آدم يدخل أو يخرج طول منا مش موجود.

هزّ عصام رأسه ثم تركه شريف ويخرج من مكتبه مسرعًا ..

***

جنديان ينظران إلى عادل من خلال نافذة الباب الصغيرة وهو في زنزانته ويتهامس بعضُهم مع بعضٍ ..

- شفت ياض يا عوض.. اللهم احفظنا المسجون ده.. شفت كسر الكلابشات إزاي يا وله ..

فجاوبه عوض خائفًا ..

- لأ، وكله كوم، ولما برطم بالتركي للباشا شريف كوم تاني، وبيقولوله اسمعني أيها الهر الصغير سوف مش عارف إيه، وهعمل فيك إيه.. هو ياض يا حامد يعني إيه الهر الصغير اللي قال عليها دي ..؟

أشاح حامد بيده بضيق ..

- وأنا إيش عرفني أنا يا عم.. شايفني بتكلّم تركي؟!

رفع عادل وجهه لهم وهم يتحدثون، ونظر إليهم بغضب ..

- يا نهار إسود ده بيبصلنا ياض يا عوض.. اخلع يا واد.. اخلع.

ففروا هاربين وهم خائفون ..

***

إخترق شريف مندور الطُّرقة الطويلة داخل القسم وتوجَّه للخارج.. فركض وراءه المجند جابر وهو يصرخ عليه ..

- شريف باشا.. يا باشا..

إلتفت شريف وراءه سريعًا فرأى جابر يركض بتجاهه فتجاهله ومشي بطريقه.. فأسرع جابر في ركضه، ولحق به.. فحدّث شريف، وهو يمشي خلفه، وشريف لا يعيره اهتمامًا ..

- شريف باشا.. أقدر أعرِف إنت مدي تعليمات مروّحش ليه؟

حدّثه شريف، وهو يمشي بطريقه، وبدون اهتمام ..

- إنت هتبات في القسم الفتره دي لحد مانخلص قضية الشماس.

جابر حدثه بغضب ..

- أبات في القسم ليه يا باشا؟ ثم أنا مالي ومال القواضي ولا نيلة.. أنا رديف فاضلي 5 أيام وأخلص جيشي خالص، ولمؤاخذة أنا هاروح ومحدش له عندي حاجه بقى.

نظر له شريف بلا مبالاة ثم أسرع في مشيه.. فحاول جابر أن يلحقه ..

- ماشي يا جابر روّح بس علشان تبقى عارف إن لو لقينا مجند بيبع حشيش حتى ولو آخر ساعه في جيشه.. بيفقد دفعة، وبيتسجن، ومش في السجن بتاعنا.. لأ في السجن الحربي، وإنت عارف السجن الحربي عامل إزاي؟!

يُصعق جابر من كلام شريف الذي وقف وابتسم له ..

- هتبات في القسم متروّحش.. نخلّص قضية الشماس، وهتروح، وإنت مخلّص جيشك، ومعاك هدية مني للعروسة.

ثم تركه، وذهب في طريقه، وجابر ينظر له، وهو يغادر وهو يجز على أسنانه.

***

وجد عادِل نفسه في الغرفة المظلمة مرة أخرى، ووجد أمامه إيواس يجلس على مقعده كالسابق، ولكنه لا يبتسم له مثل السابق .. فشعر بالخوف الشديد وتذكّر إحساس الموت الذي مَرَّ به خلال السابق.. فنظر إلى إيواس، ولم يتحدث.. فنطق إيواس سريًعا ..

- هل علمت مع من تتكلم الآن أيها الصَغير؟

عادل لم يُحرِّك شفتيه وفضَّل الصمت التام..

فتحدّث إيواس مسرعًا..

- عندما أتحدث معك أظهر لي احترامك.

فنظر عادل إليه خائفًا ..

- حاضر.. حاضر.. أنا أسف، ومش هكرّر اللي عملته تاني.

- هذا الأفضل لك.. إني أستطيع أن أُشعرك بالموت ألف مرة باليوم الواحد لدرجة أن تتمنى الموت فعلًا، ولن تحصل عليه.. أنا لست كالشرطي البشري ذلك.. أُهدِّدُ الآخرين بسبب سطوتي،

ونفوذي بينهم.. أنا أُهدِّدُ الآخرين من منطلق قوتي، وقدرتي.. قوتي وحدي من تخوّل لي أن أفعل ما أريد.. أن أقاتل من أشاء، وأُحقّق ما أشاء.. إياك ثم إياك أيها الصغير أن تنسى أنك عندي مجرد بدلة غطس.. مجرد بدلة أستطيع أن أرتديها وقتما أشاءُ وأن أمزِّقُها وألقيها في النفايات وقت ما أريد.. أنا أعلمُ أن حياتكم أيها البشر صغيرة، وتافهة.. هي عندنا كدورة حياة الذبابة.. غاية وجودها في العالم أن تنشر الأمراض، وتثير الاشمئزاز، ولنعلم كم ستكون الحياة رائعة بدونهم.. هذا هي آراؤنا بكم.. نعم أنا في حاجةٍ إليك الآن، ولكن لا تفهم هذه العلاقة خطأً.. أنا أحتاجُ إلى جسدك فقط، وأستطيع أن أُلغي وجودك كلية، ولكني لا أحبذ ذلك.. أنا معك الآن أو بالأدق.. أنت الذي معي الآن.. إذا شئتَ أو أبيتَ.. فيجب أن تتعامل معي على أساس هذه العلاقة.. أستطيع أن أُحقّقَ لك كل ما تحلُمُ به.. أيّ شيءٍ تريده أن يتحقق سوف أحققه لك أو أستطيعُ أن أُحيلَ حياتك إلى جحيم.. تعيشه في كل لحظةٍ من عمرك، ولك مطلق الاختيار.. ماذا تريدني أن أكون لك .. عدوًّا .. أم صديقًا؟

عادل فكّر سريعًا في كلام إيواس وهو يرفضه، ولكنه نظر إلى موقفه بتجرد شديد.. فهو الآن في وسط الشرطة متهم بجرائم قتل كثيرة، وفي وسط معركةٍ ما بين مخلوقات من خارج هذه العالم، وإيواس ما زال يملك الغلبةَ في هذا الصراع حتى الآن، وله القدرة أن يُشعِرَهُ بالجحيم مثلما حَدَثَ بالسابق.. إذًا لا يوجد خيار لأيٍّ شخص

عاقل غير ذلك .. إذا لم تستطع أن تهزمهم فلتنضم إليهم .. فنظر إلى إيواس بحزم:

– أتمنَّى .. أن أكونَ صديقَك.

فابتسم له إيواس ..

– نِعْمَ الاختيار.. أهلًا بك يا صديقي، ولأننا أصدقاء سوف أُطلعك على وضعنا الآن، أنا قوي.. قوي للغاية، ولي نفوذ وممالك لا تُعدُّ وتُحصى في عالمي، ولكني كنت مسجوننا، والآن أنا مُطاردٌ في عالِمنا.. لأسبابٍ.يطول شرحُها الآن، وأنا في حالة حربٍ مع نويت، وحلفائها، هذه الحرب الآن قد انتقلت هنا إلى عالم البشر الآن، وبالطبع أنت أصبحت جزءًا من هذه الحرب، ولأني ليس لديَّ حلفاء كثيرون هنا في ذلك العالم.. فإني سوف أعلِّمُك بعضًا من العلوم السِّرِّيَّةَ الخاصَّة بنا.. حتى تكون جاهزًا لما سيأتي .. واعلم أن ما سيأتي أغربُ بكثير مما شهدته حتى الآن.. استعد الآن لتعليمك أفضل أسلحتنا.

وقف إيواس في مكانه ثم وضع يديه على فمه وبدأ يصدر أصواتًا مكتومة.

սիրտը պաշտպանության զոհունակությամբ է սպանել այն հիմա այն ժամանակն է տեղափոխել .. խաղաղություն Opkyk

بأمر ايوااااااس"

فتحوّلت جدران الغرفة المظلمة التي يوجد بها إلى كتابات، ورسومات خليط من العربية والفرعونية وبعض اللغات الأخرى التي لم يفهما عادل، وظلت تدور مسرعة حول الحائط كالشكل التالي

जबकि बचाव पक्ष के दिल

Opkyk इसे मारने के लिए खुश अब यह शांति Bammer Iwas स्थानांतरित करने के लिए समय आ गया है

دفاع کے دل **Opkyk** اسے ذبح کرنے کے لیے راضی اب ی ہ امن **Bammer Iwas** بڑھنے کا وقت ہے جبکہ

ໃນຂະນະທີ່ ຫົວໃຈຂອງ ລັງປ້ອງກັນຊາດ Opkyk ຍິນດີທີ່ຈະ ຂ້າມັນ ໃນປັດຈຸບັນ ມັນເປັນເວລາ ທີ່ຈະຍ້າຍອອກ ສັນຕິພາບ



ظلّت تدور هذه الكلمات والحروف المختلطة بالحائط حول الغرفة وهي تصدر صوتًا شديدًا وعادل ينظر إليها مُتعجبًا.. ثم شبَّك إيواس أصابعه أمام فمه ثم رفعها إلى أعلى رأسه وأخذ نفسًا عميقًا.. فتمزقت الملابس التي على جذعه الأعلى.. ثم صرخ بكل قوة

– ຂ້າພະເຈົ້າ ປະມານ .. ريالد باهمان .. كاهوكو.

فانسحبت الكلمات التي على الحائط فجأةً، ثم التفت حول جذع إيواس، وهي ما زالت تدور حول جسده بسرعة شديدة. فصرخ بقوةٍ ..

– اسكن الجسد.. ما أيلان ايهاس..میں نے گوشت رہتے.

فتوقفت الكلمات على جسده وأصبح جسده مغطًى وموشومًا بالكلمات والحروف الخليطة من عدة لغات معروفة وغير معروفة .. ثم أغلق عينيه وظلّ يُصدِرُ صوتًا أشبه بالغمغمة بنغمةٍ واحدة: "انننننننننننننننن..بتيب..انننننننننننننننننننن..رمونت..انننننن نننننن..موت کی ہتھیلیوں سے بڑھ کر.. انننننننننننننننن .. بركات ادبرا .. بركات دين .. فالتسكن فوق كفي الموت.

وشَدَّ يديه إلى أعلى وفردَ كفيه وباعد بين أصابعه بقوةٍ.. فاختفت الحروف التي على جسده، وظهرت وشوم وكلمات عربية على كفي يديه وأصابعه بالكامل.. عادل ما زال يشاهد كل ذلك بوجوم شديد.. فتوقّف إيواس عمَّا يفعلُه وابتسم إلى عادل وأظْهَرَ لعادل كفيه وهما مملؤتان بالوشوم والكلمات الغريبة، وبعضها باللغة العربية..

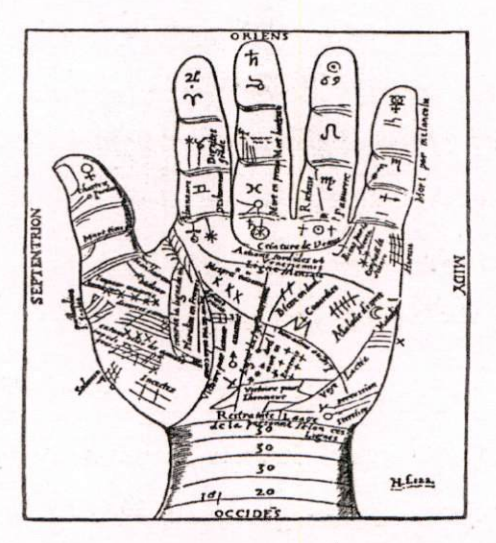
– أنت تسأل: ماذا أفعل الآن؟.. سوف أخبرُك بسِرِّي هذا.. إن استخدام السحر، والطلاسم يختلف في عالمنا بين كل نوع، وآخر.. لكن جميعها تشترك في إلزامية رسم الطلاسم، وإطلاق بعض الكلمات والأصوات، وذلك يأخذ كثيرًا من الوقت، والوقت في المعارك هو الرفاهية التي لا تملكها، ولذلك.. طورتُ أنا أسلوب خاص بي لا يعلمه إلا خاصة الخاصة من عائلتي وجنودي، وهو كف الموت.

وأشار إليه بكفيه ..

– إني أرسمُ الطلاسم المهمة التي أحتاجُها كثيرًا كالاستدعاء والتصريف وغير ذلك وأضعُها على جسدي.. وأضعُ الطَّلاسِمَ التي أحتاجها على كفي يدي، وأقوم بوضع معين بكفي وأضعه على جسدي هكذا ..

قام إيواس بضم كفيه وشبَّك أصابعه، ثم وضع يده اليمني على صدره من أعلى فظَهَرَ طلسمٌ على صدره بسرعة، ثم ابتسم إلى عادل:

– وهكذا أصنع الدوائر السحرية سريعًا على جسدي، لا يهمُّ وجودي في أيِّ مكانٍ مناسبٍ أم لا، وهذا هو سِرِّي العظيم .. سوف أُعطيك كفَّ الموت الآن، فالتمتدَّ يده بقوةٍ أمامك ..



فمَدَّ عادل يده وفرد كفَّيه بقوةٍ كما طلب منه إيواس .. ثم وضع إيواس كفيه أسفل كفي عادل ثم غمغم بقوةٍ:

""انننننننننننننننننن..بتيب..انننننننننننننننننننننن..رمونت.. نننننننننننننن.. موت کی ہتھیلیوں سے بڑھ کر .. انننننننننننننننن .. بركات ادبرا .. بركات دين .. فالتسكن فوق كفي الموت"

لحظات، وشعر عادل بكفي إيواس تسحبان كفيه بقوةٍ، فنظر إلى إيواس خائفًا، وشعر بحدوث تنميل قوي في كفٍّ يديه، وبدأت تظهر الرسومات، والطلاسم على كفي يديه.. فسحب إيواس يده من يد عادل، وابتسم له ..

– ما رأيك الآن؟!

نظر عادل إلى يديه وهما موشومتان، وظل يُقلّبُهما مندهشًا مما رآه.. فتحدث إلى إيواس وسأله ..

– طيب دلوقتي.. كف الموت ده هيعملي إيه؟ هستفيد منه إزاي؟

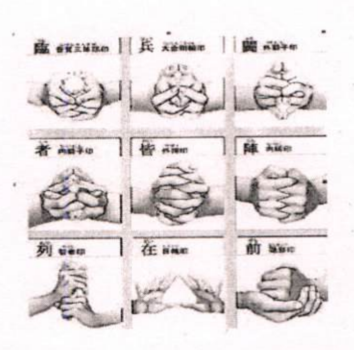
– لا تستهن بقوةٍ الكف.. فالجميع ظل يقدس الكفَّ منذ زمن بعيد.. لقد تعلّمت كف الموت هذه من أحد الملوك في عالمنا يُدعى أومتا رابينيش، وتدعونه أنتم في عالمك باسم أوم.. **om**، وأوم هذا أول من اكتشف قوة علوم الكف ونقل بعضها للبشر، وظهرت بالهند قديمًا.. ثم انتقلت إلى الكهنة البوذيين الصينيين، والكوريين الذين نقلوها بدورهم إلى اليابانين.. الذين حولوها إلى علوم سريةٍ للقتال وسموها كوجي **kuji** ولكنهم قسموها إلى **9** أفرع فقط، وتركوا معظم هذا العلم، وبعضهم أخَذَ جزءًا منه أيضًا وحوله لنوع من قراءة المستقبل، ومعرفة الغيب.. سوف أُعلّمُك ما يفيدك في قتالنا القريب، فقط فلتشاهدني الآن وأنا أؤدي أكثر من وضع لفنون كف الموت.. فلتشاهد جيدًا".

وبدأ إيواس بوضع يديه بأوضاع مختلفة مستخدمًا كفيه الاثنتين وفي بعض الأوقات كفًا واحدة فقط، وتفاجأ عادل بوجود بعض الحركات التي علمه إياها إيواس ووجد الكثير من البشر يستخدمونها .. مثل هذه التحية الشهيرة..



التي اكتشف أنها نوع من أنواع الاستدعاء، ولكن يجب أن تكون لديك هذه الوشوم على يديك لكي تنجح بالاستدعاء، ووجد أن الكثير منها نستخدمه في حياتنا اليومية دون أن نعلم مثل بعض هذه





انتهى إيواس من تعليم عادل بعض هذه الأوضاع ..

– سوف أبلغك فيما بعد كيف تستخدم كل وضع من كفي الموتى على حدة ومتى وأين وما الغرض من كل وضع، ولكن ليس الآن .. لأني أعلمُ أنك لن تستوعب كل ذلك في هذه اللحظة.

هَزَّ عادل رأسه في فرحٍ، وهو ينظر إلى يديه الموشومتين، ويعلم أنه قد اكتسب قوة جديدة.. فنظر إلى إيواس، وهو يقول في نفسه:

– إنه عندما يُتقِنُ هذه الأمور سوف يُطبِّقُها على إيواس نفسه، ويقتله .. لينتقم منه لما فَعَلَ به ..

تجلس هايدي على إحدى الأرائك وهي تبكي.. وبجوارها بوجي، وخلفهما يقف بعض أهلهم وذويهم ينظرون إلى شريف مندور الجالس أمامهم بضيق .. فيُلاحظ شريف ذلك .. فيحاول أن ينهي تحقيقه سريعًا..

– طيب يا آنسة هايدي.. يعني انتِ متعرفيش حاجة عن اللي حصل جوه الفيلا دي بعد ما مشيتم، ولا إيه السبب اللي اتقتلو علشانه؟

فيقاطعه بوجي سريعًا ..

– زي ماقلنالك يا فندم.. بعد ما جنا هي وزمايلنا كتّفوا الشماس وابتدو يعذبوه إحنا مقدرناش نستحمل الموقف ده، ومشينا من الحفلة بعد مارفضو انهم يسلموه للبوليس .

شريف يمسك رأسه متعجبًا ...

– يعني زمايلكم وجنا هما اللي عذبو الشماس.. طيب إزاي ..؟

يتدخل أحد الأهالي في المحادثة:

– أظن كده خلصت أسئلتك يا حضرة الظابط، ويا ريت تراعي حالة الولاد المنهارة.. الحمد لله إنهم سابوا الحفلة بدري، ولا كان هيعمل فيهم الشماس زي ما عمل في زمايلهم.!

فيحدثه شريف بابتسامة صفراء ..

– طبعًا يا فندم.. أنا مقدر اللي هما فيه.. بس سؤال واحد، وهمشي على طول.. إنتم لما كنتم في الحفلة في اليوم ده.. مشفتوش أي أشخاص غريبة؟ .. مجموعة اندسّت في وسطيكم؟ ملامحهم .. مش مصرية؟.. أجنبية؟ .. أفريقية؟ .. يعني تحس إنهم مش مصريين؟

هايدي نظرت إلى بوجي ..

– لأ.. مشفتش حد غريب مابنّا.. غير الشماس بس .. لما ندهت علينا جينا ولقيناه مُغمى عليه، وكتفناه ساعتها.. معتقدش إني شفت حد تاني .

فينظر شريف إلى بوجي الذي يهزُّ رأسه نافيًا ..

– لأ ما شفتش حد غريب برضه.. بصراحة مكنتش مركز قوي.

– طيب عددكم كان كام تقريبًا؟

– حوالي ثلاثين .. خمسة وثلاثين .. حاجة زي كده.

– طيب عايز تقنعني إن الشماس لوحده.. وسط ثلاثين واحد عمل كده، ومكنش حد معاه، ولا بيساعده؟

ينظر إليه بوجي بضيق ..

– إنت بتسألني أنا؟ .. هو انا اللي هعمل شغلكم ولا إيه؟

فنظر إلى والده خلفه وصرخ به ..

– بابا .. أنا زهقت .. مش هجاوب على حاجه تاني.

فصرخ الرجل بشريف ..

– الولاد تعبانة مش قادرين يتكلموا.. تنفضل لو سمحت .

شريف يبتسم له ويقوم بتحيته ويغادر ..

يتركهم شريف ويغادر خارج باب الفيلا التي يسكنون بها، وينصرف في وسط مراقبة حراس الفيلا، ويُخرِجُ هاتفَه المحمول ويضغط بعض الأرقام ويضعه على أذنه ..

– ألو.. أيوه يا سمي .. إزيك يا حبيبي، وإزاي الحاجة.. الحمد لله.. بقلك يا بوسمرة.. خدمه لاخوك.. هاحول محضر للنيابة باسم العيال بتوع الميتال دول هايدي، وبوجي.. هابعتلك أساميهم بالتفصيل.. دول همتهم إنهم ساعدو الشماش في قتل أصحابهم.. وعندي كام محضر كده سُكر على مخدرات.. على شعوذة.. هظبطهملك وابعتهملك معاهم.. عايزك تجددلهم **45** يوم يا حبيبي .. أنا عارف .. معلش .. هعوضهالك في حاجة تانية .. لأ .. الشماس بقى حضرتك اللي هتجيلي القسم معلش .. إنت عارف القضية دي البلد كلها عنيها عليها، ولو الواد خرج بره القسم أهالي العيال هيقطعوه.. ماشي يا بوسمره.. ماشي يا حبيبي، والنبي خلّي الحاجة تدعيلي، وحياة ابوك إحنا ماشين في الدنيا بدعواتهم؟ طيب خلاص .. ماشي يا حبيبي سلام ..

يغلق هاتفه المحمول وهو يحدث نفسه بضحك:

– أنا هوريكم تطردوني مني بيتكم إزاي يا شوية مليونيرات!.. لو مبستوش جزمتي .. مبقاش أنا شريف مندور.

***

عصام يجلس في مكتبه بحيرة شديدة.. ينظر إلى ساعته مُتأفِّفًا، ومُتحيرًا.. الوسواس يأكل عقله.. يبحث عن إيجابات منطقية لما شاهَدَه، ويأمل بأن يجد إجابةً أو أحد الحلول من صديقه الطبيب النفسي الشهير معتز الكاتب.. الذي دخل عليه مبتسمًا، ومُتهلِّلًا..

– إيه يا عم.. الدنيا طارت خمستلاف رنة في التليفون.. إيه في إيه؟..

عصام قافزًا من مقعده فرحًا سعيدًا بحضور معتز إليه.. فاحتضنه بسرعة وسط شعور معتز بالاندهاش:

– أنا مبسوط إنك جيت يا معتز.. إلحقني بسرعة ..

معتز ضاحكًا ..

– ما لك يا بني؟ إيه اللي حصلك؟ .. إنت اتجننت ولا إيه؟

– هتجنن يا معتز فعلًا.. هتجنن.. الكام يوم اللي فاتو دول.. شفت فيهم حاجات خلت شعري يشيب ..عايزك ترسّيني على بر.. اللي شفته ده حقيقي ولا لأ؟.. عايزك تعرفني فعلًا الحاجات دي معانا وعايشة وسطينا، ولا الواد ده كداب؟،وممثل كبير قدر يخدعنا كلنا؟"

معتز مرتابًا ..

– قصدك على مين؟

– الشماس يا معتز.. الشماس.. هايجنن أمي .. ابن اللذين ..كل شويه بشخصية شكل، وبأسلوب، وبكلام شكل . مرة عادل، ومرة الشماس، ومرة إيواس.. أنا عايزك ترسّيني على بر .. تديني عُقّاد نافع الله يكرمك.. أنا مش عارف أقعد مع أهلي، ولا أنام.. بقيت عصبي جدًّا، ومش طايق حد علشان كده مابقتش أروح، وقاعد هنا على طول.. أنا بتجيلي كوابيس على طول.. مبقتش أعرف أقعد في الضلمة أنا أعصابي اتدمرت يا معتز .. مش قادر ..

– بس .. بس .. بس .. ليه يا بني ده كله .. إيه يعني اللي حصل هي أول أو آخر قضية هتشتغل فيها؟

– مانت متعرفش حاجة .. إنت إيه اللي عارفه عن الشماس؟

– العادي.. اللي بشوفه في التلفزيون وبقراه على النت.. إنه قاتل متسلسل.. زيه.. زي أي قاتل متسلسل بيبيقى ليه طقوس أو بيجمّع تذكارات، وفي بعض الإشاعات على النت بتقول إن الشماس ده مش هو القاتل الوحيد، وإن في طايفة دينية جديدة اسمها الشماسين الجدد ليها أفراد في أنحاء العالم.. هي دي طقوسهم، وإن عادل مهران الشماس ده فرد منها، وهو اللي قدرتوا تقبضو عليه هنا في مصر.. لكن ليه شركاء كتير في مصر غيره بيقومو بجرائم القتل دي معاه..

لأن مستحيل شخص واحد يقدر يقوم بالمجزرة اللي حصلت في الفيلا المهجورة بتاعت المعادي دي.. ده بيقولوا في حوالي ثلاثين واحد ماتوا فيها لوحدهم .. بص كده.

أخرج معتز هاتفه المحمول وعَرَضَ بغض الصور على عصام..

– دي صور من جوه الفيلا.. شايف صور الطقوس، والرسومات الشيطانية الخاصة بالطايفة أهه.

شعر عصام بالصدمة عندما رأى بعض الصور المُسرَّبة من داخل الفيلا إلى الإنترنت، ووجد بعض الصور التي لم يرَها بالفيلا أو لم يستطع عقله أن يركز عليها في تلك اللحظة.

فنظر إلى عصام بذهول ..

– هما جابو الصور دي منين؟ .. اتسربت إزاي؟

ابتسم إليه معتز ..

– زي الناس .. يا حبيبي .. إنت في عصر المعلومات والسموات المفضوحة.. مش المفتوحة.. أي معلومة أو حاجة عايز تخبيها مش هتعرف.. يا عم دي في ناس بتسجل للرؤساء مش عايزهم يسربو صور من جوه تحقيق في قضية مشهورة زي دي.

– أنا أول مرة أسمع عن موضوع طايفة الشماسين دي.. دي معلومة مهمة جدًّا في تحقيقنا.. لو الكلام ده صحيح.. يبقى احنا داخلين على موضوع كبير.. كبير قوي.. أنا عايزك تبعتلي الصور

دي والحاجات بتاعت الفيس بوك اللي بتكلم عن طايفة الشماسين دول .. إنت كده هتخلينا نغير مجرى التحقيق بالكامل.

– بس كده.. خد يا عم اللي إنت عايزه، افتح البلوتوث وأنا هابعتلك كل حاجة.

يضغط عصام على مفتاح بجوار مكتبه فيدخل جندي مسرعًا إلى المكتب فيحدثه بسرعة ..

– هاته يا حامد.

الجندي يعطيه التحية العسكرية :

– تحت أمرك يا باشا.

ثم يغلق الباب، وينصرف بسرعة.

فينظر معتز إلى عصام مندهشًا ..

– هيجيب مين يا عصام؟!

ينظر له مبتسمًا ..

– هيكون مين يا معتز.. الشخص اللي هيجنني.. عادل مهران.. الشماس!

يعتدل معتز في مكانه ويبدو عليه الصدمة ..

– الشماس .. هاتجيبه هنا .. ليه ..؟

– عايزك تعرفلي.. هو مجنون، ولا ملبوس،ولا بيمثل، وبيستعبط؟

– انت جايبني علشان كده.. مش كنت تبغلني أهيأ نفسي نفسيًّا و.

– يعني مش هتعرف تحلله نفسيًّا دلوقتي يا معتز.. أمال عملي فيها مشهور وبتطلع في الفضائيات ليل ونهار والكشف بتاعك ب**2000** جنيه.

– يا سيدي من غير ماشوفه.. معظم القاتلين المتسلسلين بيبقو.. شخصيات سيكوباتية .. بحتة.

– يعني إيه سيكوباتية .. أنا بسمع عنها بس مش عارفها.

– سيكوباتي يعني.. إن الشخص يبقى معتل نفسيًّا، وعنده خلل في سلوكه، ونفسيته، ويتكلم قدامك طبيعي جدًّا، ويبقى كمان محبوب وسط الناس، ويقدر يأثر في الآخرين بكل سهوله.. يعني مستحيل تقول عليه مجرم أو مجنون من أول مرة.. لازم تكون معاشره.. أو عارفه من زمن بعيد .. علشان تقدر تحدد شخصيته، وأنا واثق إن الشماس .. شخصية معتلة نفسيًّا، وسيكوباتية.

يدخل خمسة جنود يشكلون دائرة ويحملون أسلحتهم ويوجهونها جهة عادل الذي يقف في وسط الدائرة التي يشكلونها.. ثم دلفوا جميعًا من الباب، وأفسحوا الدائرة التي صنعوها أمام عصام، وصديقه معتز الذي ألقى مشهد دخول الشماس إلى المكتب هيبةً في قلبه.. فظل ينظر لعادل ويتفحص جسده بالكامل، وهو مُكبَّل بيديه أمامه،

ويبدو على وجهه علمات الأرق، والإرهاق، وعيناه حمراوان محدقًا إلى الأرض.. مشهد لم يكن يتوقع أن يرى فيه الشماس هكذا.. هذا الشخص الذي أصبح أسطورة على مواقع التواصل الاجتماعي داخل مصر وخارجها.. نظر معتز إلى صديقه عصام فوجد ملامح الهلع على وجهه عندما رأى عادل.. فطلب معتز إلى الجنود أن يُجلسوا عادل أمامهم فأجلسوه على المقعد أمام معتز .. ثم وقف الجنود أمام الباب، وهم ينظرون إلى عادل بتحفُّزٍ، والذي ما زال ينظر بالأرض متجاهلًا ما حوله.. فنظر عصام إلى معتز ثم أشار إليه برأسه دون أن يتكلم جهة عادل لكي يحدثه.. فهز معتز رأسه بالإيجاب.. ثم شهق نفسًا كبيرًا وزَفَرَهُ ببطء، ونفخ صدره، وأخرج من ملابسه قلمًا وورقة، وبدأ يحدثه ..

- عادل .. عادل .."

ما زال عادل ينظر إلى الأرض، ويتجاهل معتز.. فنظر معتز إلى عصام الذي يبدو خائفًا وأشار بيده أن يكمل حديثه معه بسرعة.. فتحدَّث معتز إلى عادل مرة أخرى ..

- عادل .. يا عادل .. طيب يا شماس .. يا إيواس.

فنظر عادل إلى معتز بأسفل عينيه فجأةً.. فتسرب الخوف إلى قلب معتز من نظرته المفاجئة هذه، ولكنه تصنَّع القوة.. لكي تكون له اليد العليا في هذا اللقاء الأسطوري الذي سوف يتحدث عنه على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي عند انتهائه.. لكي يستطلع آراء

الخمسة آلاف شخص من أصدقائه الذي يتوقع أن يصبحوا أضعاف ذلك عندما يتناول حديثه مع الشماس الذي يحدث الآن ..

فبدأ ينادي على عادل مرة أخرى بالاسم الذي قام برد الفعل به:

– إيواس.. إنت إيواس اللي معايا دلوقتي.. مش عادل، ولا الشماس؟

فرفع عادل رأسه ..

– هذا يعود إلى من ترغب أنت بالتحدُّث معه.

– أنا عايز أكلم عادل.

– حسنًا .. معك عادل الآن.

فنظر عادل إلى مُعتز مندهشًا ..

– إنت مين؟

فنظر معتز إلى عصام الذي كاد أن يقفز من مقعده على المكتب، وتحدَّث إلى معتز بخوف ..

– شفت ..أهو قلب .. أهو.

فنظر معتز إلى عادل مُتسائلًا ..

– إنت عادل؟

فنظر إليه عادل ولم يتحدث.. فحدثه معتز سريعًا..

– لو إنت عادل .. أمال مين إيواس ده يا عادل؟

فنظر عادل إلى عصام الذي ابتلع ريقه بصعوبة ..

– مش أنا قلتلكم مش هتصدقوني!!

فتحدث إليه معتز برفق..

– متقلقش.. أنا هاصدقّك، وهاساعدك، وهقف معاك بس عايزك تحكيلي كل حاجة بالتفصيل عن الشماس، وعن إيواس.

فنظر إليه عادل بغضب شديد..

– آه.. هتصدقني، وهتساعدني.. زي جنا، وغيرها.. كلكم هتساعدوني.. كلكم هتقفوا جنبي.. كلكم هتصدقوني.

قالها صارخًا وهو يرتعش بشدة، وهبَّ واقفًا بسرعة، وانفجر صارخًا..

– أااااااه ... أنا ليه بيحصلي كل ده؟

ففزع الجميع من صراخه، وقفز عصام من على مقعد مكتبه، وابتعد معتز من أمامه خائفًا، وأمسك الجنود بأسلحتهم بقوةٍ، ورُعبٍ، وعادل يهزُّ يديه بعنفٍ، ويحاول أن يتخلَّص من قُيودِه، وهو يصرخ بهم، ويدبُّ الأرض بقدمه..

- أنا ليه بيحصلي كل ده؟..!!!!!!!اه.. هو أنا عملت إيه؟.أنا عايز أدمر العالم ده.. أنا عايز أخلص منكم كلكم.. كلكم كدابين.. كلكم بتضحكو عليا.. أنا مش عايزكم كلكم، ولا الشماس، ولا إيواس، ولا عايز حد فيكم .. آااااااه.

وظل يصرخ بشدة وعنف شديدين.. فاخترق الكثير من الجنود المكتب، ونظروا إليه، وهو يصرخ بهم، وامتلأ المكتب بالجنود، والضباط، وبعض الأفراد من المسجونين، والمبلغين الذي أخذهم الفضول لمشاهدة ما يجري فصرخ عصام بخوف ..

- اضرب.. اضرب في المليان.

نظر إليه الجنود فَزعين وبدؤوا في تجهيز أسلحتهم للإطلاق.. فصرخ بهم معتز :

- محدش يضرب .. محدش يضرب.

في ظل الصراخ وحالة الجنون والتخبُّط التي كان عليها الجميع.. رفع عادل يده فجأةً، وهو يبتسم ..

- انتظروا.. انتظروا.. لقد كنت أمزح.

ضحك بشدة.. فنظر الجميع إليه مندهشين من تغيُّر سلوكه المفاجئ.. فأشار عادل إليهم بيديه..

- اهدؤوا.. اهدؤوا جميعًا.. سوف أجلس، وسوف يعود كل شيء إلى طبيعته.

وبدأ عادل بالجلوس إلى مقعده ببطء شديد، والجميع يشاهدونه مترقبين، ومتحفزين.. فجلس، وأشار بيده لمعتز وعصام، وهو يبتسم:

- فلتجلسوا .. فلتجلسوا.

عاد عصام إلى مقعده بخوف وهو يركز عينيه على عادل ويُراقبُ ردَّ فعله، وعاد معتز إلى مقعده أمام عادل، ولكن بعد أن سَحَبَه مُبتعِدًا قليلًا عن عادل الذي نظر إليه ساخرًا ..

- آسف.. آسفٌ على ذلك.. فيبدو أن عادل قد أُصيب بانهيارٍ عصبيٍّ.

فسأله معتز سريعًا ..

- ده كان عادل .. أمال أنت تبقى مين؟

فابتسم إيواس وأشر بيده جهة الجنود والمتطفلين الذين ما زالوا بالغرفة ..

- يجب أن يكون حديثنا .. أكثر هدوءًا، أليس كذلك؟!

فنظر معتز إلى عصام:

- مَشِّي الناس دي يا عصام.

فنظر عصام إلى مُعتز مُترددًا..

ثم صرخ فيهم:

- كله بره يلا، والعساكر تقف بره على الباب، ويبقوا جاهزين لو سمعتو أي حاجة غريبة .. ادخلو على طول بسرعة.

فنظر إليه إيواس مبتسمًا، ونفّذ الجميع أوامر عصام، وانتظروا بالخارج جميعًا إلا جنديان وقفا بداخل المكتب أمام الباب، وهما مُتحفِّزان.. تحدث معتز إلى إيواس سريعًا ..

- قولّي بقي إنت مين؟

- ناديني بما تحب.. أنا لا أرى للأسماء قيمة تُذكر.. فالاسم بمفرده ليس له معنًى أو قيمة، ولكنه يخلد بين الجميع بأعمال الشخص الذي كان يحمل ذاك الاسم.

- يعني إنت شايف إنك مجهول، والناس مش شايفة أعمالك، وعلشان كده مش بالضروره تذكر اسمك.

يهز إيواس رأسه بلا مبالاة ..

- لا يهم الآن أن يعلمني الجميع، ولكن.. تأكّد أن الجميع قريبًا سوف يعلم باسمي بسبب فعلي.. فما سأفعله سوف يؤثر في الجميع بلا استثناء.

- وإنت ناوي تعمل إيه؟

- من المبكر للغاية يا صغيري أن تطرح هذا السؤال.

- بتقولي يا صغيري ليه؟.. شايفني صغير في السن؟، ولاّ مش مقتنع بيه كبالغ؟

- حسنًا .. هل أنت .. تنمو أم تكبر؟

- في فرق بين إني أنمو أو أكبر؟.. مش المصطلح واحد؟

- لأ ياصديقي.. إنك تنمو جسديًا.. كل عام.. هذا شيء بديهي.. لكن هل تكبر عقليًّا مع جسدك.. هذا هو السؤال؟.. هل تراكمت لديك الحكمة خلال هذه السنوات لكي تكون.. كبيرًا.. في كلتا الحالتين.. إنت بالنسبة لي ما زلت صغيرًا.

- يعني إنت شايف إن كل اللي قابلوك أقل منك فكريًّا.. علشان كده شايف إن كلهم صغيرين بالنسبالك.

بحدة ..

- نعم .. أرى ذلك.

يتدخل عصام صارخًا ..

- إنت لسه هتحكي.. اسأله على جرائم القتل.

يميل إيواس برأسه يمينًا، وينظر إلى معتز مبتسمًا، ويشير بسبابته جهة عصام ..

- صديقك لديه وجهة نظر.

معتز بثقة ..

– تحب نتكلم على القتل .. إنت .. بتقتل ليه؟

– ماذا تعني أولًا بالقتل؟

نظر معتز إلى عصام الذي إشار إليه ..

– رُد عليه يا معتز..

– سؤالك غريب .. مش عارف إيه هو القتل؟.

– هل تعلم أنت .. فلتخبرني إذن.

– القتل هو.. أنك تقضي على روح بريئة خلقها ربنا بدون أي سبب.

إيواس مبتسمًا:

– هذا هو القتل؟! .. إذن أنت قاتل.

معتز مندهشًا ..

– لأ طبعا .. أنا مش قاتل.

– لماذا؟

– لأني مقمتش بالقضاء علي أي روح بريئة.

– رائع جدًّا.. لم تقضِ على أي روحٍ بريئة.. إذًا.. ما تفسيرك للروح؟

- محدش عنده تفسير علمى للروح، ولكنها الشيء اللي ربنا وهبه لينا.. علشان نقدر نعيش بيه.

- حسنًا.. أنا أمتلك روحًا، وأنت تمتلك روحًا، وصديقك يمتلك روحًا، وكذلك الذباب، والطيور، والحيوانات، والنباتات.. يمتلكون أرواحًا أيضًا.. أصدُقني القول.. أنت لم تقتل الذباب من قبل.. لأنه .. أزعَجَك؟؟

معتز ينظر إليه دون أن يُجيب ..

- أوليس الذباب يمتلك روحًا أيضًا.. روحًا بريئةً قد خلقَها الله لتعيش في هذا العالم مثلما قلت سابقًا.. لو خيّروك في يوم من الأيام ما بين أن تضحّي بروحك، وبروح ذبابةٍ.. ماذا ستختار؟.. سؤالي مرةً أخرى لك.. هل أنت قاتل؟

- لأ طبعًا.. أنا مش قاتل لأني مقمتش بقتل بني آدمين زي مانت عملت.

- حسنًا .. أنت لا تعترف إلَّا بروح البشر فقط، وجميع أرواح المخلوقات الأخرى لا تعني شيئًا لك..حسنًا.. سوف أتّبع منهَجك هذا.. فالنفترض أني قتلت.. أولم يقتُلْ صديقُك أيضًا؟!

وأشار إيواس إلى عصام.. الذي ابتلع ريقه بصعوبةٍ، وبدأ يتصبَّب عرقًا ..

نظر معتز إلى عصام ثم إلى إيواس ..

- في فرق طبعًا.. هو لو قتل حد.. يبقى علشان بيطبق القانون..

لكن أنت لما قتلت خالفت القانون.

- حسنًا.. إذًا القانون هو مَنْ يُحدِّد مَنْ له حق القتل، ومن لا يمتلك هذا الحق.. مَنْ وضع القانون؟ .. من؟.

- أهل العلم اللي بيحددو إيه هو الشيء الأفضل للمجتمع.. علشان يسود النظام والأمن، ومتتحوّلش الدنيا لغابة.

إيواس يحرك سبابته يمينًا ويسارًا نافيًا كلامه ..

- لا.. لا يا صغيري.. مَنْ يحدد القانون هو مَنْ يمتلك القوة.. القانون لم يُصنع لكي يسود النظام في المجتمع، ولكنه صُنع من أجل تنفيذ رغبة مَنْ يمتلك القوة فيما يريد أن يفعله بباقي المجتمع.. فلتنظر حولك في كل مكان.. كل الدول القوية تصنع قوانين للدول الضعيفة.. تخبرهم كيف يتعلمون.. كيف يعملون.. كيف يأكلون، ويشربون، وكيف ينتجون، ويصنعون، وفي جميع أنحاء هذا الكون.. هذا هو القانون الوحيد الذي لم، ولن يتغيّر.. صديقك يمتلك حق القتل الآن باسم القانون؛ لأن من وضع القانون يرغب بذلك، وأنا أيضًا أمتلك هذا الحق لأني أمتلك قوة أعظم، وأكبر من جميعكم.

. يحطم إيواس قيوده بسهولةٍ شديدة، وهو ينظر إلى معتز الذي بدأ الهلع يظهر على وجهه، وقفز عصام من مقعده خائفًا، وهو يصرخ في الجنود ..

- أوقفوه .. أمسكوه بسرعة.

نظر إيواس بغضب إلى عصام وصرخ فيه:

- فلنتوقف الآن عن هذا الهراء، ونرى من هو القانون هنا؟

وبسرعة شديدة شكّل أكثر من وضع بيده، وصرخ:

- خاموشي.. اندهيرا..

فتشكلت على يده بعض الرموز، والطلاسم ثم قفز سريعًا، وضَرَبَ الحائط بكلتا يديه، فانتشرت تلك الوشوم، والطقوس بسرعة هائلةٍ كأمواج المياه عندما يسقط بها حجرٌ كبيرٌ، وغطّت جميع أنحاء الغرفة.. ارتبك الجميع عندما شاهدوا ذلك.

صَرَخَ عصام في الجنديين أن يُطلقا النيران على إيواس الذي في لحظةٍ واحدةٍ كان بين الجنديين ويُمسك أسلحتهما، وصرخ في آذانهما:

- سوئے ہوئے .. اسجاتو.

فسقط الجنديان مغشيًّا عليهما على الأرض بعنفٍ فارتعد عصام .. عندما سقط الجنديان على الأرض وإيواس يحمل أسلحتهما وهو ينظر إليه ..فصرخ بكل قوة طالبًا النجدة:

- إلحقونا.. إلحقونا.. حد يلحقنا.

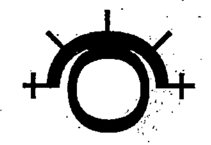
ولكنه تفاجأ بعدم خروج صوته منه بدى للحظة كأنه يصرخ في قاع الماء.. لا يجد أيَّ صوت حوله.. حاول أن يُنادي على معتز الذي وجده واقفًا مُندهشًا واجمًا لما يراه، ولكنه شعر بشيءٍ خاطئ عندما رأى على وجه معتز ابتسامة غريبة بدأت تظهر على شفتيه.. ثم اقترب من إيواس، ونظر إليه بعينين ناعستين مبتسمتين، وقال له:

- طول عمري مستنيك من زمان.

ثم انحنى على يد إيواس الموشومة بالطلاسم والكلمات الغريبة ليقبلها..فابتسم له إيواس ووضع يده على كتف معتز،وأوقفه بجواره، ثم وضع إبهامه على رأسه وحدَّثه بهمسٍ:

- تماكو نشان لگا.

فظهرت علامة كبيرة على رأسه مثل الهلال وبجواره دائرة ويخرج منها ثلاثة خطوط جانبية ..



ثم قال إيواس ..

- أنت الآن خادمي.. فلتجمع الجميع الآن.. سوف أخرج لكم قريبًا."

نَظَرَ عصام مندهشًا إلى صديقه عصام، وهو يهز رأسه، وعلى وجهه ابتسامة الرضا، ويترك إيواس، ويتجه إلى خارج الغرفة.. فيصرخ عصام في إيواس ..

- عملتله إيه؟ عملتله إيه؟ انطق .. عملت إيه في معتز؟

ولكن صوته لم يخرج أيضًا شعر بالفزع وتذكّر سلاحه الناري فأخرجه من جرابه بصعوبة وإيواس يشاهدُه وهو يضحك من ردِّ فعله، وعصام ينجح أخيرًا في إخراج سلاحه، ويبدأ بإطلاق النيران على إيواس الذي وَجَدَه يقف بجواره.. فصرخ فزعًا، ووجَّه سلاحه إليه فأمسك إيواس بسلاحه بسرعةٍ ونزعه من يده، وهمسَ في إذنه:

- لا تقلق على صديقك.. سوف يصبح خادمي، وأنت أيضًا ستكون خادمي ..عندما ..

فجأةً يجد عصام نفسه جالسًا إلى مكتبه، وإيواس يقف بين الجنديين اللذين كانا مغشيًّا عليهما منذ قليل، وفجأةً فتح باب مكتبه ويقف شريف مندور على الباب ينظر إليه بغضب ..

- إيه اللي خلاك تخرج الشماس من الحجز.. أنا قلتلك.. ما يتحركش من مكانه إلا بإذني.

نَظَرَ عصام إلى ما يحدث بدهشة شديدة.. فقد كان إيواس يقف الآن بجواره والجنود ساقطون على الأرض، وفجأةً أصبح على مكتبه وإيواس مُكبَّلٌ مرة أخرى وسط حِراسة الجنود، وشريف مندور أمامه.. متى حدث ذلك، وكيف.. هل فقد ذاكرته كم مَرَّ من الوقت هو لا يدري.. ظل صامتًا دون أن يتحدث، ولكنه ظلَّ يُراقِبُ شريف مندور وهو يسحب إيواس من يده وهو ينظر إلى عصام ويبتسم.. لحظات، وأغلق الجندي باب الغرفة، وترك عصام بمفرده بين شكوكه ومخاوفه.. هل كان يهلوس كل ذلك أم ما حدث حقيقي، وأصبح صديقه معتز تابعًا للشماس؟.. قفز سريعًا من مكانه، واتجه إلى الحائط يتلمسه، وقد أصبح صلب مثل الأول، ولم يكن يتموج كالماء مثل مارأي من قبل ثم صرخ بعلو صوته ...

– آآااااااااااااااه.

فدخل الجندي مسرعًا إليه:

– في حاجة يا فندم؟"

فحدثه عصام باندهشٍ:

– إنت سامعني يا عسكري .. ؟

– أيوه يا فندم.. أنا سامع حضِرتك طبعًا..

– يعني صوتي واصلك بره؟

– أيوه يا فندم واصل.

- طيب.. هاتلي قهوة بسرعة، واقفل الباب وراك.

أغلق الجندي الباب مسرعًا، وعصام يمسك يده غير مصدق لما حدث، وظَنَّ لحظات أنه يحلم.. أخرجَ هاتفه واتصل بمعتز الذي لم يرد عليه نهائيًّا.. فكّر قليلًا.. ثم أخرج سلاحه الناري من جيبه وفكّه وعدَّ الذخيرة ووجدها ناقصة طلقتين.. ثم شمَّ فوّهة السلاح الناري فاشتم رائحة البارود المحترقة..

- كنت عارف.. أنا مبخرّفش.. اللي شفته فعلًا حصل حقيقي.. يا نهار اسود .. يا نهار اسود .. هتصرف إزاي دلوقتي؟.

***

يجلس كريم على يمين المذيع المُتأنّق قاصي الذي يرتدي بدلة فاخرة للغاية ويجلس إلى مكتبٍ ذي تصميمٍ إيطاليٍّ وإلى مقاعد مصنوعة في ألمانيا، ومصمم ديكور نمساوي.. هذا ما كان يتفاخر به المذيع قاصي مع ضيوفه الجالسين إلى جواره من جهة اليسار، وهم ثلاثة أشخاص في نهاية السبعينيات يرتدون بدلًا فاخرة ويبدو عليهم الثراء الفاحش.. لم يتحدث المذيع قاصي مع كريم سوى بكلمتين للترحيب به، ثم بدأ البرنامج يُذاع على الهواء.. فتحدَّث المذيع إلى الكاميرا التي أمامه، والتي بدورها تنقل هذا البثّ إلى جميع منازل مصر في تلك اللحظة..

- عدنا معكم حضرات السادة المشاهدين، ونتابع في آخر فقرات الحلقة اليوم قضية شغلت الرأي العام كثيرًا ألا وهي قضية الشماس..

التي بات اسمها معلومًا للجميع داخل مصر، وخارجها، وتحقّق الشرطة معه الآن.. سوف نستقبل تعليقاتكم على صفحات التواصُل الاجتماعي الخاصة بالبرنامج، ونستقبل اتصالاتك على الأرقام الظاهرة على شاشة التلفزيون أمامكم، وتسمحولي قبل ما نرحب بضيوفنا أذكركم بالتبرُّع لصالح صندوق العشوائيات التي يرعاها البرنامج لكي نستطيع أن نكفل الفقراء في هذا الوطن .. الأرقام على الشاشه الآن، و أعرفكم بضيوفنا النهاردة.

يشير إلى يمينه جهة كريم:

– السيد كريم حمدي، وهو صديق المتهم عادل مهران الشهير إعلاميًّا باسم الشماس.

ثم أشار إلى يساره جهة ضيوفه الآخرين:

– ونرحب ببقية ضيوفنا النهارده.. سيادة اللواء السابق محمود مأمون الخبير الأمني والاستراتيجي بمركز ابن سعدون، والأستاذ الإعلامي الكروي الشهير حمدي مساعد، والمستشار المحترم توفيق مندور.. أهلا بيكم جميعًا.

– نبدأ حوارنا بسؤال للخبير الأمني، والاستراتيجي سيادة اللواء محمود.. إيه رأي حضرتك في القضية بتاعت الشماس؟.. شايف إن وجود النوع ده من القضايا في خطر على الأمن القومي المصري؟

كريم ينظر إليه مُستنكرًا ما يقوله، ولكن سرعان ما يتجاهله، ويتابع كلام الخبير الأمني الذي بدأ حديثه مُبتسمًا للكاميرا..

– أنا بحب أطمن حضرتك يا أستاذ قاصي.. إن مصر الحمد لله محفوظة من أي شيء، وده من أيام الفراعنة، والفضل لده يعود ليقظة رئيسنا، وقواتنا المقدسة، وخبرات رجال الشرطة في النوع ده من أنواع الحروب الجديدة، وبالتحديد دلوقتي بيحاولو يدخّلوا مصر في حروب الجيل السابع عن طريق إنهم يدخّلوا بعض من جماعتهم، ورجالهم المزروعين في مصر.. من وهما أطفال، وبيبرمجوهم على الخطط دي في عقولهم وهما صغيرين علشان لما يكبرو يبقو مزروعين وسطينا ويتكلمو زيينا، ويقدروا ينفّذوا مخططات المجلس الأعلى للعالم.. اللي بيتحكم في مقدرات العالم، وشئونه دلوقتي.

فيصرخ به فجأةً كريم وهو غاضبٌ:

– إيه يا عم اللي انت يتقوله ده؟.. يزرعو إيه؟.. هيزرعو أطفال.. إنت بتخرف بأي كلام وخلاص.

ينفعل اللؤاء بشدة وهو يضرب المكتب بيده ..

– أنا مسمحلكش بالإهانة دي إنت عارف انت بتكلم مين يا ولد إنت؟

ثم يصرخ كلٌّ من المستشار والإعلامي الكروي في وجه كريم بغضب ..

– آدي يا عم الشباب بتوع اليومين دول.. عيال قليلة الأدب بيقول عليَّ راجل كبير بيخرف.

المستشار صارخًا ..

– وحياة أمك.. لاعلّمك تكلّم الأكبر منك إزاي يا كلب يا خاين يا عميل يا صديق المجرم القذر الشماس.

يقف كريم غاضبًا، وهو يصرخ في باقي الضيوف، ويتدخل المذيع قاصي بسرعة، ويحاول تهدئة الجميع، وبالفعل ينجح في تهدئتهم.. ثم يتحدث إلى كريم ..

– يا أستاذ كريم حضرتك من فضلك متقاطعش الضيوف ومتغلطش فيهم أرجوك دول بيمثلو قامات كبيرة وهم من صفوة المجتمع في مصر.

– كريم غاضبًا.. يعني عايزني أسمع الكلام ده يا فندم واسكت.. هو أي حد يطلع يقول أي كلام ونصدقه؟

بيصرخ المستشار فيه:

– شفت.. شفت.. هيقل أدبه، وأنا، وحياة أمي لاعلمه الأدب.

فيصرخ كريم:

– إنت هتعلمني الأدب إنت؟

فيتحدث المذيع إليه غاضبًا:

- يا أستاذ كريم أرجوك اسكت، وخلي كل واحد يقول رأيه، وبعدين هيبقى ليك مطلق الحرية في وقتك تقول كل اللي إنت عايزه.. سجل حضرتك في الورقة اللي قدامك ملاحظاتك، وبعدين ابقى رد عليها.

كريم يهز رأسه راضخًا:

- حاضر يا أستاذ قاصي حاضر.

فيتابع الخبير الأمني حديثه:

- وزي ما فهمت حضرتك يا أستاذ قاصم إن المدعو الشماس ده جزء من مخطط ماسوني برعاية الصهيونية العالمية.. هدفه الأساسي تدمير السياحة في مصر، وإظهارها أمام العالم بأنها دولة بدون أمن، وإن الجرائم فيها تغولت، وتوحشت.. وأنا جاللي من مصدر رفيع في أحد الجهات السيادية اللي مستحيل طبعًا نشكك في كلامها إنه هتحصل عمليات تفجيرية على نطاق واسع وقضايا خطف وحرق على مستوى مصر كلها علشان يقدرو ينقذو الشماس العميل بتاعهم المزروع في مصر ومن هو طفل، وعلشان كده بحذر أي عمليات خطف أو حوادث كبيرة تحصل في مصر دي تبقى هدفها البلبلة، وتنفيذ المخطط بتاع المجلس الأعلى للعالم، ودورنا إن إحنا كشعب وإعلام لو حصل حاجة زي كده منجبش سيرتها أو نتكلم عنها والإعلام ميعرضهاش علشان نقدر نلغي المخطط الماسوني الصهيوني

العالمي على مصر،ونلتف كلنا ورا قيادتنا السياسية والشرطة بتاعتنا.. ومنلتفتش لأي إشاعات مغرضة بتقول إن في تعذيب وانتهاكات بتحدث من الشرطة.. الكلام ده محصلش، وأنا أتحدى أي حد يجبلي دليل على الكلام ده على الهواء أهه.

فوقف كريم غاضبًا:

- لأ بقى.. تقولي في عيال مزروعة زي البطاطس أقولك ماشي.. تقولي الناس تنفض لأي مصيبة والإعلام ميعرضش عنها حاجة أقولك ماشي.. لكن تقولي مفيش تعذيب هنا أقف بقى.. أمال أنا كان بيحصلي إيه الأيام اللي فاتت في القسم، واللي في وشي ده إيه؟؟ حاطط روج.. لأ في تعذيب، وانتم عالم كذابة.. جايبلي لواء على المغاش وواحد بتاع كورة والثالث عمال يشتم في خلق الله وجاين تقطّعوا في جتة الراجل الغلبان عادل ومش عايزني أتكلم؟!

ينفجر به الحضور،وينعتونه بالخيانة،والعِمالة، والكذب، والمستشار يقف له وهو يسبُّ أمَّه وألقاه بكوب المياه في وجهه وظلوا يصرخون به..

- إنت عميل، وخاين.. وجاي تدافع عن عميل، وخاين زيّك.. ضد بلدك، وأنا وحياة أمك لعلّمك إزاي تشتمني يابن ال.. أنا هوريك يابن ال ..

وانقلبت الحلقة إلى صُراخٍ واتهامات لكريم بالعمالة، وانضمَّ إليهم مذيع الحلقة الذي اتهمه بأنه أتى ليثير البلبلة، والإشاعات في هذه الحلقة، والتجني على السادة صفوة المجتمع، كل ذلك على الهواء مباشر لجميع البيوت المصرية.. فصرخ كريم غاضبًا ..

– إنتم جايين تهزأوني هنا يا ولاد الكلب؟.. عاملين عليَّ رُبَّاطية في الحلقة، أنا هوريكم.

وأمسك بحذاءه فجأةً وظلَّ يركض وراء الضيوف في الاستوديو ومَنْ يلحقه يضربه بحذائه، فصرخ الجميع وهم يهربون من أمام كريم وهو يركض وراءهم رافعًا حذاءه ويقوم بالإطاحة بهم جميعًا، ومن بينهم مذيع الحلقة قاصي الذي ضربه على رأسه، وبدأ يركض هو الآخر، وتدخَّل عمالُ الإضاءة، وحاملوا الكاميرات في محاولة لَمْنعِ كريم من ضرب باقي الضيوف، وهم يضحكون، وهم يشاهدون المستشار، وهو يسب كريم،وهو يجري، وكريم وراءه يضربه بالحذاء..

عدة لحظات، وانقطع البث من التلفاز أمام حاتم الذي ظَلَّ يضحك بشدة، وهو يجلس إلى أريكته، وكان يتابع اللقاء من خلال تلفازه.. ثم نظر إلى سيسيل الجالس بجواره بشكله الوسيم السابق، وهو يضحك هو الآخر:

– شفت يا عم سيسيل.. أهو البرنامج اللي مكنش عاجبك قلب مسرحية كوميدية أهو على الهواء.

فنظر سيسيل إلى حاتم ..

– خلاص إبقى إعمل المشهد ده في الفيلم الجديد بتاعك .. بس متهيألي مش هتعرفو تجيب ممثلين يضحكو زي الواد كريم ده.

حاتم ينظر إلى التلفاز، وهو يعرض بعض الإعلانات ويمسك رأسه ويفكر بعمق.. فنظر إليه سيسيل مندهشًا.. ما لك يا حاتم؟.. إيه اللي شاغل تفكيرك؟

يتنهد حاتم طويلًا ثم يتحدث..

– أنا عايز أقابل عادل يا سيسيل.

نظر إليه سيسيل مندهشا:

– بتقول إيه؟ عايز تقابله ليه؟ لا تكون عايز تعتذرله إنه اتهموه إنه الشماس بدالك؟!

حاتم يبتسم ساخرًا ..

– إحنا مع بعض فوق العشرين سنة، ولسه مش عارف دماغي يا سي.. أنا نفسي أشوف نظرة عينيه لما يقابلني تاني ويشوفني.

– إنت لسه منستش اللي حصل؟.. مش كفايه أهو إنه بقى مسجون مكانك في حاجة هو معملهاش؟!

نظر له حاتم بضيق.. فيحدثه سيسيل بحدة:

- متبصليش كده.. إنت عارف أنا بخليك تعمل اللي إنت عايزه..عايز تقابله قابله.. بس هتقابله فين؟، وإزاي هو دلوقتي مسجون.

ينظر له بابتسامةٍ متشفية

- أنا هاروحله القسم، وأشوفه هو متكلبش قدامي..

بحدة:

- تروحله القسم؟!..إنت اتجننت؟!.. عايز تروح الحكومة برجليك؟!

- وإيه يعني .. لما أروح محدش عارف إني أنا الشماس؟!

- ولما عادل يقولهم إنك الشماس الحقيقي ؟

حاتم مبتسمًا ..

- يقول، ونشوف هيصدّقوا مين فينا..ممثل مشهور زيي، ولاّ مجرم خطير زي عادل؟!.

- إنت كده هتفتح على نفسك أبواب شك كثير، وهتخش في مشاكل إنت في غنى عنها يا حاتم.

- إيه.. مالك يا سيسيل؟.. إنت هتخاف، ولاّ إيه يا أمير؟.. إنت نسيت إن إنت اللي علّمتني أموّت قلبي بإيدي؟!.

نَظَرَ إليه سيسيل بتحدٍّ:

– إنت عارف إني مبخفش يا حاتم.. مش الأمير هو اللي يخاف.. عمومًا اللي عايز تعمله اعمله.. بس على الله متجيش تعيطيلي وتقولي إلحقني زي قبل كده.

حاتم يبتسم بسخرية..ثم يرفع هاتفه المحمول ويضغط بعض الأرقام ويتحدث من خلاله..

– آلو.. أيوه يا باشا.. حبيبي.. الله يخليك.. أنا تمام الحمد لله.. بخير.. حبيبي كنت عايز من ساعدتك خدمه.. الله يخليك يا باشا.. معلش بس أنا كنت عايز أقعد مع اللي اسمه الشماس ده بكره يا ريت.. إيه.. صعب إزاي.. في حاجة تصعب علي الباشا.. يا باشا لأ مفيش.. بس كنت عايز بس أقابله علشان عايز أعمل فيلم جديد عن الشماس.. إنت عارف القضية دي شاغله الناس كلها، ولو عملنا فيلم عنه بسرعة هيكسر الدنيا..حبيبي.. حبيبي.. طيب الساعه كام.. تمام قوي واحده كويس جدا.. أروحلك فين.. تمام خلاص.. لا طبعًا عارف إن الموضوع سر طبعًا متقلقش.. آه..طيب يا حبيبي.. إنت تؤمر.. هجبهالك معايا بكره حاضر.. حاضر سلام يا باشا.

يغلق الهاتف سريعًا ويتحدث إلى سيسيل:

– عايز هدية ابن الكلب.. مبيعتقش حد خالص.

– هاتله هديه.. لما نشوف هتعمل إيه بدماغك الغريبة دي؟!

حاتم يقف، وهو يشعر بالضيق..

- بقلك إيه ياسي.. أنا زهقت من المكان هنا.. عايزين نغيّر جو.

سيسيل يقف مبتسمًا..

- بس كده.. غمّض عينيك.

فيغمض حاتم عينيه بسرعة..

فيسمع سيسيل:

- افتح عينك خلاص.

فيفتح عينيه ليجد نفسه وسط الصحراء بأريكته، وأمامه التلفاز الكبير ما زال يعمل دون أن يوصَّل بأي مصدر كهرباء، وخلفه بعض الشباب والفتيات يتراقصون، ويشربون المشروبات المختلفة، فيقف حاتم على الأريكة، ويبدأ يتراقص على أنغام الموسيقى مع الشباب والفتيات وسيسيل يُراقِبُه بضحك.

***

يقف جابر وصديقه أمام باب القسم يتحدثون.. يرتشف جابر جرعات كبيرة من الشاي الاسود المحروق المحبب إلى قلبه، وهو يشتكي بضيق لصديقه حامد الذي ينفث دخان سيجارته المحشوة بما لذ طاب من سموم تُغيِّب العقل وغير عابئ بوجوده أمام القسم.. فإنه من وجهة نظره منهم وعليهم ..

- أنا زهجت يا حامد.. أنا طفشت من اللي اسمه شريف ده.. مجعدني غصب عني بعد مخلصت جيشي.. بيجولي استنى لما أخلص جضية الشماس.. انا مَالي بالشماس ولا بالزفت اللي على دماغه؟!.

- معلش يا جابر.. هانت يا صاحبي.. أهو هيتحول على النيابة قريب، وهنخلص من الحوار ده.. بس نصحتي ليك.. متعاديش الباشا شريف.. ده راجل إيديه طايله، وليه كلمه مسموعه في الوزاره.. أنا عارف إن ليه عم كبير قوي هناك.

- أنا مش عارف بس هو حاططني في دماغه ليه.. أنا تعبان يا حامد.. نفسي أغمض وأفتح ألاقيني واخد شهادة الخدمه في إيدي .. 3 سنين، وشويه طالع عين أهلي فيهم خدمه، ومرمطه للبشوات ومراتتهم وعيالهم.. لو أعرف كده والله مكنت دخلت، ولا اتنيلت.. واشتغلت في الأرض زي صميده واد عمي.. بس أجول إيه بجى.. في عجلي الزنخ ده؟!

حامد يضحك بشدة فتظهر أسنانه السوداء وتخرج أنفاثه الكريهة مصاحبةً لدخان السيجارة في وجه جابر..

- وإنت بعد مخلصت خلاص جاي تقول يا ريتني ما دخلت.. إنت عبيط يلا.

جابر يضع يده على فم حامد مُتأفِّفًا ..

- اجفل.. اجفل خشمك الله يخرب بيتك.. إنت واكل جلة على الصبح.. الله يجرفك يا أخي هتخليني أجيب اللي في معدتي.!

فيضحك حامد، ويفتح فمه في وجه جابر ليجعله يشم رائحته أكثر.. فيجري جابر مبتعدًا من أمامه،وهو يصرخ به بغضبٍ ..

- اجفل.. اجفل الخرارة دي.. اجفل يابن الصرمه.

فيضحك حامد بشدة، وهو ينادي عليه ويشير له بيده..

- خلاص.. خلاص.. تعالى.. أنا هاغسل بقى بالشامبو.

يقترب منه حامد وهو مشمئزٌ..

- شامبو.. شامبو إيه يابو شامبو.. الله يرحم أمك.. كانت فاكره الجاتوه صابون.. إنت إيه اللي جابك هنا ياض.. إنت مش عندك خدمه في مكان تاني؟

- بلا خدمه بلا بتنجان.. أنا مستني الممثل حاتم فوزي.. بيقولوا جاي القسم النهارده.

- وده جاي يهبب إيه ده هنا في الجسم؟ الناس المشهورة دي.. الجسم اللي بيرحلهم مش هما اللي بيجوا.

- أنا سمعت إنه جاي علشان يقابل الشماس.. أنا سمعت كده من الظباط النبطشيه إمبارح.. حد كبير من الوزارة كلمهم وقال لهم إنه هيجي النهارده.

- وده هيتنيل يجابل الشماس ليه؟ هي الممثلين اتجننوا ولا إيه؟، وانت واجف كده من الصبح علشان عايز تشوف حتة ممثل.. بني آدم زيه زيك .

– يابا.. زيه زي إيه.. ايش جاب لجاب.. أنا لو مت دلوقتي بطلقه، ولا بقنبله حد يعبرني، ولا يعبر أمي الغلبانه.. لكن ده لو اتعوّر بس يسافروه بره يتعالج على حساب البلد، ولو مات الدنيا تتقلب صحافه، وإعلام، ومصورين، وشويه يعيطو عليه هنا، وشويه يصوتوا عليه هناك.. لكن إحنا.. إحنا غلابه ..إحنا نتفرج على الناس دي من بعيد، وبس يا جابر.

– يا عم مهما كان ده بني آدم زي زيه.. تعرف لو مين.. أنا عمري لا أروحله، ولا أسلّم عليه، ولا أتحرك من مكاني.. هو أنا لمؤاخذة زيّك؟!

تقف سيارة فارهة أمام باب القسم ويترجل منها حاتم.. الذي يرتدي حُلة سوداء ذات ماركة عالمية لا تقلُّ فخامتا عن سيارته الألمانية الكبيرة.. يشاهده حامد فيقفز فرحًا، ويتعلق بذراع جابر:

– أهو يا جابر.. الممثل حاتم فوزي أهه.. وسَّع لما أرحله.

ينظر جابر سريعًا بجواره فيجد حاتم فوزي يقف أمام مدخل القسم، ويصعد الدرج.. فيزيح حامد الذي يقف بجواره بقوةٍ:

– وسّع.. وسّع.. يابن الصرمه وسّع.

ويركض فرحًا جهة حاتم .. فيقف أمامه، ويسلّم عليه بحرارة.. فيركض بجواره حامد الذي يشاهده، ويبتسم:

– منوّر.. منوّر يا باشا.. نوّرت الجسم، والله.

فينظر إليه حاتم بابتسامة ..

– بنورك يا حبيبي .. إنت عارفني؟!

فيبتسم جابر بشدة ..

– طبعًا.. طبعًا.. إنت الفنان حاتم فوزي.. أنا شفتلك أفلامك كلها.

– كنت بتشوفها في السينيما؟

– لأ .. كنت بشوفهم على قناه توكتوك.

فيضحك حاتم بشدة ثم يقف أمام جابر، وينظر له بتمعُّن من أسفل قدميه إلى أعلى شعر رأسه.. فيُلاحِظُ جابر ذلك فيحدثه مندهشًا.."في حاجه يا باشا؟.

– إنت اسمك إيه يا دُفعه؟

– اسمي جابر يا باشا.

حاتم يقترب منه، ويضع يده على رأس جابر ثم يترل بيده على كتفه..

– تعرف إن جسمك .. متناسق قوي يا جابر!

جابر يبتلع ريقه في قلق، ويبتعد عن حاتم قليلًا ..

- الله يخليك .. الله يخليك يا باشا.

حاتم يبتسم بشدة ثم يحدثه متسائلًا ..

- هو فين المقدم شريف مندور؟

يجاوبه حامد سريعًا ..

- في الدور الثالث يا باشا .. آخر مكتب على إيدك الشمال.

حاتم يهز رأسه ..

- متشكر.

ثم يشير بيده إلى جابر ..

- سلام يا جابر .. خليك فاكر .. هنتقابل تاني.

ثم يُعطيهم ظهره، وينطلق في طريقه وهو يُحيي الجميع، وبعض الضباط يلتقطون الصور التذكارية معه في كل مكان يخطوه.. ظل حامد، وجابر يراقبانه حتى اختفى عن أعينهم.. فتحدّث جابر إلى صديقه مُرتابًا:

- ماله الراجل ده ياض يا حامد؟ .. شفته بيبصلي إزاي؟

حامد يبتسم بخبث..

- شكله عايز عسكري يمثل معاه الجزء التاني من عمارة يعقوبيان.

جابر يحتضن جسده في خوف ..

- يعقوبيان!! .. يا نهار إسود.

***

اقترب حاتم من مكتب شريف مندور فتوقف لحظة، وهمس لنفسه..

- إيه اللي انت عملته مع العسكري تحت ده يا سي.. كده هيقولو عليّا إيه.

فيستمع إلى صوتٍ هامسٍ بجواره ..

- متقلقش .. هاقولك بعدين.

فيمسح حاتم على وجهه بيده بضيق.. ثم يطرق باب مكتب شريف مندور.. ثم يفتح الباب، ويدخل.. فيجد شريف مندور جالسًا إلى مكتبه يقرأ في جريدة، ولا يُعيرُه أي اهتمامٍ.. يقف حاتم، وهو مبتسم أمام شريف:

- صباح الخير .. إزيك يا سيادة المقدم؟!

شريف ينظر له من طرف عينه ثم يتجاهله، ويتابع قراءة الجريدة.. فيشعر حاتم بالضيق من رد فعله، ويجلس إلى المقعد الذي أمام المكتب.. فينظر له شريف باندهاش ..

- إنت مين يا بني؟!

شعر حاتم بالغضب الشديد.. ثم ابتسم، وهو يجز على أسنانه، وأخرج هاتفه المحمول، وضغط على بعض الأرقام، وهو ينظر لشريف ثم تحدَّث من خلاله ..

– آلو.. أيوه يا باشا.. أنا في القسم أهه، وقدامي شريف.

ثم نظر له:

– خد كلّمه أهه.

وقام حاتم بإعطاء شريف الهاتف الذي أمسكه بيده، وسمع صوت المسئول من خلاله، وهو يقول: "آلوو .. آلوو .. شريف؟!

فنظر شريف إلى حاتم بلا مبالاةٍ، وأغلق الهاتف، وتركه على مكتبه، وهو يحدّث حاتم بحدةٍ..

– ما تقول يا بني إنت مين؟، ومين اللي دخّلك عليّا كده؟

سرعان ما رن هاتف شريف فرفعه بسرعة، وهو يبتسم..

– أهلًا يا باشا.. أهلًا يا باشا.. لا يا باشا إزاي.. أنا أقدر أقفل في وشك؟.. تمام يا باشا.. عينيّا الاتنين.. هيقابله حالًا.. آلوو.. آلوو يا باشا..

ثم أغلق الهاتف مرة أخرى، ونظر إلى حاتم، وعلى وجهه ابتسامة خبيثة:

– مش تقول لي إنك الممثل؟ لمؤاخذة معرفتكش.. أصلي مش فاضي أتفرج على الهيافات.

حاتم يبتسم ساخرًا..

– هيافات.. ممكن علشان الفن بيتطلب انك تشغّل مخك، وللأسف.. حضرتك.

شريف يهبُّ واقفًا فجأةً من كرسيه..

– "يعني أنا معنديش مخ؟..

ثم يقترب من حاتم، ويقف أمامه ثم ينظر في عينيه، ويجلس إلى المقعد الذي أمامه.

– طول عمري يا أخي باستغرب إنتم ليه واخدين أكتر من حجمكم.. حواليكم دايمًا الناس، والصحافه، والإعلام، وبتقبضوا ملايين، وانتم مجرد مجرد أراجوزات، شهوانين.. بتجرو وراء متعتكم، وبس.

– واضح إنك بتحقد علينا.

– لأ مبحقدش، ولا حاجه.. اللي تحقد عليه ده لازم يبقي أحسن منك.. لكن إنتم شوية مدمنين، وخمورجيه وقت مابتحصلكم مصيبه.. بتجروا علينا تبوسوا إيدينا علشان ننقذكم، ووقت ما نقبض على حد فيكم.. بتقعدو تعيّطوا في كل حته علشان نخرّجكم.

حاتم يهزُّ رأسه مُتأفِّفًا ..

- دلوقتي إتاكدت إن الشعب بيكرهكم ليه.. علشان شايفين نفسكم دايمًا أعلى من باقي الناس.. لكن في الحقيقه إنتم غلابه.. غلابه قوي.

- إحنا مش غلابه.. إحنا أسياد البلد اللي بننفّذ القانون، وكله لازم يطيعنا.. إوعى يا بني تكون فاكر إنكم حاجه.. انتم مجرد أراجوزات.. البشاوات اللي فوق بتلهي الناس بيكم،ولكن في الحقيقه إحنا اللي بنحكم البلد دي مش إنتم.

- فعلًا.. إنت عندك حق.. إحنا فعلًا أراجوزات بنلهي الناس عن البشوات اللي فوق، وبنطلع في أعملنا ننقدهم، ونتريق عليهم الصبح، وباليل بنقعد مع البشوات دي نتعشي معاهم على طرابيزه واحده.. تتفكر الناس العاديه مش عارفه كده؟، ومش عارفه إن احنا بنلهيهم، ونضحك عليهم.. عارفين طبعًا.. محدّش عبيط زي منتوا فاكرين.. بس على الأقل سمعوا الكلام اللي عايزبن يقولوه من شخص تاني غيرهم.. متأكدين إنه مش هيتقبض عليه، ولا هيروح ورا الشمس، ومعظم الفنانين اللي ضد البشوات اللي فوق.. بيعارضوهم علشان محدش إداهم نصيبهم في التورته لسه.. طبعًا مش كلهم كده.. في ناس صاحبة مبدأ، ودول بيبقوا قاعدين في البيت يقشّروا بصل طبعًا.. أو هربانين برّه يعيّطو على الفيس بوك، وده اللي بيحصل،

وهيحصل دايمًا، وعلى الرغم من إننا إحنا الاتنين رجالة البشوات اللي فوق.. لكن إحنا أراجوزات البشوات، وإنتم كلاب الباشوات، والناس بتحب الأراجوزات، وبتكره الكلاب.

– انا عمري ماكنت كلب لحد.. أنا ديب يفترس أي شئ يقف قدامه.

قال ذلك وهو مُنفعلٌ ويُشير إلى حاتم الذي يجلس أمامه بسبابته.. ثم تابع حديثه ..

– أنا واثق إنك وراك حاجه.. أنا عملت بحث عليك عندنا، وفتّشت وراك، وتعرف لقيت إيه؟!

ينظر له حاتم متفاجئًا.. فيتابع شريف حديثه:

– ملقتش وراك أي حاجه، ولا محضر سُكر، ولا سيجارة حشيش، ولا حتى مخالفة عربية واحده.. سجلك أبيض خالص، وانا واثق من اللي هقولهلك ده.. مفيش حد مبيغلطش، والمشهور أكتر.. دايمًا بتبقى غلطاته أكتر.. لكن إنت مفيش وراك غلطه واحده، وده طبعًا مستحيل.

– طيب، وهتعمل إيه يعني؟ هتسجّل مكالماتي، وتخلّي صحفي ينشرها في التلفزيون، وبعدين تدخّلوه مجلس الشعب؟ مايهمنيش.

شريف مندور ينظر له بطرف عينيه..

تواصلت خطي اللواء أحمد رشدي على ذات النهج الذي سار عليه منذ أن تولى المسئولية، وبدا واضحًا للكافة أنه لن يحيد عن سبيله ولن يميل إلى التوازنات، وبدا مُصرًّا على أنه لا استثناءات في مكافحة الفساد، ولا تمييز بين صغير وكبير، هذه المعاني والتأكيدات لم تكن كلمات مرسلة ردَّدَها اللواء أحمد رشدي أمام وسائل الإعلام، ولكنها كانت أقوالًا تُساندُها أفعال ما أوغر صدور كبار الفاسدين حياله ، وشاء القدر أن تتواصل على مدى أيام شهر فبراير عدة ضربات موجعة وغير مسبوقة، فقد استهدفت مجموعة من كبار المسئولين، وكانت هذه الوقائع «القشة التي قصمت ظهر البعير»، وبمعنى آخر كانت الدافع الرئيسي للتخلُّص من اللواء أحمد رشدي الذي بات مع أجهزته يشكل خطرًا داهمًا على كبار الفاسدين الذين نجحوا في النهاية وقُبيل انتهاء أيام شهر فبراير سنة 1986.. وكانت من أشهر أسباب هذه النهاية .. واقعة حدثت صباح يوم الأربعاء 4 فبراير.. قبل 22 يومًا من استقالة أحمد رشدي.. فقد سافر اللواء محمد عبد الحليم موسى مدير الأمن العام في ذلك الوقت وبصحبته مجموعة من مفتشي المباحث الجنائية بوزارة الداخلية إلى مدينة الإسكندرية، وهاجموا إحدى الشقق هناك وألقوا القبض على متهمين هاربين من حكم صادر ضدهما بالسجن لمدة 10 سنوات في قضية رشوة ..هذان المتهمان كانا عبد الخالق المحجوب وكان يعمل خبيرًا بإدارة النقد بوزارة الاقتصاد وشقيق رئيس مجلس الشعب د. رفعت

- إنت حر دي رقبتك انت.. إن شاء الله يقطعها لك..

وأشار بيده جهة رقبته، ثم تركه وخرج خارج الغرفة.. لحظات قليلة، ودخل ثلاثة جنود من الباب، ومعهم عادل وهو مطأطيء رأسه، وحزين، ولم يتنبه لوجود حاتم بالغرفة.. فتركة الجنود واقفًا في منتصف الغرفة ثم خرجو جميعًا للخارج.

فنظر حاتم بفرح شديد إلى عادل، وهو مُكبَّل، واتجه إليه سريعًا.. ليقف أمامه، وهو يبتسم بتشفٍّ:

- إزيك يا عادل؟

عادل يرفع رأسه ببطء وينظر أمامه فيجد حاتم مبتسمًا أمامه.. فيحدق فيه واجمًا ..

- إنت.. إنت.. إنت اللي كنت في الفيلا عند هدير.. انت اللي قتلتها.. إنت الشماس.. إنتَ الشماس ..

ويصرخ فرحًا وهو يمسك حاتم من ملابسه..

- يا بوليس..يا حكومه..الشماس..أهه.. الشماس الحقيقي هنا.

فيمسكه حاتم من، رقبته وهو يصرخ فيه..

- إهدا يا عادل.. إهدا، واسمعني.. تفتكر البوليس هيصدقك إنت، ولاّ هيصدق إن فنان مشهور زيي هو الشماس؟!

عادل يمسك رأسه، وهو مُكبَّلٌ مَصدومٌ ..

– أيوه.. أيوه إنت الممثل حاتم نوزي.. الممثل حاتم فوزي هو الشماس..

فينظر له مندهشًا مصدومًا..

– ليه.. ليه.. إنت ممثل مشهور.. قتلت هدير ليه؟..خلّيت كل ده يحصل ليه؟.. ليه؟.. ليه يا جدع؟.. عملت فيك إيه؟.

يمسكه حاتم من ملابسه غاضبًا..

– مش عارف عملت فيَّ إيه؟ .. مش عارف؟!

يتركه حاتم فجأةً ثم يتحدث إليه بهدوء..

– أنا هفكّرك.

***

باي.. باي.. رشدي

في صباح فجر أحد الأيام الباردة في يناير عام 1986.. رجل تعدى عُمرُه الستين ربيعًا يرتدي جلبابًا فضفاضًا قديمًا، وينتعل بقدميه شبشبًا قديمًا مُمزقًا، ويضع قبعة ريفية على رأسه، ويقف أمام أحد أقسام الشرطة.. يصعد درجاته الصغيرة، وهو يجر شبشبه بقدمه اليسرى..يتقدم جهة ضابط النبطشية،وهو يصرخ مُستغيثًا..

- سرقوني يا بيه.. سرقوني يا حضرة الظابط.

فيصرخ فيه الضابط غاضبًا..

- إيه يا راجل إنت! بتزعق كده ليه؟..اتنيل اقعد على جنب.. لما نفضالك .. إحنا ناقصينك على الصبح إنت كمان؟!

فجأةً تتحوّل ملامح الرجل الستيني إلى الغضب،ويصرخ بالضابط بحدة..

- إنت بتتعامل مع المواطنين كده.. فين المأمور بتاع القسم ده يا بني انت؟

فينظر إليه الضابط باشمئزازٍ..

- إنت اتجننت يا راجل انت؟! بتقولي يا بني.. إنت عارف إنت بتكلّم مين؟

فيصرخٍ فيه الرجل بحدة..

- إنت اللي مش عارف بتكلم مين؟ أنا أحمد رشدي وزير الداخلية.. فين مأمور القسم ده؟.

فصُعِقَ ضابط الشرطة من حديث أحمد رشدي.. فهو قد سمع بالفعل أن وزير الداخلية الجديد يتنكر في زي رجل بسيط، ويذهب إلى الأقسام ليرى معاملة الضباط، والجنود لعامة الشعب، ولكنه كان يظنها إشاعة لأنه لم يترك أحد من وزراء الداخلية في تاريخ مصر الحديث كله سريره الدافيء في زمهرير برد يناير كي يتفقد معاملة الشرطة لأفراد الشعب البسيط، ولكنه وجد بالفعل الأسطورة تتحقق أمامه.. فوزير الداخلية متنكرًا أمامه ورآه مُتلبسًا بالجُرم المشهود.. هل ما نتحدث عنه هو شيءٌ خيالي ولم يحدث؟.. بالعكس فهذا كله حقيقي، وقد فعله أفضل وزير داخلية قد مَرَّ بتاريخ مصر الحديث بشهادة معظم من عرفوه، وعايشوه.. إنه اللؤاء أحمد رشدي الذي استطاع في 19 شهرًا فقط هي عمره في منصب وزارة الداخلية أن

يُعيد العلاقة الجيدة، والثقة بين عامة الشعب وجهاز الشرطة.. اللؤاء أحمد رشدي الذي تولى الوزارة يوم 17 يوليو 1984، فاستهل عمله في الوزارة بالإعلان بأن إستراتيجية عمل وزارته تستند على ركيزتين أساسيتين هما: مكافحة الرشوة، واستغلال النفوذ، والقضاء على تجارة المخدرات، كما أعلن عزمه إعادة الانضباط إلى الشارع المصري، وأجبر قيادات الشرطة كافةً من مختلف الرتب على الترول إلى الشارع لتحقيق ذلك الانضباط، لم يصدر الرجل قرارًا مكتبيًّا بوجود القيادات في الشارع، ولكنه دفعهم إلى الشارع دفعًا بما كان يفعله بنفسه، فقد اعتاد التعامُلَ بنفسه مع المُخالفات المرورية أو التعديات الصارخة على الأرصفة أو أهم الطرق أثناء سيره في الشارع سواء كان متوجهًا إلى مكتبه أو عائدًا إلى مترله، كان لا يكتفي بتوقيع العقوبة على السائق أو المواطن المخالف، بل كان يوقع أشد الجزاء على ضابط المرور أو مأمور القسم أو الضابط المرافق المسئول عن المنطقة التي وقعت فيها المخالفة، كما كان يوقع أشد الجزاءات على القيادات المسئولة عن المناطق التي شهدت وقوع المخالفات ودون تفرقة بين ضابط صغير أو كبير، أيضًا اعتاد الرجل – وبلا ترتيب – مفاجأة أقسام الشرطة ومرافقها للاطمئنان إلى حُسْن سَيْرِ العمل، وكثيرًا ما أصدر أوامره الفورية بنقل المُقصِّرين، كما أصدر عشرات القرارات بمكافأة المجتهدين ..أيضًا استهلَّ اللواء أحمد رشدي قيادته لوزارة الداخلية بالتخطيط للقضاء على «أسطورة الباطنية»، تلك

البقعة التي كانت تُشوِّهُ صورة عاصمة مصر، وكانت المخدرات تُباعُ فيها علنًا، وكان المدمنون يقفون طوابير وبنظام مُحكَمٍ للحصول على احتياجاتهم من الحشيش والأفيون بهدوء ودون إزعاج من رجال الشرطة الذين كانوا لا يستطيعون مهاجمة المنطقة، أو لأن أباطرة الكيف المسيطرين عليها،كانوا يستخدمون جيوشًا من «الناضورجية» لإحكام الرقابة على مداخل المنطقة التي حباها جوهر الصقلي مؤسس القاهرة الإسلامية بالعديد من الموانع الطبيعية والجبلية، التي جعلتها أشبه بالقلعة الحصينة، أيضًا استعان أولئك الأباطرة بالعديد من أفراد الشرطة الصغار، كانت كل مهمتهم الإبلاغ عن أية محاولة أمنية من ضباط مكافحة المخدرات للاقتراب أو التسلل إلى الباطنية.. اللواء أحمد رشدي كان يعرف كل هذه المعلومات، فالرجل كان قبل سنوات قليلة من توليه مسئولية وزارة الداخلية يعمل مديرًا لأمن القاهرة، وعانى كثيرًا وجود تلك البقعة السوداء في قلب القاهرة وحاوَلَ إزالتها دون جدوى، أما هذه المرة فقد وضع لها تخطيطًا شاملًا ودرس كل شيء بدءًا بتوقيت الهجوم على المنطقة، ومرورًا بتسلل القوات إلى شوارعها ودروبها، وانتهاء بشكل الحياة في تلك المنطقة بعد تطهيرها من أباطرة الكيف، وبالفعل ومع بدايات عام **1985** بعد شهور قليلة من توليه الوزارة، أعلن اللواء أحمد رشدي .. انتهاء أسطورة الباطنية وبعدها فتح الرجل النار على الفساد والمفسدين ومستغلي النفوذ، وبدأ يحقق ما قال.. فمع بدايات عام **1986**،

تواصلت خطى اللواء أحمد رشدي على ذات النهج الذي سار عليه منذ أن تولى المسئولية، وبدا واضحًا للكافة أنه لن يحيد عن سبيله ولن يميل إلى التوازنات، وبدا مُصرًّا على أنه لا استثناءات في مكافحة الفساد، ولا تمييز بين صغير وكبير، هذه المعاني والتأكيدات لم تكن كلمات مرسلة ردَّدَها اللواء أحمد رشدي أمام وسائل الإعلام، ولكنها كانت أقوالًا تُساندُها أفعال ما أوغر صدور كبار الفاسدين حياله ، وشاء القدر أن تتواصل على مدى أيام شهر فبراير عدة ضربات موجعة وغير مسبوقة، فقد استهدفت مجموعة من كبار المسئولين، وكانت هذه الوقائع «القشة التي قصمت ظهر البعير»، وبمعنى آخر كانت الدافع الرئيسي للتخلُّص من اللواء أحمد رشدي الذي بات مع أجهزته يشكل خطرًا داهمًا على كبار الفاسدين الذين نجحوا في النهاية وقُبيل انتهاء أيام شهر فبراير سنة 1986.. وكانت من أشهر أسباب هذه النهاية .. واقعة حدثت صباح يوم الأربعاء 4 فبراير.. قبل 22 يومًا من استقالة أحمد رشدي.. فقد سافر اللواء محمد عبد الحليم موسى مدير الأمن العام في ذلك الوقت وبصحبته مجموعة من مفتشي المباحث الجنائية بوزارة الداخلية إلى مدينة الإسكندرية، وهاجموا إحدى الشقق هناك وألقوا القبض على متهمين هاربين من حكم صادر ضدهما بالسجن لمدة 10 سنوات في قضية رشوة ..هذان المتهمان كانا عبد الخالق المحجوب وكان يعمل خبيرًا بإدارة النقد بوزارة الاقتصاد وشقيق رئيس مجلس الشعب د. رفعت

المحجوب، أما الثاني فكان رفعت بشير وكيل أول وزارة الاقتصاد لشئون النقد الأجنبي.. كانت تلك هي المرة الأولى وربما الأخيرة في تاريخ مكافحة الجريمة في مصر، التي ينتقل فيها مدير الأمن العام بنفسه لتنفيذ مهمة أو مأمورية كما يسمونها في جهاز الشرطة ..وكان من الممكن أن يقوم بها ضابط صغير برتبة ملازم ثانٍ وبصحبته مجموعة صغيرة من المخبرين، فقد كان المئات من الهاربين من أحكام بالإعدام، وبالأشغال الشاقة المؤبدة يسقطون في أيدي الشرطة كل يوم بلا ضجة أو اهتمام، لا من الشرطة، ولا من الصحافة.. وإنما هذان الهاربان، وإن صح التعبير واحد منهما كان غير عادي، كان شقيقًا لرئيس مجلس الشعب.. الرجل الثاني في الدولة بحكم الدستور في ذلك الوقت، ومن هنا كانت خطورة المأمورية التي قام مدير الأمن العام لتنفيذها بنفسه وبتعليمات صريحة ومباشرة من وزير الداخلية، والأكثر إثارة وخطورة أن شقيق رئيس مجلس الشعب لم يكن هاربًا من حكم في قضية نفقة، أو جنحة ولكن قضية رشوة وصادر ضده ومعه متهمون آخرون حكم حضوري بالسجن لمدة 10 سنوات لكل منهم!.. والغريب أنه بعدما أُحيلت هذه القضية إلى محكمة جنايات أمن الدولة العليا (طوارئ)، باعتبارها قضية رشوة واستغلال نفوذ، وتُدولت القضية في عدة جلسات بحضور المتهمين الأربعة ومحامين عنهم، إلى أن حُجزت للحكم بجلسة 14 يناير 1986 ، ليصدر فيها الحكم حضوريًّا ضدهم بالسجن لمدة 10 سنوات، ويفاجأ الرأي العام

باختفاء المحكوم عليهم الأربعة في نفس يوم صدور الحكم.. منهم عبد الخالق المحجوب.. شقيق رئيس مجلس الشعب د. رفعت المحجوب.. الذي قُبِضَ عليه يوم 4 فبراير كما ذكرنا.. ليبدو للجميع أن أحمد رشدي لن يُهادنَ أحدًا أو يقف مع الفساد والفاسدين مهما يكن موقعهم في الدولة.. ليبدأ الجميع في الاتحاد ضده.. تجار المخدرات، وجماعة المفسدين.. لتبدأ أحداث المؤامرة على ذلك الرجل.. (أحداث الأمن المركزي).

ففي يوم الثلاثاء 25 فبراير 1986 الساعة السادسة.. سُرِّبت إشاعات عن زيادة مدة التجنيد الإجباري لقوات الأمن المركزي من 3 سنوات إلى 4 سنوات، وتخفيض المرتب الهزيل الذي يتقاضونه من أجل تسديد ديون مصر لتبدأ الإشاعة في الانتشار كالنار في الهشيم، ولأول مرة في تاريخ مصر تقوم قوات نظامية مهمتها حفظ الأمن بالخروج المسلح على الأمن.. ففي السادسة من بعد ظهر الثلاثاء 25 يناير 1986، كان اللواء أحمد رشدي في منزله يستعد للذهاب إلى مكتبه، والتقط ضابط الحراسة المرافق له إشارة لا سلكية صادرة من مديرية أمن الجيزة تقول: إن مجموعات ضخمة من جنود معسكر قوات أمن الجيزة بأول طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي تمردت وتحاول الخروج من معسكرها، قرر الوزير ألا يترك الأمر لمساعديه، بادر بالتوجُّه إلى مكان الأحداث، وهناك واجَه مجموعات الجنود المتمردة، تحاوَرَ معهم بعد أن قدَّم لهم نفسه، فلم يكن أي منهم يعرف اسم وزير الداخلية أو شكله، ونجح الرجل في إقناعهم بالعودة إلى

المعسكر رغم إصابته بجرح قطعي في جبهته متأثرًا بإصابته بإحدى قطع الحجارة التي كان يُلقيها الجنود المتجمعون. وأكد اللواء أحمد رشدي للجنود كذب شائعة استمرارهم سنة رابعة بالأمن المركزي، تلك الشائعة التي انتشرت بينهم بسرعة البرق، وكانت السبب في إثارة الجنود الذين يعانون زيادة معدلات الساعات المضاعفة التي يقضونها في تنفيذ المهام التي يكلفون بها، فيما يعرف بالخدمات الأمنية، ولم يكن لها ما يبررها، حيث إن مدة التجنيد التي يقضيها مجندو الأمن المركزي لا تحددها وزارة الداخلية، ولكن تحددها جهات أخرى تتبع القوات المسلحة، كما تحدد الإجراءات المتعلقة بمدة خدمة الجنود ومواعيد إنهاء خدماتهم وتسريحهم، وعادت بالفعل جموع المتمردين إلى داخل معسكرهم مرة أخرى، ووعد الوزير الجنود بلقاء موسع يعقده معهم صباح اليوم التالي-الأربعاء 26 فبراير- للاستماع إلي شكاواهم وتذليلها جميعًا، بعد أن تطرق الحديث بين الوزير والمتمردين إلى الشكوى من سوء المعاملة، وسوء نظام تشغيلهم، وعدم كفاية الأغذية ووسائل الإعاشة لهم.

وعاد الرجل بسيارته قاصدًا محافظ الجيزة بأول شارع الهرم لإبلاغ الرئاسة بتفاصيل ما حدث، فوجد هناك في مبنى المحافظة الدكتور عبد الحميد حسن محافظ الجيزة، وبصحبته اللواء عبد الحميد بدوي مدير أمن الجيزة، كما وجد اللواء حسن أبو باشا نائب رئيس الوزراء ووزير الحكم المحلي - وزير الداخلية السابق - بادر الدكتور عبد الحميد حسن بتضميد جراح الوزير وكان اللواء رشدي سعيدًا

بقدرته على احتواء الأزمة بمفرده بعد ساعات قليلة مرت، ولكن حدث بعد انصرافه أن اشتعل بعدها الموقف من جديد لأسباب مجهولة في معسكر قوات الأمن المركزي الذي يبعد بضعة كيلومترات قليلة عن معسكر قوات الأمن، فقد كان المعسكر الأول يقع في نهاية شارع الهرم، بينما يقع الثاني في بداية طريق مصر الإسكندرية الصحراوي، هُرِعَ المجندون إلى الشوارع فحطموا السيارات الخاصة، والعامة، وأشعلوا النيران في العديد من الفنادق والمنشآت السياحية، وبذلت قوات الشرطة التي هُرعت إلى المكان جهودًا جبارة لإنقاذ شاغلي تلك المنشآت السياحية من السياح والزوار الأجانب، ولكنها فشلت في وقف زحف المتمردين صوب باقي شارع الهرم، وعقد مجلس الوزراء اجتماعًا طارئًا لتدارُس الأزمة، واستمرَّ الاجتماع حتى الساعة الواحدة صباحًا، وتقرَّر في أعقاب الاجتماع إعداد بيان بتفاصيل ما حدث وإذاعته على الرأي العام، فطلب اللواء أحمد رشدي إرجاء إذاعة البيان حتى الصباح، ولكن وزير الإعلام صفوت الشريف وعددًا من الوزراء عارضوا وزير الداخلية متحججين بضرورة مخاطبة الرأي العام بحقيقة ما جرى وطالبوا بضرورة إعداد بيان وإذاعته، ولكن وزير الداخلية اللواء أحمد رشدي الذي أكد أهمية الإعلام وأهمية إطلاع الرأي العام على ما يجري من أحداث وأهمية أن يعرف جميع الحقائق، إلا أنه طلب تأجيل إذاعة البيان لحين اتخاذ أجهزة الشرطة المعنية لإجراءاتها الاحترازية لمواجهة الانتشار غير المبرر

لشائعة السنة الزائدة التي سيقضيها جنود الأمن المركزي، وأضاف أن إذاعة البيان يمكن أن تسهم في نقل الشائعة إلى باقي المعسكرات على مستوى الجمهورية، وقال الرجل: إنه يطلب إذاعة البيان مع ساعات الصباح الأولى بدلًا من إذاعته في هذا الوقت المتأخر من الليل، واعتقد أحمد رشدي أنه حاز على إجماعٍ ومساندةٍ من أعضاء مجلس الوزراء لوزارة الداخلية في مواجهة الأزمة، وانتهى اجتماع مجلس الوزراء على ذلك، ولكنه فوجئ بالشكوك التي تساوره وراء هذه الأحداث، ومنذ اللحظة الأولى تزايدت تلك الشكوكُ بداخله، وبدأت تتحول من شكوك إلى يقين، فقد عَلِمَ الرجل بعد انتهاء اجتماعِ مجلس الوزراء أن خبر تمرد الجنود بمعسكري الهرم والجيزة بدأ إذاعته بشكل عاجل في مواجيز الأنباء، ونشرات الأخبار التالية، كما علم أنه قد أُبلِغَت الصحف اليومية بالبيان، ونُشِرَ بالطبعات الأخيرة الصادرة صباح الأربعاء، وتبيَّن لوزير الداخلية أن صفوت الشريف وزير الإعلام وراء إذاعة البيان في مواجيز ونشرات الأخبار وبالطبعات التالية من الصحف اليومية، وخلال الساعات الأولى من صباح اليوم التالي الأربعاء 26 فبراير، اشتعلت الأحداث التخريبية المماثلة من جنود المعسكرات التابعة لقوات الأمن والأمن المركزي بمحافظات لقاهرة،والجيزة،والقليوبية،وأسيوط،وسوهاج،والإسماعيلية.

اشتعلت الأحداث بصورة غير طبيعية، وغير مفهومة، وتقرَّر في الحادية عشرة من صباح الأربعاء فرض حظر التجوال في جميع

المحافظات التي شهدت أحداثًا تخريبية، وعلى رأسها محافظات المنطقة المركزية (القاهرة - الجيزة - القليوبية).

كانت صدمة شديدة لجنود قوات الأمن المركزي وهم يركضون بأسلحتهم، وعصيهم، وملابسهم العسكرية عندما شاهدوا مدى الترف، والبذخ الذي كان يعيش به البعض.. عندما رأوا الفنادق، والملاهي، والسيارات، وسبل الراحة المختلفة التي يعيش فيها الأغنياء، وقارنوها مع ظروف الحياة الصعبة فى المعسكر الذي يمثل بالنسبة إلى جندي الأمن المركزى حياة السجن تمامًا.. فبدأ شعورهم بالغيظ، والقهر ينفجر من صدورهم.. فهبوا يحرقون ذلك المبنى، ويسلبون ذلك الملهى، ويهشمون ذلك الفندق، وسعوا في الأرض فسادًا، وبدأ بعض المهمشين، والمجرمين، والبلطجية بالالتفاف حول هذه القوة المسلّحة الجديدة التي ظهرت، ويبدو أن لها الغلبة.. فانتشر الجنود في الشوارع، والطرقات، وأقاموا المتاريس، وأُصيب الناس بالهلع من ذلك المشهد غير المألوف لديهم، والتزموا بيوتهم.. إلا من بعض المهمشين، والمنتفعين كما قلنا، وبعض من انتابهم الفضول مثلما حَدَثَ مع كوجي.. ذلك الطفل الذي لم يستمع إلى كلام أمه، وتسلّل خارج المنزل في الليل لكي يرى ما يفعله هؤلاء الجنود الذين يعلم أنهم دائمًا كانوا يفضّون المظاهرات، ولأول مرة يراهم يفتعلونها.. أخذ يركض مع الفضوليين الآخرين، ويشارك الجنود في افتعال بعض الحرائق في السيارات والأشجار وبعض المباني، وهذه الأفعال لدى الأطفال هي الجنة.. يريدون أن يحطموا، ويحرقوا.. دون محاسبة أو لوم.. ظَلَّ في لُعبته هذه حتى مساء اليوم التال .. كان يقتطع بضع ساعات يذهب

إلى منزله ليأكل، وليطمئن والدته عليه التي كانت تصرخ فيه، وتترجاه ألّا يخرج من المنزل حتى لا يحدث له مثلما حدث لأبيه من قبل، وكان يزداد عنادًا مع ازدياد صُراخها عليه.. فانتهى من تناول الطعام، وخرج سريعًا ليمارس هوايته من جديد.. فشاهد، وهو خارج من باب منزله حاتم، وهو بملابس العمل التي يكسوها الشحم والزيت من أثر عمله في ورشة الميكانيكا التي جعله كوجي يعمل بها.. فحيَّاه فرحًا لرؤيته..

– علاء الدين..حظك حلو قوي.. تعالى معايا.. شارع الهرم الدنيا مولّعه فيه.. تعالى نلعب هناك.

فيحدثه حاتم بتعبٍ..

– أنا لسه جاي من الورشه تعبان يا كوجي.. أنا هنام، وبالليل هاجيلك هناك.. إنت هتبقي فين؟

– هتلاقيني في الأريزونا.. في فندق هناك رهيب.. بنتجمع ونقعد في السراير والأوض اللي هناك، وفي حمام سباحة بنبلبط فيه، وهتلاقي أكل وكل اللي نفسك فيه.

– خلاص هنام شويه، وهبقى أجيلك على هناك.

– خلاص هستناك .. سلام.

– سلام يا كوجي..

ثم يتركه ويذهب إلى المخزن القديم لينام بداخله .

وينطلق كوجي في شارع الهرم الذي أصبح مدمّرًا ويلعب الكرة مع بعض أقرانه، وبعض الجنود المتمردين الفرحين بطعم الحرية التي نالوها أخيرًا،وسار الأمر على ذلك الإطار حتى الساعة 8 مساء، ففي تلك اللحظة شاهد كوجي مشهدًا أشعره بالصدمة الشديدة، وكاد أن يخرج قلبه من جسده.. لقد رأى أحد الجنود يقف حارس مرمى وهو يرتدي ملابسه العسكرية، ويفتح أزار قميصه ويخرج فانلته الداخلية البيضاء، ويصد الكرة ببراعة، وبالطبع لم يكن مشهد صد الكُرة هو ما أصاب كوجي بذلك الخوف.. بل المجند نفسه الذي عندما رآه تذكر حدثًا حاول أن ينساه مِرارًا، ولكنه لم يستطع..

توقف كوجي عن اللعب فجأةً، وركض مختبئًا من الجندي لكيلا يراه، ويتعرف إليه، وأختبأ بين إحدى الأشجار الموجودة بجوار الفندق، وظل يُراقِبُ المُجند من بعيد وهو يتصبَّب عرقًا، ويرتعد في خوفٍ.. وهو يفكر في شيءٍ.. واحد فقط.. إنها فرصته.. إنها فرصته الآن..

ظل يشاهد المجند بكل حرص، ويحقّق، ويدقّق في ملامحه بكل حرص حتى يــتأكد من أنه هو، وبعد ساعتين تيقّن بكل تأكيد أنه هو بالفعل.. ظل الجندي يتنقل من مكان إلى آخر بعد أن انتهى من لعب الكرة، وكوجي وراءه يتابعه بحرص حتى لا يكتشفه.. يتابعه، وهو لا يعلم ماذا سيفعل معه..هو فقط يتابعه.. دون خطة واضحة.. دون

تفكير أو تدبير.. كان يتحاشى أن ينشغل بعقله،ولو قليلًا حتي لا يفقد تركيزه ويغيب هذا الجند عن عينه.. تحرك الجند، وهو يحمل سلاحه ومعه مجندان آخران يتسامرون.. عند إحدى المناطق الزراعية المُطلة على ترعة المريوطية، وجلسوا على حافة الترعة يضحكون ويتسامرون، وكوجي ما زال يُراقِبُهم بكل تركيزٍ، وهو يقف مُبتعدًا عنهم فوق سطح أحد المباني المحترقة بجوار ترعة المريوطية بذلك يستطيع مراقبتهم دون أن يشعروا به ..

وبدأ كوجي يتذكر ما حدث له.. عندما كان مع والده منذ عام.. عندما كان يصطحبه والده لشراء حذاء جديد له بمناسبة نجاحه من أحد المحلات بمنطقة الجيزة، وهم عائدون عندما وجدوا بعض العمال يركضون بسرعة جهتهم بعد أن خرجوا في مظاهرة، واستطاعت قوات الأمن المركزي أن تفرّقهم، وظلوا يُطاردونهم ويُلاحقونهم في الشوارع .. وقام والد كوجي بسحبه بقوة من يده .. وظل يركض هربًا من قوات الأمن مع العمال الهاربين، ولكنه يتعثر فجأةً في إحدى الأحجار التي بالطريق، فيسقط على الأرض، ويسقط معه كوجي.. فيلحقه أحد جنود قوات الأمن المركزي، وينهال عليه بعصاه الغليظة فوق رأسه بكل قوة ظنًا منه أنه متظاهر هو الآخر، ولم تفلح محاولاته بإقناعه وهو يصرخ من الألم بأنه ليس من المتظاهرين، ولكن الجند لم يستمع إلى ما قاله، فهو مُبرمَج على هدف واحد فقط، هو تنفيذ الأمر أيًا كان، وكان الأمر هذه المرة ألّا ترحم أحدًا، وأخذ ينهال بعصاه وبسبابه على والد كوجي الذي انبطح على وجهه، وهو يزود بجسده

عن ابنه كوجي الذي كان أسفل منه،ويرى كوجي مصدومًا.. ملامح والده، وهو يتألم، وتسقط الدماء من رأسه، وتغطي جسده. ويرى أيضًا ملامح الجند الذي ينهال بكل ضراوة على أبيه الذي يحميه، وعلامات الرضا على وجهه.. سرعان ما سقط والده أرضًا.. غارقًا في دمائه، وقطع من رأسه من الخلف تنساب خارج جمجمته..

فتوقف هنا الجند عن ضرب والده. وبدت ملامح الذهول على وجهه، وكوجي يحاول أن يحرك والده الذي يحتضنه دون أي مجيب.. فيرى قطعًا من مخ والده على كف يده فيحاول أن يعيد كوجي هذه القطع مرة أخرى إلى داخل رأس والده ولكنه لم يستطع، واكتفى بأن نَظَرَ مَصدومًا إلى الجندي والدموع تنساب من عينيه ضد إرادته.. أحد الضباط نظر إلى الجند وإلى كوجي وجثة والده.. فسحب الجندي من يده، وهو يُشيرُ إلى أحد المتظاهرين الذي يركض:

– هات الواد ده بسرعة.

فينظر الجندي إلى كوجي قليلا ثم يتركه ويذهب بسرعة إلى جهة المتظاهر الذي أمره الضابط بملاحقته، وتتبعه الضابط، وتركه كوجي، ووالده بجواره جثه هامده..ملقيان في وسط الطريق..بدون أي حديث او كلمة ..

حُفرت معالم ذلك الجند في ذاكرة كوجي إلى الأبد، ولكنه تناسى الأمر برُمَّته لاستحالة ظهور الجند أمامه مرة أخرى، ولكن هنا لعب

القدر لعبته، وأصبح المجند قاتل أبيه أمامه الآن.. لعل ما حدث من فوضى هذه الأيام هي من ترتيب القدر.. الذي أبى أن يَمُرَّ أمر قاتل أبيه بدون عقاب، وها قد أتى ميعاد الانتقام، ولكن كيف سوف أنتقم منه، والمجند في وسط أصدقائه، ومُتقلّد سلاحه الناري لا يفارقه.. لا يهم سوف أحصلُ على انتقامي بأي طريقة كانت هذا ما كان يدور في خَلَدَ كوجي، وهو يراقب المجند، وهو يضحك مع أقرانه.. دون أن يتذكر لحظة وقوع والده ضحية له.. بدون أي سبب أو مبرر.. قطع حبل تفكيره ذلك.. مرور حاتم فجأةً تحت المبنى.. فصرخ عليه من أعلى بصوتٍ منخفض ..

– علاء الدين.. علاء الدين.

وقف حاتم ينظر حوله على مصدر هذا الصوت، وبعد ذلك نظر إلى أعلى فوجد كوجي يقف على سطح المبنى فيبتسم له ثم يدخل المبنى وبعد عدة لحظاتٍ سيُصبح بالأعلى.

– إيه يا كوجي.. إنت مش قولتلي إنك هتبقى في الأريزونا.. إيه اللي جابك هنا؟

– إنت عرفت إني هنا إزاي؟

– مخيمر.. قصدي السندباد.. قال لي إنه شافك رايح على ترعة المريوطيه.. إنت قاعد هنا بتعمل إيه؟

كوجي ينظر إلى الجندين بضيق..

"لأ مبعملش حاجه..تفتكر إيه اللي بيحصل في البلد.. العساكر في كل حته، وعمالين يولعوا ويكسروا في الشوارع والعربيات.

وبدأ الاثنان يتحدثان في تلك الأحداث مدة ساعة تقريبًا، وعين كوجي لم تترك الجندين لحظة.. فشاهد فجأةً الجند يتحرك،وهو ممسك سلاحه، ويتحدث إلى زملائه ثم يعطيهم بعض السجائر، ويتركهم ويبتعد عنهم مسافة كبيرة ثم يتوارى بين بعض الأشجار في أحد الحقول.. فيقفز كوجي فجأةً من مكانه.. فيتعجب من أمره حاتم، ويسأله عمًّا ألَمَّ به فجأةً.. فيتركه كوجي سريعًا متجاهلًا إياه ودون أن يتحدث معه، ويركض سريعًا إلى أسفل المبنى، ويخترق الشوارع مسرعًا جهة الحقل الذي به الجندي، ويُشاهِدُه حاتم من بعيدٍ مندهشًا من فعله.

يقترب كوجي من الأشجار التي توارى بها الجند، وظل يقترب منه بهدوء، وتربُّص شديد.. فوجد الجندي يجلس بجوار إحدى الأشجار، وهو نازع بنطاله ويشرب سيجارته وهو يقضي حاجته، وسلاحه بعيد عنه قليلًا.. دقت ضربات قلب كوجي وهو ينظر إلى الجند الذي ينشغل بما يفعله مبتعدًا عن سلاحه.. حاول أن يتقدم ولكنه شعر بالخوف يمنعه من الحركة.. ها هو قاتل أبيه أمامه.. إنها فرصته لأخذ ثأره، ولكنه ما زال صغيرًا، وضعيفًا، ولم يضع خطةً في رأسه.. ماذا

سيفعل؟.. كيف سيتصرف؟.. فجأةً سمع صوت حاتم من خلفه يصرخ فيه ..

– كوجي .. إنت فين يا كوجي؟

فانتبه الجند إلى مصدر الصوت.. فشاهد كوجي وهو يُراقِبُه من بعيد.. فنظر إليه غاضبًا:

– بتعمل إيه هنا ياض؟

وجد كوجي نفسه خائفًا، وهمَّ الجند بارتداء بنطاله.. فقفز جسد كوجي فجأةً رغمًا عنه، وأمسك بسلاح الجند الذي وجده ثقيلًا للغاية، وكاد يسقط منه.. فصرخ الجند عليه غاضبًا..

– سيب السلاح يابن الكلب.. سيب السلاح ياض.

وهب واقفًا فجأةً.. فوضع كوجي يده على الزناد خائفًا، وفجأةً انطلقت دفعة كبيرة من الطلقات اخترقت جسد الجند، واخترق دويُّها صمت الظلام حوله، ووقف كوجي مشدوهًا مرتعشًا.. وهو يرى الجند يحاول أن يمنع الدماء التي تسقطُ من جميع أنحاء جسده.، وهو ينظر إلى كوجي مصدومًا.. حاول أن ينطق.. أن يتحرك..فلم يستطع.. لحظات، وأصبح جثة هامدة لا يتحرك فيه أي شيءٍ غير الدماء التي أسقت جذور الأشجار الراقدة بجواره ..

لحظات مرت كالأعوام.. لم يرَ عقل كوجي شيئًا بها غير الفراغ الأبيض.. لا يسمع إلا أصوات الرياح وهي تضرب أوراق الأشجار

بقوةٍ وعنف.. شعر بيدٍ تُمسِكُه من ذراعه.. نظر بجواره فشاهَدَ حاتم الذي وقف مَصدومًا وهو يرى كوجي مُمْسِكًا بسلاحٍ ناريٍّ وأمامه جثة المجند.. عاريةً من أسفل، وتُغطي الدماء الحمراء ملابسه الداخلية البيضاء.

هزَّ حاتم كوجي بعنف وهو يسأله ..

– إنت عملت إيه؟ .. عملت إيه؟

نظر إليه كوجي ويده ترتعش، ووضع السلاح الناري بيده، وحدّثه بصوتٍ خافتٍ مُرتعشٍ :

– استنى هنا.

ثم اختفى كوجي فجأةً من أمام حاتم الذي أمسك بالسلاح مصدومًا، وأخذ ينظر إلى جثة المجند ولم يتحرك.. فجأةً..أتى عدد كبير من المجندين وهم يحملون أسلحتهم واخترقوا المكان.. فشاهدوا جثة زميلهم وأمامه حاتم يمسك بالسلاح .. فصرخ فيه أحدهم ..

– قتلته.. قتلته يا بن الكلب.

وبدأ يركل حاتم ويُسقِطُه أرضاً ويضربه بعنف، وأخذ أصدقاؤه السلاح من يده، وبدؤوا ينهالون عليه بالضرب، والسباب، وحاتم مذهولٌ مصدومٌ لا يستطيع الحركة أو الحديث.. ثم سَحَبوه بعيدًا، وجَرُّوه على الأرض وهم يضربونه بشدة ويصرخون فيه، والتقى

الجنود بمجموعة جنود آخرين.. الذين بدؤوا أيضًا بسبِّه وضربِه، وكادوا أن يفتكوا به.. لولا تدخُّل بعض العقلاء منهم، وظل أحدهم يركل حاتم بقدمه، ويضع حذاءه على رأسه، وحاتم يبكي والدماء تسيل من أنفه، وفمه.. فيرى من وسط أحذية الجنود وهو مُلقًى على الأرض.. كوجي، وهو يقف بعيدًا ينظر له،وهو يبكي ولا يتحدث.. فيصرخ فيه حاتم:

- إلحقني .. يا كوجي .. إلحقني.

فنظر كوجي إليه قليلًا.. ثم أدار له ظهره وظلّ يركض بسرعة، وهو يبتعد عنه.. هذا المشهد دمَّرَ عقلية حاتم الصغيرة.. فكوجي لديه ليس صديقه فقط، ولكنه مثله الأعلى.. الذي يتمنى أن يصبح مثله، ويطير فرحًا عندما يكونون معًا..يتحدثون في أمور الفتيات، ومشاهدة الكارتون .. تخيَّل عندما ترى مثلَك الأعلى وهو يهشمك ويحطمك، ماذا تنتظر من الدنيا بعد ذلك؟!.. انهمرت الدموع من عينه وهو مصدومٌ حزينٌ.. يتمنَّى الموت في تلك اللحظة.. لا يشعر بضرب البيادات فوق رأسه ولا الركلات في معدته.. جميع من أحبَّهم تركوه.. جميع من أراد أن يعيش معهم خانوه.. لماذا يظل حيًّا في هذه الحياة؟.. لماذا يستمرُّ في هذه الألم؟.. هل لا بد أن يرى كل تلك الآلام حتى يعلم ما السعادة؟.. أتوجَدُ سعادةٌ الآن؟.. أين هي تلك السعادة؟.. هذا العالم لا يوجد به سعادة.. إلَّا لكي نعلم ما الألم.. فدائمًا السعادة أكثر من الآلام .. الحياة.. الحياة .. هي الآلام ..

في نهاية يوم الخميس 27 فبراير انتهت أحداث الأمن المركزي.. بنزول قوات الجيش في الشارع، وسحقت تمرُّد قوات الأمن المركزي بكل قوة، واستُخْدِمَت الطائرات الهليكوبتر والدبابات في قتال الجيش أمام قوات الأمن المركزي ذات التسليح الخفيف.. وسط تعجُّب واندهاش عامة الشعب مِمَّا حدث، ولم يكن يُخيَّل إليهم في يوم من الأيام أن تُستخدم قواتُ الداخلية والقوات المسلحة في صراع سياسي دموي بين أعضاء النظام في ذلك الوقت.

وحدث ما تمنته قيادات الفساد وشركاؤهم من أباطرة تجار المخدرات، وأُطيحَ بأفضل وزير داخلية حتى هذا اليوم اللؤاء أحمد رشدي، وقدَّم استقالته لعدم رغبته في التضحية بدماء أبناء الشعب في صراعه مع قوى الفساد التي اعتلى الظلام عقولها ورغبتها في أن تُحطِّمَ أيَّ شخص يطالب في أن يسودَ النظامُ والأمنَ وحقوقَ الإنسان هذه البلاد.. حصيلة تلك الأيام الثلاثة.. مقتل الآلاف من البسطاء من قوات الأمن المركزي الذين غُرِّرَ بهم، وحرق وتدمير الكثير من الممتلكات العامة والخاصة وترويع ملايين الآمنين من أفراد الشعب العاديين.. ومر الأمرُ وتلك الأحداث حتى الآن دون محاسبة أحد من المتسببين فيها حتى الآن.. وحدث شيءٌ غريب وعجيب.. ويكاد أن تبكي حزنًا لأجله..فاحتفالًا بنجاح اتحاد أباطرة الفساد وتجار المخدرات انتشرَ نوعٌ جديد من المخدرات في الأسواق يحمل اسمًا به من التشفي الكثير..حيث أسماه تجار المخدرات باسم:

" باي .. باي .. رشدي "

عودة سيسيلي

أما ما حَدَثَ لحاتم، فقد حُوِّلَ إلى دار إصلاحية الأحداث لقضاء عقوبة السجن سبع سنوات بتهمة القتل الخطأ لجندي الأمن المركزي، ولك أن تتخيل إصلاحية لتهذيب صغار السن في مصر.. ما الحال فيها؟ ..

نعم تخيُّلك صحيح.. فهنا المجرم لا يُعالَجُ من إجرامه بل يمارسه بكل حريةٍ وليس ذلك فحسب.. بل يتعلَّمُ أيضًا فنون إجرام أخرى من زملائه وأقرانه من المجرمين الصغار، وكل ذلك تحت بَصَرِ مُشرفي الدار ومديريها وسمعهم..

ونجح حاتم في التأقلم على ذلك الوضع الجديد في الإصلاحية .. مدة عامين .. لا يخالط أحدًا أو يتحدث إلى أحد.. ينفذ ما طُلِبَ إليه

أن يفعله أيًا كان هذا الطلب.. حتى ولو كان مساعدة تيمور، وعصابته المكونة من خمسة أفراد.. التي تخرج إلى خارج الإصلاحية كل يوم لتنشلَ، وتسرقَ،وتُوزِّع الغلة كل يوم بواسطة المشرف الذي من المفترض أن يرعاهم، ويُهذِّبهم، ولكنه أصبح بدلًا من ذلك زعيم تلك العصابة الصغيرة،وكانت مهمة حاتم اليومية هي الشجار مع أحد أفراد تلك العصابة لكي يصرف نظر المسروقين ليتيحوا الفرصة لزملائهم بسرقتهم.. هل كان يخرج حاتم كل يوم من الإصلاحية ويعود إليها؟.. نعم..فلماذا لا يهرب؟..لأنه لا يَجِدُ مكانًا يذهب إليه مرة أخرى.. سوى الشارع الذي كان يعيش بين جنباته منذ عامين، ورأى أن حياة الإصلاحية أفضل من حياة الشارع على الرغم من كل مساوئها، وظل حاتم مُنخرِطًا في تلك العصابة الصغيرة، وصد كل محاولات الصداقة من أفراد تلك العصابة..حتى لا يتكرر معه أن يخونه..أحد أصدقائه مثلما فعل معه كوجي صديقه ومثله الأعلى من قبل، وبالطبع كان تيمور لا يعجبه هذا الفرد غير الاجتماعي أن يكون بين أفراد عصابته، وكان يريد دائمًا الشجار معه والفتك به.. لولا تدخُّل المشرف عليهم..الذي كان يؤمن بفكرة عدم الاقتتال الداخلي بين أفراد العصابة.. لكي يكون هناك شرفٌ للمهنة.. ظلت الأمور كما هي حتى اختفاء المشرف عليهم مدة ثلاثه أيام.. بدون سبب أو علم لدى تيمور وعصابته التي لم تخرج من الإصلاحية في تلك الأيام.. حتى مساء يوم الأربعاء 1988/7/13 كانت تجري مباراة

مصر وتونس في بطولة كأس العرب بالأردن، وكان الجميع منشغلًا بتلك المباراة المهمة حتى تيمور،ورفاقه ظلوا جالسين في غرفتهم الكبيرة ذات السبعة أسِرَّة .. يستمعون إلى تلك المباراة عبر المذياع..
أبدى حاتم عدم مبالاة بالأمر، وهو جالس فوق سريره مترويًا على نفسه.. حينما فاجأ الجميع دخول أيمن مشرفهم الذي اختفى عنهم منذ ثلاثة أيام وهو غاضبٌ بشدة، ويصرخ فيهم بكل قوته بعد أن أغلق باب الغرفة ..

– أنا.. يتعمل فيَّ كده يا شوية كلاب.. أنا أتنقل أنا.. مين فيكم يا شويه خو..اللي بلغ الإدارة عن اللي بنعمله؟.. مين اللي عمل كده يا شويه جرابيع ؟

الجميع قفز من مكانه، وهم مندهشون من حديث مشرفهم، وتوجَّه إليه أكبرهم وزعيمهم تيمور ..

– يا بيه.. محدش فينا اتكلم عن أي حاجه في الشغل.. إنت متأكد إن اللي عمل كده من عندنا هنا؟!

– أيوه يا عم الزفت.. المدير قالي.. إن في عيل من عندي ..قالهم إنه مش عايز يشتغل في السرقه معانا، وبلغ عني وعلشان كده عايزين يضحو بحد علشان الموضوع ما يوسعش،وكانو ناوين يرفدوني .. لولا المدير نقلني، وشتمني وهو بيقولي إني مش مسيطر على العيال اللي تحت إيدي .. أنا مش عارف أسيطر عليكم يا شويه .. خو ...

وصَفَعَ تيمور على وجهِه بقوةٍ .. فنَظَرَ إليه تيمور غاضبًا ..

– والله يا بيه.. ما حد قال حاجه.. أنا عارف الرجاله اللي تحت إيدي .. رجاله ومعلمين بجد .

– أمال أمي هي اللي جت بلغت عني يا ولاد ...؟!

نظر تيمور إلى المشرف أيمن وهو مُغتاظ ..

– أنا بقلك أنا متأكد من رجالتي.. لكن في ناس مش من رجالتي ومش متأكد منه، وتوجه بنظرة إلى حاتم الذي يُشاهِدُهم بدون تعقيب .. فنظر أيمن إلى حاتم بغيظ ..

– هو ابن الم... اللي بلغ عني؟

يهز تيمور رأسه بابتسامة ..

– أكيد .. يا بيه .. محدش غيره يقدر يعمل كده .

فنظر إليه أيمن بحقدٍ وأشار برأسه إلى تيمور ..

– خلّص عليه.

فصدم حاتم من كلامه وقفز خائفًا من سريره، ونظر تيمور بوجومٍ إلى أيمن ..

– أخلص عليه؟!.. عايزني أموته؟

فصفعه تيمور برفقٍ على وجهه ..

- هي يعني دي أول مره يا ك...

ثم أخرج سيجارة من جيبه، وأعطى تيمور إياها الذي أخذها، وهو يبتسم.. ثم نظر إليه

- لا يا بيه.. كده مش جاية همها.

فيبتسم أيمن له ثم يخرج سيجارة أخرى إلى تيمور.. الذي أخذها، وهو يضحك.. ثم التفت ينظر إلى حاتم، وهو يضحك بعين الصياد الذي يتلمس الفريسة بين يديه، ويضع يده في جيبه، ويخرج مطواة صغيرة فيفتحها باحترافية شديدة، وهو يتحدث بصوت مسموعٍ:

"أخيرًا.. جه اليوم اللي كنت مستنيه من سنتين..

ثم صرخ في عصابته..

- إمسكو الواد ده..

فتجمَّع الجميع بسرعة حول حاتم الذي حاول أن يهرب بخوفٍ قبل أن يمسكوه من يديه بقوةٍ وهو يصرخ في تيمور..

- إنت هتعمل إيه؟..إنت اتجننت؟..عايز تموتني ليه؟..أنا عملتلكو إيه.. مش أنا اللي قولتلهم والله العظيم، والله العظيم مبلّغت عن حد.

فيقترب تيمور منه، وهو يبتسم ابتسامة شيطانية..

- مش مهم.. قولتلهم ولا لأ.. كده كده هموّتك.

فيصرخ به حاتم مترجيًا إياه..

– ليه هتموتني؟ ليه؟.. أنا عملتلك إيه؟

– ولا تقدر أصلًا إنك تعملي حاجه.. أنا هموّتك علشان.. شكلك كده، وهيأتك مش عجباني.

شعر حاتم بالخوف الكبير، وهو يرى طفلًا أكبر منه بقليل يحمل سكينته، ويقترب منه ببطء لينهي حياته، وهو يحاول الخلاص من الأطفال المحيطين به ولا يستطيع، وخلف تيمور المشرف الذي تخطى الثلاثين عامًا يقف على الباب ويراقبهم وهو ينفُثُ دخان سيجارته ببرود.. ينتظر أن يذبح حاتم أمامه.. شعر حاتم بالخوف الشديد، والفزع.. لماذا يحدث له ذلك دائمًا؟ إنه لم يفعل شيئًا خاطئًا لم يُحاولْ أن يؤذي شخصًا في يوم من الأيام، والجميع يقف ضدّه، ويريد أن ينهي حياته وقف أمامه تيمور وهو يضحك بشدة، ويمدُّ سيكنه بقوة ويدفعها جهة قلبه.. تحوَّلَ شعور الخوف لديه إلى الحقد.. أنا أكرهُ الجميع.. سوف أقضي على الجميع.. أنا لن أموتَ قبل أن أرى هذا العالم دمارًا، وصرخ بقوة شديدة، وبيأس كبير.. أخرج نفسًا لم يخرج مثله في حياته كلها.. يحمل كم المعاناة، والألم الذي عايشه، وبنفس الوقت يحمل رغبات الانتقام، وشهوة الدمار.. صرخ من أعماقه، وبكل جوارحه:

– سيسلي.. إلحقني يا أمير.

فجأةً تحولت إضاءة الغرفة إلى اللون الأحمر، والاضاءه بلون خافتٍ للغاية، وهبَّ رياحٌ قويةٌ للغاية، ويسود الظلام المكان، ويقف

الأمير سيسيل في منتصف الغرفة، فيشعر الجميع بالخوف والفزع من هذا المشهد؛ لظهور سيسيل في منتصف الغرفة من العدم.. إلا حاتم الذي شعر بالفرح الشديد لرؤية سيسيل بعد تلك المدة الطويلة.. صرخ المشرف أيمن في سيسيل بشدة..

– إنت مين؟، ودخلت هنا إزاي؟

فنظر إليه سيسيل قليلًا ثم تركه وظَلّ يعدُّ الأشخاص الموجودين في الغرفة ..واحد .. اتنين .. تلاته .. اربعه .. خمسه .. سته ..

قام بعَدِّ جميع من في الغرفة عدا حاتم.. ثم أشار إلى المشرف أيمن..

– في سته في الأوضه.. إنت ملكش لازمه.

ثم وضع كف يده أمامه.. فنظر إليه أيمن مندهشًا من فعله.. ولكنه وجد نفسه يُسحَبُ بقوةٍ باتجاه سيسيل.. حاول أن يُمسك بباب الغرفة. وهو يُسحب بقوةٍ فلم يستطع، فوَجَدَ وجهًا فجأةً أصبح في يد سيسيل فمسك يد سيسيل بكل قوة، وحاول أن يخلص وجهه من يده وهو يصرخ فيه ويسبُّه ..

– سيبني.. سيبني يابن الم...

لم يكد ينهي جملته حتى دفع سيسيل يده بكل قوة، وهو يقفز جهة الحائط، ودَفَعَ يَدَهَ التي تحمل رأس المشرف بقوةٍ في الحائط فاصطدم رأس المشرف بقوةٍ في الحائط خلفه وسقط جسد أيمن صريعًا، وهو

يهتزُّ في الأرض دون رأس.. فصرخ تيمور ورفاقه بشدة وهم مرتعبون ومذعورون، وتفرقوا في أنحاء الغرفة بعيدًا عن حاتم الذي أغلقَ عينيه بقوةٍ حتى لا يرى مشهد مقتل المشرف أيمن.. فصرخ به سيسيل:

– قافل عينك ليه يا حاتم؟

فنظر إليه حاتم، وهو يبتلع ريقه، وسيسيل يهُزُّهُ بيدِه بقوةٍ حتى تتطاير بقايا رأس المشرف من يده:

– إيه يا حاتم؟ لسه معقلتش؟ لسه مصدق كلام الشماس الأهبل ده؟ إن الآلام هي الأحلام، وإن السعادة هي إنكِ تمر بالألم؟.. ده كلام فارغ.. إنت سعيد، وإنت بتضّرب، وبتتهان كل يوم؟..إنت كده سعيد؟!

يصرخ فيه حاتم مترجيًا:

– أرجوك متسبنيش لوحدي تاني..أنا هاسمع كلامك كله، وهبقى صاحبك، وهعمل معاك عهد، وكل اللي إنت عايزه.. بس متسبنيش مع البني آدمين لوحدي تاني.

– أنا عرضت عليك العهد قبل كده بشروطك يا حاتم.. وإنت رفضت، وسبتك تعيش براحتك وسط البشر، وتشوفهم على حقيقتهم، ومادخلتش في حياتك خالص.. شفتك وإنت بتتعذب وبتتهان،وبتنام في الشوارع وبتأكل من الزبالة، وأنا أقدر أعيشك زي

الملوك كل يوم ..بس سيبتك.. علشان لما تختاري .. تختاري بإرادتك، ولكن إنت لسه مش جاهز إنك تعمل عهد معايا ..

حاتم خائفًا بشدة..

"لأ أنا جاهز .. أبوس إيدك متسبنيش لوحدي تاني .

– مدام جاهز.. يبقى أقولك شروطي علشان أعمل معاك العهد.. إقتل كل اللي موجودين هنا دلوقتي.

حاتم ينظر إلى تيمور ورفاقه المرتعبين حوله وهم يتابعون حديثه مع سيسيل .. ثم يتوجه إلى سيسيل مندهشًا:

أقتل؟! .. إنت بتقول إيه؟ .. مقدرش .. مقدرش.

ابتسم إليه سيسيل بقوة..

– مش بقلك مش جاهز.. مش عايز تقتل ناس كانوا مستعدين يقتلوك علشان سيجارتين.

ثم جلس على أحد الأسرَّة .. وصرخ في تيمور ورفاقه:

– بص إنت وهو.. قدامكم حل من الاتنين.. يا إما تموتو على إيدي دلوقتي زي الجدع اللي ورايا ده .. أو ..

ثم يشير جهة حاتم ..

– أو تقتلو حاتم، وهسيبكم كلكم تعيشوا.

فنظر تيمور ورفاقه إلى سيسيل ثم ابتسم وهو ينظر إلى حاتم، ويريد أن يفتك به.. فصرخ به حاتم، وهو غير مصدق..

- إنت هتخليهم يموتوني يا سيسيل؟!. إنت مش قلت إنك هتبقى صاحبي؟! .. إنت مش قلت إنك هتحميني؟!

فنظر إليه سيسيل بضيق ..

- أنا الأمير يا حاتم، ومش مستعد أنتظر تاني.. لو مبقتش جاهز إنك تعمل العهد معايا تبقى تموت هنا دلوقتي، وأشوف غيرك .

ويصرخ في تيمور ورفاقه :

- اقتلوه ..

يركض تيمور،ورفاقه وهو يحمل مطواته جهة حاتم المصدوم من رد فعل سيسيل، ولكنه رأى في عيونهم الموت يجثو بداخلها..فقرّر الدفاع عن نفسه، وانزلق سريعًا تحت أحد الأسرَّة.. فتوقف تيمور بجوار السرير، وأمر أتباعه أن يحضروا حاتم من أسفله، ودَلَفَ الجميعُ خلف حاتم الذي ظل يقاومهم بقوةٍ، ولكنه عَجَزَ عنهم فسحبوه من أسفل السرير،وأوثقوه بقوةٍ.. فدفعهم حاتم بشدة للخلف، وسقط على السرير الذي خلفه وسقط معه بعضهم.. نظر إلى يمينه فوجد المذياع الذي كانوا يستمعون إلى المباراة من خلاله، فسحبه واندفع به بقوةٍ وضرب تيمور به على وجهه.. فتــألَّمَ تيمور بشدة وسقط على الأرض وهو يمسك أنفه.. فسقطت منه المطواة الصغيرة، فحملها

حاتم بسرعةٍ ووقف يُشْهِرُها فتراجَعَت عصابة تيمور للخلف متردّدين.. فنظر حاتم إلى سيسيل خلفه.. الذي حدَّثه بحدة..

- متردّد ليه؟.. يا حياتك يا حياتهم؟.. هي دي الدنيا.. يا تعيش قوي، وتبقى سعيد.. يا تموت عبيط وإنت مصدق إن السعادة في الآلام، وواضح إنك هتموت عبيط.

صرخ حاتم بشدة..

- أنا بكره الآلاااااالم.

واندفع إلى أحد زملائه وطعنه بقوةٍ في معدته.. فسقط وهو يمسكها ويصرخ وتتساقط منها الدماء.. ذُعِرَ تيمور ورفاقه عندما شاهدوا حاتم يمسك المطواة بيده، والدماء غطت يده، وملابسه.. فأضفت على ملامحه الرعب في ظل الإضاءة الحمراء الخافتة المحيطة بهم، وحاول أحدهم يائسًا.. أن يهجم على حاتم الذي طعنه بلا تردُّدٍ في صدرِه أكثر من مرة.. فسقط هو الآخر.. فقفز سيسيل وهو فرح وظل يصفر لحاتم ويصفق له..

- برافو.. برافو.. اقتلهم..اقتلهم كلهم يا حاتم.. اقتلهم كلهم.

أحد زملائه يحاول أن يهرب منه ويختبئ أسفل سريره، فيتبعه حاتم، وهو يزأر بشدة وأطبق على قدميه، وطعنه بالمطواة بها.. في ظل صراخ زميله.. ثم سحبه قليلًا، وطعنه في فخذه.. ثم سحبه أكثر،

وطعنه في ظهره.. ثم سحبه أمامه، وطعنه في رأسه بعنف، وسيسيل يُصفِّقُ له بشدة، ويُشجِّعُه..

– هوووووه.. جامد يا حاتم.. حلوه.. اقتلهم كلهم .. يا حاتم .. وريهم إنك مش ضعيف.. بتحجج بالآلام، والأحلام.. وريهم إنك أحسن منهم.. هما مش بني آدمين بالنسبه لك .. هما دلوقتي حيوانات بتدبحها .. صراصير .. بتدوس عليها برجلك.

كلام سيسيل يسري كالسحر في جسد حاتم الذي أغلقَ عقلَه تمامًا وتحوَّل إلى إله قتلٍ.. يقتل بعنف شديد.. قتل جميع زملائه.. ما عدا تيمور.. الذي أصبح واقفًا بمفرده ويتقدم حاتم إليه وهو مغطًّى بالدماء بالكامل، وبعض القطع الآدمية المبعثرة فوق وجهه وملابسه.. شعر تيمور بالذعر الشديد، ولم تستطع قدماه أن تحملاه.. فسقط أرضًا وهو مذعور ويحبو على يديه وقدميه هربًا من أمام حاتم.. كان منظر حاتم يُلقي الرُّعب في أي مخلوقٍ معاصرٍ لتلك اللحظة.. فحاتم أصبح مغطًّى بالكامل بالدماء حتى شعره الأسود الذي تحوَّل إلى الأحمر، والدماء متناثرة بشكل غريب على الحوائط البيضاء والجثث متناثرة فوق الأسرة وعلى الأرض وتيمور ما زال يحبو حبوًا جهة الباب.. لا تقوى قدماه أن تحملاه من الخوف الذي يشعر به، وسيسيل يُشاهِدُ حاتم بسرور، وبدأ يتراقَصُ خلفه وهو يُحييه.. نظر حاتم إلى وجه تيمور المُرتَعِب، واقترب منه وتيمور يترجاه أن يُبقي على حياته، ووقف أمامه وهو يبتسم ابتسامة مُخيفة وهو يضع المطواة

في أذن تيمور اليمنى ويغرِزُها بقوةٍ وتركَها بداخل أذنه وبرأسِه، وظلّ يُشاهدُ تيمور الذي وقفَ سريعًا وهو يصرخ ويمسك أذنه يُحاوِلُ أن يُخرِجَ المطواة من رأسه، وظَلّ يركُضُ في الغرفة بلا هديٍ عدة لحظات، وحاتم يتابعه، ويركض وراءه وهو يضحك بجنون، وظَلّ تيمور يصرخ، وهو يركض ثم يتعثر في إحدى جثث زملائه، وهو يعدو ثم يقف مرة أخرى ويتَّجِهُ إلى الحائط الذي يسُدُّ طريقه في نهاية الغرفة، ثم يلتفت خلفه ليرى حاتم أمامه وهو يضحك بجنون، ومغطًّى بالدماء.. ثم يسقط على الأرض جثة هامدة تحت قدمي حاتم.. فتقدَّم سيسيل ببطء، وهو يخطو فوق الجثث التي بالغرفة، وهو ما زال يتراقص برقصاتٍ غريبةٍ، ويضحك.

- نجحت يا حاتم .. نجحت في إنك تكتسب حق العهد مع الأمير سيسيل.

ولكنه توقَّفَ فجأةً، وهو مندهشٌ عندما رأى حاتم يرْسُمُ على الحائط بالدماء التي على جسده وعلى الأرض تحت جثة تيمور، وظل سيسيل يتابعه وعلى وجهه ابتسامة رضا، وانتهى حاتم من الرسمة التي على الحائط، والتي كانت لشمس صغيرة وبجوارها قوس قُزح، وكتب بجوارها بعض الترانيم القبطية من أسبوع الآلام التي حفظها من فوزي.. نفس الرسمة التي رسمها حاتم، وهو بعمر الأربع سنوات.. الذكرى الأولى السعيدة التي كوَّنها حاتم وهو صغير.. رسمها في تلك اللحظة، وهو يتمنى أن يتذكر تلك اللحظات السعيدة.. عسى أن

تخرجه من حالة التبلُّد التي كان يشعر بها بعد أن قتل زملاءه، ولكن لم يشعر بشيء.. لم يشعر بأي شيء على الإطلاق.. فانسابت الدموع من عينيه بتلقائية، والتفت إلى سيسيل وراءه.. الذي بادره بسؤال..

- إيه رأيك في القتل يا حاتم؟

ردَّ حاتم سريعًا، وهو يبتسم ابتسامة حزينةً، والدموع تنساب من مُقلتيه ..

- سهل .. سهل قوي.

اقترب منه سيسيل، وهو سعيد.

- هو ده شعور القوة يا حاتم.. أفضل شعور في الدنيا.. إنك تمد إيدك قدامك وهي متغطية بدم أعداءك.. وجثثهم تحت رجليك.

ويُمدُّ سيسيل يده أمامه باتجاه حاتم وهو ما زال يحدثه..

- هو ده شعور السعادة الحقيقية.. مش شعور الألم، والحزن.. حط إيدك في إيدي يا حاتم هتفتح صفحة جديدة في حياتك كلها قوة، وسعادة، وهيبقى فيها الألم والحزن بس لأعدائك مش ليك.. أقم العهد يا حاتم.

وأصبحت يد سيسيل يسطع فوقها لونٌ أسود قويٌّ، وشديد.. نظر حاتم إلى سيسيل لحظات، ثم مَدَّ يده المُخضبة بالدماء ببطء ليضعها فوق يد سيسيل.. ليتحول سيسيل إلى شيءٍ مثل الدخان

الأسود.. ثم يدخل سريعًا في أصابع يد حاتم.. فينتفض جسد حاتم لحظات، ويجثو على ركبتيه متألمًا.. ثم يهبُّ واقفا فجأةً، وعلى وجهه علامات الفرح والسرور، ويفرد يديه إلى أعلى، وهو يصرخ بقوة.. صرخةً شديدة.. أسمعت جميع مَنْ كان بجواره في تلك اللحظة.. ثم صرخ بسعادةٍ

– أخيرًا.. أخيرًا.. رجعت لقوتي تاني.

ثم نظر حوله في الغرفة فوجدها مليئة بالدماء، وبالجثث المتناثرة في جميع الأركان ورسمة حاتم التي ما زالت على الجدار.. فحدَّث نفسَه بابتسامة ..

– دي مشكلة كده..

ثم فرقعَ أصبعيه.. فاشتعلت الأسرة بالنيران بسرعة شديدة، وامتلأت الغرفة بالدخان الأسود الكثيف، وجميع ما في الغرفة أصبح أصفر بلون النيران التي انتشرت بسرعة شديدة للغاية.. ثم نظر إلى باب الغرفة.. فانخلع من مكانه، وتطاير،وتقدَّم من خلاله سيسيل وهو في جسد حاتم، وترك ما خلفه من دماء، وأجساد تحرقها النيرانُ ..

***

علامات الاندهاش بادية على وجه عادل وهو يقف أمام حاتم يستمع إلى حديثه .. وحاتم يُحدِّثُه بضيق ..

- ومن ساعتها، وأنا بقيت قاتل.. قتلت علشان زمايلي في الإصلاحية ميقتلونيش.. الإصلاحية اللي دخلتها بسببك إنت يا كوجي.

احمرَّ وجه عادل من صدمة الخبر الذي وقع على مسامعه.. فصرخ مصدومًا..

- إنت؟.. إنت علاء الدين؟! أنا مش .. مش عارف.. أنا..

ثم طقطق رأسه خجلًا من وجه حاتم الذي ابتسم بسخرية..

- عرفت بقى يا عادل.. إني أنا مظلمتكش.!. وإن كل اللي حصلي ده بسببك إنت.. حاتم بقى الشماس القاتل.. بسبب عادل مهران، وإن من العدل إن عادل مهران يبقى هو الشماس من تاني.

عادل ما زال ينظر إلى الأرض، ولكن خرجت منه ضحكة شديدة للغاية .. أربكت حاتم وأدهشته وأغضبته للغاية:

- بتضحك على إيه؟ .. كلامي بيضحك في إيه؟.. فهمني.

فنظر إليه عادل فجأةً وهو يحمل ابتسامة كبيرة..

- إذًا.. جميع ما حدث لم يكن من قبيل المصادفة.. هذا من تدبير تلك الملعونة..فعلت ذلك لمحاولة إيقافي.. أليس كذلكَ أيها الصغير؟!

حاتم مندهشًا ..

– مين دي؟.. إنت بتكلم عن مين يا عادل؟

– أنا لا أتحدث إليك أنتَ أيها البشري.. أنا أتحدث إلى مَنْ بداخلك.. الشماس الحقيقي الذي يقبع مختبئًا في الظلال بداخلك.. الصغير سي سي.

علامات الدهشة والغضب أصبحت على وجه حاتم فجأةً ..

– إنت مين .. انطق بسرعة.

يضحك إيواس بشدة ..

– أنسيتني أيها الصغير؟.. لم يمر على لقائنا الأخير سوى القليل .. تقريبًا ألفي عام إلا بضع سنين.. هل نَسيتَ مَنْ قَتَلَ جدَّك؟، وجعل أباك قعيدًا؟.. هل نسيتني أيها الأمير الصغير؟!

سيسيل مندهشًا مصدومًا ..

– إنت .. أنوريس !!

مبتسمًا ..

– أُدعى إيواس الآن.. كيف حالك أيها الصغير؟ هل ما زلت تُبلِّل ملابسَك؟

حاولَ سيسيل صفع إيواس بقوة.. أو بمعنى أدق حاول أن يُزيح رأسه من على جسده، ولكن أمسك إيواس يده بسرعة شديدة في جزء من الثانية.. بسرعة لا يستطيع البشر أن يلاحقوها بعيونهم.. فبعد ثانيةٍ واحدةٍ من إمساك إيواس ليد سيسيل.. تسبب ذلك في

صوت انفجار ضخم اهتزت له المباني وانكسر زجاجها، وتحطّم بسببه جميع ما بالغرفة من مقاعد، وأثاث،وذلك كان بسبب سرعتهم الرهيبة التي تعدت سرعة الصوت.

أنزل إيواس يد سيسيل وهو يصرخ به ..

– اهدأ.. اهدأ.. فجسد البشري الذي تتملكه لن يستطيع أن يجاري تلك السرعة، وسوف يهلك.

دخل شريف مندور مسرعًا ومعه عصام وبعض الجنود يحملون أسلحتهم إلى داخل الغرفة ليروا مصدر هذا الصوت الرهيب.. فوجد حاتم يقف أمام عادل، وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر بحقد،وجميع الأثاث والمقاعد والزجاج الذي بالغرفة مُحطَّمٌ من حولهم، وظهرت بعض الشروخ الكبيرة في الجدار بجوارهم. نظر الجميع مندهشين من ذلك المشهد، وتحدث شريف مُرتاعًا..

– في إيه؟ .. إيه اللي حصل .. الصوت ده جه منين؟

نظر سيسيل إلى شريف والجنود حوله.. فأمسك قبضة يده بقوة، وفي غضب، ونظر إلى إيواس بحنق، وهو يغادر الغرفة،وشريف ينظر له مندهشًا.. فتحدّث إلى عصام..

– نفذ اللي قلتلك عليه مع حاتم .. بسرعة دلوقتي.

هزَّ عصام رأسه وهو يبتلع ريقه عندما شاهد إيواس يبتسم له.. ثم ركض مُسرعًا خلف حاتم الذي تلاشى جميع من يحدثه وتركهم إلى

خارج القسم، وهو يجزُّ على أسنانه بغضب . ليُفاجأ بشيء غريب أمامه..لفيف كبير من الصحفيين والقنوات الإخبارية يقفون أمام القسم.. انهالوا عليه بالأسئلة وهو خارج من القسم كالصقر الجارح وهو يُمسِك بعصفور صغير..

- إيه اللي جابك القسم النهارده ؟..هل إشاعة إنك تعرف الشماس دي حقيقة؟.. "هو حد من قرايبك اللي مابتكلمش عنهم .. إحكلنا قالك إيه الشماس جوه؟!

سيلٌ من الأسئلة، وسيلٌ من كاميرات التصوير تقوم بالتقاط صور له، وهو يركب سيارته ويقودُها مُنفردًا، وهو غاضبٌ بشدة، وجميع الصحفيين بدؤوا يتتابعونه في سيارتهم الخاصة وسيارات القنوات الإعلامية التي يعملون بها، وأشار عصام إلى ثلاثة يجلسون في إحدى السيارات أمام القسم.. فانطلقوا خلف حاتم مُسرعين ...

***

بعد انتهاء جلبة الصحفيين أمام القسم.. تقدَّم رجل يرتدي بنطالًا قماشيًّا وجاكت أسود، ويحمل علبة متوسطة الحجم مغلفة بغلاف فضيٌ ومربوطة بشريط أحمر كهدية، ويتقدَّم إلى داخل القسم مرتعشًا.. فيجد ضابطًا يجلس إلى مكتبه في غرفة الاستقبال وأمامه بعض الأوراق يُراجِعُها .. فيتحدث الرجل إلى الضابط ..

- لو سمحت .

فينظر له الضابط سريعًا..

– أيوه.. عايز إيه..؟

فيحدثه الرجل بصوتٍ مُضطربٍ وهو يكاد أن يبكي ..

– أنا هنا علشان الشماس.

****

يقود حاتم سيارته بسرعة شديدة،وهو يضرب مقود السيارة بغيظ:

– مين اللي قال للصحفيين إني هنا؟

يظهر سيسيل على المقعد المجاور لحاتم، وهو يتحدث بهدوء:

– الظابط شريف مندور.. هو اللي سرَّب للصحفيين إنك هنا، وكمان بعت ظباط من عنده يراقبوك..حط سماعة البلوتوث في ودنك علشان اللي حوالينا.

يُخرِجُ حاتم سريعًا سماعة البلوتوث ويضعها على أذنه..

– إيه اللي حصل هناك مع عادل.. أنا مفهمتش حاجه؟

– عادل صاحبك.. طلع زيك هو كمان.. شكله عامل عهد مع أنوريس أشد أعدائي، وأعداء عائلتي.. إحنا في حالة حرب مع بعض من آلافِ السنين لحد دلوقتي.

حاتم يضحك بسخرية شديدة..

- يعني عادل هو كمان..هههههههههه..يعني إتحقق العدل أخيرًا!.. بقى متهم في قضية معملهاش، وكمان عمل عهد مع واحد زيك .. نفس الكاس اللي انا شربته.. داق منه ..

نظر له سيسيل بغضب..

- واحد زيي.. إنت بتقارني انا الأمير سيسيلي المرؤوف.. بواحد زي أنوريس.. إنت نسيت نفسك، ولاّ إيه يا حشره.. عايزني أحوّلك تراب دلوقتي؟!

حاتم متراجعًا ..

- إهدا.. إهدا يا سيسيل.. إنت هتطلّع غضبك عليَّ أنا.. أنا في صفك.. إهدا كده.. أنا عمري ما شفتك متعصّب كده في حياتي.

صارخًا:

- إنت متعرفش أنوريس ده بيمثلي إيه.. أنا مكرهتش حد في الدنيا قده.. قتل جدي، وقطع رجلين أبويا، ودمّر نصف مملكتي، وبعدين خدوه مني سجنوه في عالمنا، ومعرفتش أوصله.. بس هو كده باين إنه هرب وجالي هنا برجله.. فرصتي إني أنتقم منه وأدوقه كأس الندم، وأوريله مين هو الأمير سيسيلي المرؤوف.

قالها سيسل، وهو يضغط على قبضة يده أمامه، وهو يقسم بالانتقام، ولكنه صرخ في وجه حاتم فجأةً ..

– حاسب.. حاسب.

فنظر حاتم أمامه بسرعة.. فظَهَرَ فجاءةً أمام سيارته عربة أطفال. فحاول أن يوقف السيارة بسرعةٍ، ولكنه لم يستطع ..فاصطدم بها.. فتطايرت العربة في الهواء أمام عينيه ببطء شديد، وتصاعدت مع سقوط عربة الأطفال أمامه صوت ضربات قلبه.. فتوقَّف حاتم بالسيارة فجأةً، ولكن بعد أن صُدمت عربة الأطفال وقُذف بها بعيدًا أمامه.. اختفى سيسيل من جواره، ونزل الصحفيون الملاحقون له بفضول شديد، وبدءوا تصوير عربة الأطفال، وحاتم يترجل من سيارته وهو غير مصدق لما حدث، وترجَّل من خلفه ضباط الشرطة الملاحقون له بأمر شريف منذور ليقفوا أمامه وهو ينظر إلى عربة الأطفال الملقاة على الأرض وهو منهار يجثو على ركبته ..

***

الرجل يقف مرتعشًا أمام الضابط في القسم ويحدثه بخوف وبصوت مرتعش ..

– أنا هنا علشان الشماس.

فينظر له الضابط باهتمامٍ شديد ..

– الشماس.. علشانه إزاي فهمني .. بسرعة.

ويقف مُسرعًا وهو ينظر إلى الرجل الذي ينهار فجأةً،وهو يصرخ بالضابط..

- إلحقني يا بيه إلحقوني.

ثم يفتح الجاكت الخاص به.. فيجد الضابط متفجرات ضخمةً للغاية ملتصقة بجسد الرجل.. فنظر إليه مصدومًا، والرجل يصرخ فيه مُستنجدًا..

- إلحقني يا بيه .. محمود سالم، وأحمد القناوي .. قالولي..

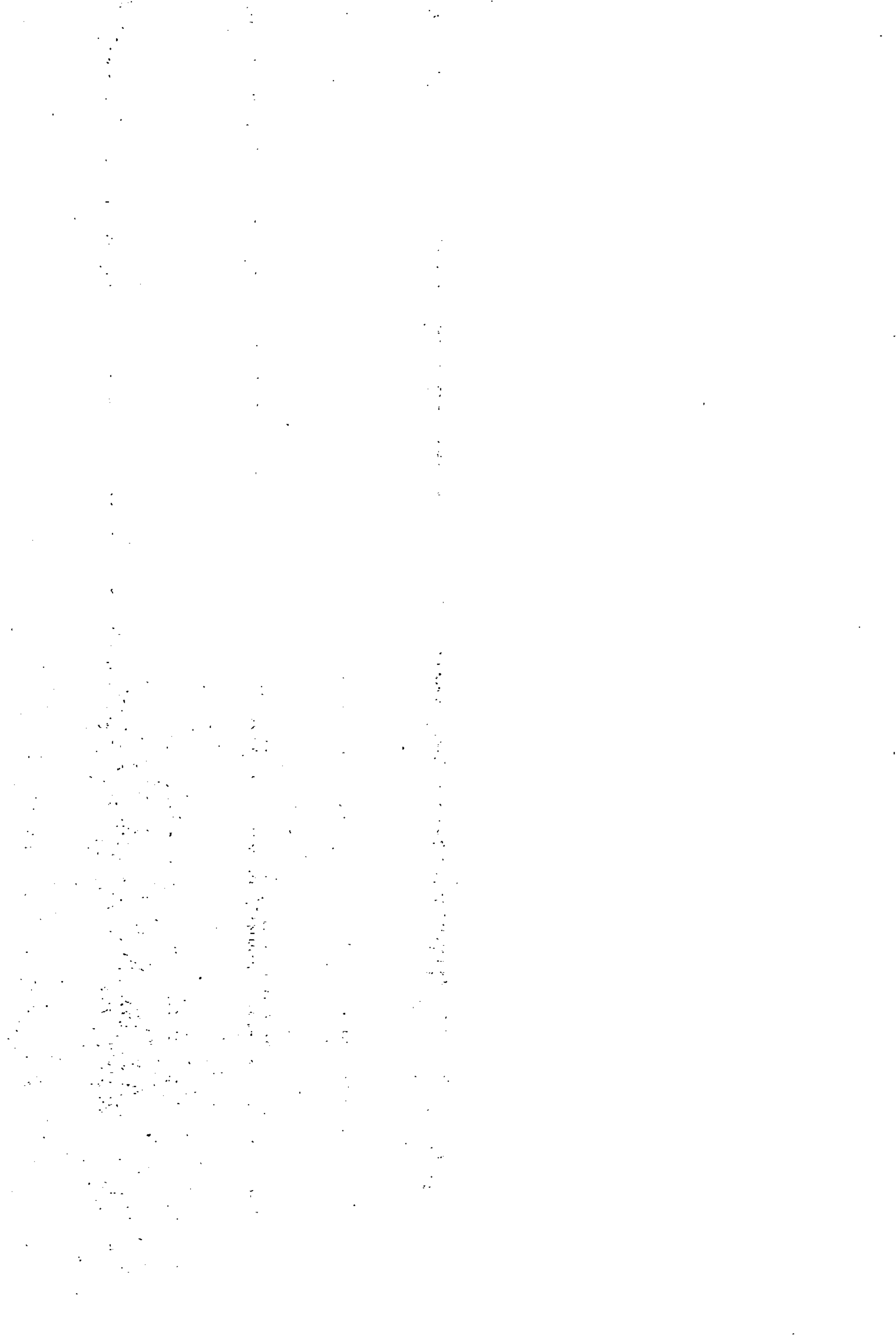
ثم يحدث انفجارٌ كبيرٌ جدًّا بداخل القسم ..



* في الجزء الخاص باحداث الامن المركزي تم الاستعانه ببده مقالات للكاتب / محمد صلاح الزهار

* تمت الاستعانة في احداث تلك الرواية بوقائع حقيقيةٍ حدثت بالفعل.







صَرَخَ عـادل بأعـلى صوتـه أمـام الكائـن الشـيطاني الذي كان يفتك بجموع الشباب:

- أنـا هنـا.. أنـا هنـا.. أنـا الشـمّاس تعـالى هنـا, وأنـا أخلص عليك.. أنا الشماس.. تعالى.

نظـر الكائـن جهـة مصـدر الصـوت ثـم قفـز سريعًـا مـن علـى بـاب إحـدى الغـرف بالأعـلى إلى منتصـف غرفـة المعيشـة بقفـزة واحدة..فقـام عـادل بوضـع قطعـة مـن القـماش داخـل زجاجـة الخمـر ووضـع الشـمع بداخلها بعد أن قام بتفتيتها ووضعها فى الزجاجة، وأمسـك بيـده اليـسرى القداحـة وهـو علـى أهبـة الاسـتعداد أن يشـعل النـيران فى زجاجـة المولوتـوف ويلقيها علـى هـذا الكائـن.. الـذي وقـف فى منتصف غرفـة المعيشـة وبـدأ يحـاول تتبُّـع مصـدر أي صـوت.. فصرخ به عادل:

- أنا هنا قدامك.. أنا الشمّاس.



الشمّاس - الجزء الأول


دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE